يوسف السباعى

حنـــان مفيـــد



يوسف السباعى

سبعة وجوه

شكر خاص لعدسة الفنان محمد مسعد

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - مدينة نصر
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

حنـــان مفيـــد

يوسف السباعى
سبعة وجوه

دار الشروق

إهــداء

إليك..

يا مَن أتيت مع الندى

أضأت شموعًا على شرفة العمر

أشعلت شغفًا فى ردهة القلب

أمطرت حنانًا فوق أسطح الأيام

ثم... قبلت جبين المطارح ورحلت

وانتظرتك ورحت أدغدغ أوكار الوقت

طال الوقت وطاف يبحث عنك

فلا أنت

ولا ظلك

ولا ضريحٌ لأطلالك

عاد يناجينى...

إلى روح الطائر الـمُغرد بين محيطات المدى.. أهدى كتابى..

حنــان مفيــد

مقـدمـــة

يوسف السباعى

بقلم سناء البيسى

كانت مشاعرى نحوه يؤرجحها الهواء . . أيام لا أجد له فيها مثيلاً فى الظرف واللطف والكياسة وحسن الاستقبال والعطاء والجمال ، بعدها تغدو آذان استشعارى تجاهه مستنفرة ، توقعًا لقرار فجائى منه يطلقه على عواهنه بحكم موقعه فيوقعنى من هول وقعه فى حبائل الكمد ونير الأسى . . الرجل الدمث فائق الطلعة الحسنة وضحكة الطفل البريئة الذى عملت تحت رئاسته مرتين ، الأولى فى «أخبار اليوم» عام ١٩٦٦ حيث تنعمت بفيض أجواء بشاشته التى تتدفق على كل من حوله ، ولم أزل أذكر عندما كنا ندخل مكتبه فى الدور الرابع لنقوم بمهمة وداعه قبل أى رحلة له للخارج ، ينفرد بكل منا يسأله بإصرار عن طلباته من بلد زيارته . . لقد كان الأعلم والأدرى والأقرب لمعرفة المعاناة باستحالة إتاحة فرص السفر لأى منا فى تلك الأيام ، أما إذا تحققت المعجزة وأتت سفرة المحال للمسعد الذى دعت له أمه بألا يأتى ذكره ضمن كشوف الإخوان أو الماركسيين أو الحزبيين أو أنصار الإقطاع والألقاب أو الشتامين أو البكائين أو النقادين ، فكيف بالله تكفى الخمسة جنيهات التى لا يسمح بغيرها مهما طال البعاد بالطير المسافر ؟ ! وكان الإذن بالحتة بخمسة (إسترلينى) يأتى من عال بإذن جمهورى من الناصر شخصيًا ، ومن هنا كانت حبال

غسيل صاحبة الحظوة تنشر فى الواجهة من باب التباهى والتفاخر وكيد العواذل الكيس البلاستيك المطبوع بأسماء المحلات الأجنبية الذى عاد به القادم بالسلامة من بعد الغنامة من الخارج، وتطق عين كل من يقرأ الحروف اللاتينية ولا يبسمل ويحوقل خاصة إذا ما حمل الكيس البلاستك الغالى اسم محلات «سان مايكل» ومازلت أذكر ـ ومعذرة لتداعى الذكريات فذكرى السباعى تنبش أرض النفس فى كل ما هو فات ـ عندما كان وحيدى طفلاً يعود من الحضانة باكيًا لكى أحضر له تلك الفاكهة المستديرة كالكرة الحمراء واسمها التفاح التى يراها يوميًا بين قضمات زميله فى الفصل زياد أحمد بهاء الدين، ولما كان انعكاس التفاح فى أحاديثنا لا يأتى إلا بذكر فواكه الجنة وحسن الثواب والمآب . . ولما كانت مصر وقتها لا يرى ليلها ولا نهارها تفاحًا أو شامبوها أو كورن فلكس وبالتالى لا يعرفها أطفالنا تمامًا مثل الفستق الذى كان يلقى فوقنا من أبناء سيادة السفير ساكنى الدور الرابع، فارغًا بالطبع، فنقلب فى الفوارغ حسرة وندق بهمّة الهستيريا حبات مغلقة زهد فيها مقزقزوها، فإذا ما تصدعت القشرة ندبُّ طرف أصبعنا الخنصر لنستخرج هشاشة الثمرة الغالية الخضراء نستطعمها ونذيق من باب الحنان طرطوفة منها للعيّل حتى لا نحرمه من شىء أو من ثمر خلقه الله . . لهذا هرعت بجميع غيظى واستفزازى للأستاذ بهاء أشكو إليه منه وأهيب به تذويب الطبقات وخفض ضغوط الآلة التفاحية الجهنمية على مشاعر الأبناء المحرومين، فكانت ردود فعله غاية فى الاعتذار والندم، وأرفق تفسيره للفعل الأخرق بالشرح المطول بأن أحد أصدقائه اللبنانيين أتى لهم بهدية صندوق تفاح فكانت زوجته تعطى لابنها على سبيل التغذية لا غير، كل يوم تفاحة، وأكد لى أنها أول مرة وآخر مرة، ونسى ابنى إغراء التفاحة وعشنا سنين عجافًا مع البلح الرطب والبطاطا . . والبساطا . . وسد الحنك . .

من هذا المنطلق وتلك المعاناة كانت لفتة يوسف السباعى غاية فى الكرم عندما يعرض خدماته ليأتى لأى منا بمبتغاه من بلاد العجب خارج حدود الاشتراكية والاتحاد الاشتراكى والصاروخين القاهر والظافر ومديرية التحرير وربط الحزام والحتة أم خمسة، ومازلت والله أرتع حتى الآن فى أمتار المنحة التى عاد بها السباعى هدية لزوجى الفنان الراحل منير كنعان عندما طلب منه أن يأتى له من

روسيـا بقـماش «الكانفـاس» الذى يتم نسجه هناك بجودة بالغة لرسم اللوحات الزيتية، وكانت مصر لا تعرفه وقتهاـ ولم تزل ـ فإذا بالسباعى يعود من رحلته السريعة للاتحاد السوفيتى ليطمئن الفنان بتحقيق مطلبه فى القريب، ويمضى الوقت وينسى كنعان، ولكن بعد عدة شهور يتم إبلاغنا رسميًا بأن الطرد المطلوب قد وصل على متن إحدى سفن السوفييت، وإذا ببالة من قماش الكانفاس المعد خصيصًا طولها وعرضها عشرات الأمتار تسكن فراغ شقتنا، عاش كنعان يرسم عليها لوحاته الضخمة حتى رحل، ولم أزل أنقل حمولة بقيتها من عزال إلى آخر. . ! ولأنه الأديب الفنان الذى يستطيع تفهم نوعية أسئلتى التى قد تبدو خارج أى موضوع ذهبت أسأله يومًا عن سر ابتسامته الدائمة، فأجابنى بفورية ضاحكة: «أعمل إيه لحظى . . أنا راجل محظوظ . . أضحك للحظ ويضحك لى».

ويحمله الحظ مرتين فى عامى ١٩٧٣ و١٩٧٥ إلى كرسى وزارة الثقافة فى عهد السادات، ويطلب منى أستاذى أحمد بهاء الدين رئيس التحرير إجراء حوار ساخن متفرد مع الوزير فأذهب إليه متأججة يملؤنى الحماس والشجن والذكريات وبين الأطلال ونحن لا نزرع الشوك ونادية وأم رتيبة وإنى راحلة والناصر صلاح الدين ومجلة الرسالة الجديدة وصلاح ذو الفقار وإدوار الخراط وخديجة قاسم ولست وحدك الأميرة إنجى والعمر لحظة . . و . . أجلس إلى السباعى الوزير ليفصل بيننا الدكتور مرسى سعد الدين صديقه ورفيقه الذى شعرت بعد لحظات أننى جئت أحاوره هو وليس اللقاء مع من يجلس خلف مكتب الوزير، ولم أستطع النفاذ الحقيقى إلى السباعى، فالدكتور سعد كان يستدعينى إليه ليجاوب على أسئلتى فى سطر وأسيب سطر، ولم يجد السباعى غضاضة تبعًا لمشورة الدكتور فى تحميلى كمية من أوراق وبيانات الوزارة لتسهيل مهمة إعداد موضوعى منها، فغادرتهما بعد أن انطفأت وخمدت جميع بطارياتى، وكتبت ما يشبه التقرير لأقدمه لرئيس التحرير، وفوجئت فى الصباح بالأهرام ينشر سطورى الصماء مع لافتة مصاحبة «بقلم سناء البيسى» وهرعت فزعة للأستاذ بهاء الذى أبدى اندهاشا بالغًا لأننى الوحيدة التى تعترض على «بقلم» وتشكو منه إليه منحها شرفًا لا أستحقه فقلمى لم يكتب شيئًا جديرًا بالاعتناء وما كتبته يا أستاذ بهاء ليس إلا مجرد ترديد ونقل لجفاف

تقارير الوزارات . . لقد حرمنى الأستاذ السباعى من أن يجعل كلماتى تنبض بالحياة . . وعزمت بعدها ألا أجرى حواراً آخر مع النشرات ، ومع من لا يعطينى سوى أذن واحدة ، ومع من لا يعنيه ما سوف ينشر مادام النشر سوف يتم واسمه حيطلع فى الجرنال ، ومع من لا يريد أن يردنى مدحورة فطيب خاطرى بالجلوس فى حضرته حتى ولو كان حضرته مشغولاً فى أمور رسمية أو شخصية . .

وأعمل مرة أخرى مع السباعى رئيسًا عام ١٩٧٦ فى «الأهرام» ، وأذهب إليه بدافع الصلة الحميمة الممتدة الجذور أشكو له ضعف مرتبى وهزال علاواتى وهوانى على جنيهات يوزع مع كل جنيه منها خمسة حرامية ، فيجيبنى السباعى الآخر الذى لا أعرفه : «لم ينصفك الجميع على مدى كل السنين الماضية فلماذا تريدين منى أن أنصفك أنا ! ! » . وعثرت فى إجابته على تفسير لمنطق البعض تجاه أوضاع متكلسة قائمة لا يريدون المساس بمواطن الداء فيها حتى لا تتهيج بقية الخلايا ويستفحل الأمر ، والأسلم ترك الوضع على ما هو عليه منعًا لوجع الدماغ أو فتح الباب على الريح التى لا تجلب راحة . . و . . أتوجه لغرفة مكتبى فى الدور السادس يومًا فأجد السباعى قد أمر بنقله إلى ساحة مكاتب الموظفين فى الدور الخامس ووضع بدلاً منه مكتبًا آخر لزميلة ليس لها محل من العمل أو الإعراب سوى الواسطة فأطلب مقابلته فيرجونى رجاء حاراً من أجل خاطره وحق العشرة الطويلة ومعزته عندى أن أتمم التنفيذ حتى لا يظهر بمظهر من لا تطاع أوامره وتنفذ قراراته ، ولم أجد فى حبى له مبرراً كافيًا لطاعته فكتبت استقالتى لسان كرامتى وموقف حريتى وذهبت لبيتى ، لأجد رسوله لاحقًا بى لأعود لمكانى ومكتبى الذى خرج ودخل ونزل وطلع وأهين وردت إليه كرامته فى أقل من ساعة . . ولم أجد لما كان مبرراً اللهم إلا من منطلق فلسفة أنا موجود وعلى الرأس والعين إذا أنا أصدر قراراتى وعلى من يتسلم القرار التنفيذ فى الحال والتو . . ولاقيته بعدها مراراً ولم نفتح الموضوع وحمداً لله أننى لم أشكه لأحد أو أشكو أحدًا إليه ، فقد كان رحمه الله يريح مخه فى مثل هذا الأمر إذا ما جاءته شكوى من أحدهم فى أحدهم فيستدعى الاثنين أمامه ليجبر الشاكى على إعادة ما قاله فى حق زميله في مواجهته ، وحقيقة انعدمت الشكاوى الكيدية فى عهده ليس عن انتفاضة أخلاقية وإنما منعًا للإحراج ، ومازلت أحتفظ بخطاب كيدى

بعثه أحد الزملاء للسباعى يثير فيه حفيظته ضدى فما كان منه إلا إرساله لى مع تأشيرة منه «للاطلاع لا غير» وحمدت الله أنه لم يستدعنا معًا أمامه فلم أكن أتحمل أن أرى ذلك الزميل الذى يقطر تجاهى عسلاً وهو يقطر خجلاً . .

ويناديني السباعى ليزف لى بشرى اختيار الرئيس السادات لى لأشترك فى كتابة يوميات الأهرام المقتصرة وقتها على قمم الكتَّاب فى مصر ، فيجدنى صامدة لم أقع من طولى من زلزلة فرحتى ، بل لقد ذهبت أتوسل إليه أن يترك قلمى قابعًا فى بيته يرتع فى ملعبه على مساحة عاموده الأسبوعى فى عدد «الجمعة» الذى نشأ وشبّ عليه «هو وهى» ومن خرج من داره اتقل مقداره ، وخرجت من مكتبه توًا فوق قدميّ تخوفًا من غضبة تخرج لى مكتبى مرة أخرى لبسطة السلم ، وتقصف رقبة قلمى فى أيام الجُمَع والخمسان والأربعين . .

وينزل السباعى لمعترك انتخابات نقابة الصحفيين فى عام ١٩٧٦ ونقع فى شرك الاختيار الصعب ، فالمرشح أمامه هو يوسف إدريس ، وأذكر تعليقًا للزميلة المرحة بهيرة مختار وقتها حول حيرتنا فى اختيار أى منهما نقيبًا لنا : «نعمل إيه . . الاتنين حلوين . . الاتنين كتاب . . الاتنين يوسف . . الاتنين فكر وفن وأدب وثقافة . . الاتنين بعيون زرقاء . . الاتنين شربات . . ولازم أى يوسف يكسب . . والله حرام . .» .

ويكسب السباعى . . ويضحك السباعى . . ويصول ويجول ويقول وألقاه قبل سفره الأخير بيوم واحد صدفة على جبل المقطم يمارس رياضة المشى وشعره الفضى يمشطه الهواء والابتسامة الذهبية تعلو وجهه و . . العمر لحظة أو كما قال : «من منكم لا يرى الموت أقرب من حبل الوريد؟ أنا نفسى أراه كامنًا بجوارى فى كل لحظة ، فى عربة تعدو فى الطريق ، أو فى زر للكهرباء أو فى عود ثقاب ، أو من رصاصة صغيرة أو من قطعة جاتوه . . أو فى كل شىء أو فى لا شىء . . الموت سكتة من سكتات القلب . . أو . . . » على باب قاعة اجتماعات فى قبرص .

ويفقد يوسف إدريس الصديق الحبيب وندّ الرأى : «بكائى عليك يا يوسف مزدوج فأنا لا أبكى الإنسان فيك وإنما روح الإنسَانية التى كانت تعطر كل مواقفك

وعلاقاتك بلمسة الإنسان . . مزدوج لأنى لن أكون صريحًا مع أحد مثل صراحتى معك ، حادًا مع أحد مثل حدتى معك وحدتك معى ، مدلل مع أحد مثلما كنت تدللنى ككاتب وأدللك كإنسان ، رقيقًا عنيفًا ، جارحًا ناعمًا ، عاصفًا هادئًا ، قاسيًا رءوفًا رحيمًا . . يا ربع قرن كامل من عمرى عشته فى عمرك ، نتبارز لنتحاب ونتحاب لنتبارز ، أسطورة خلاف وأسطورة حب . . ربع قرن من الزمان ونحن فى خلاف جذرى فى الرأى ، والمذهل رغم هذا ، حب جذرى إلى شامخ القمم . . علاقة غريبة على بنى البشر ، لا يتصورها إنسان ، ولكنها فعلاً كانت واقعًا حيًا نعيشه ونتنفسه والناس من حولنا فى ذهول . . . » .

مات يوسف السباعى . . صاحب الابتسامة الأشهر من اسمه المعبرة عن صميم شخصيته الدالة على أن الإنسان أرقى الكائنات لأنه أقدرها جميعًا على تلخيص ما يجوس بعقله بابتسامة متكلمة تنطقها شفتان . . رحل السباعى صاحب القرارات الفجائية التى كان يحملنى بعضها إلى السحاب وبعضها يسقطنى فى جُبٍّ الأحزان . . مات ولم يكن صاحب القرار . . مات «وما تدرى نفس بأى أرض تموت» .

سناء البيسى

يوسف السباعى

سبعة وجوه

قصة يوسف

بين أطلاله جلست وبكيت وتمنيت أن يرد قلبي إليّ،

إني راحلة في موكب هواه،

علني أصافحه بخواطري فأرى عناقيده وحباته القرمزية،

موقعي عنده لا أعلمه،

آه لو يعلم عندي موقعه،

ولكن أين صوتي من مسمعه،

أين عيني من مضجعه،

لقد أضحى عظامًا نخرة يحتويها قبر بأرض قفرة.

أجلس الآن هائمة الروح ضالة النفس بإحساس أني في بيداء واسعة، قد خلت من كل شيء وصمتت عن كل صوت، كل ما حولي مفرط في الهدوء والسكينة، أطلق النفس حارًا طويلاً ثم أتلفت حولي من جديد لأجد القفر شديدًا والوحشة جاثمة، والفراغ واسعا فلا نسمة تعل، ولا قطرة تبل، ولا ورقة تظل.

وسط هذا الفراغ الخاذل، والوحدة المضنية يبلغ بي اليأس مبلغه، وأنا أبحث عن خل لم يخذل، ورفيق لم يهجر حتى أجد الورقة والقلم، فإذا بذاهب الأمل قد عاد، وقديم الرجاء قد تجدد، وإذا بك تطل من كبد السماء فتبدد السحب الداكنة، وتغمر

المكان بأشعتك الذهبية، لقد أعادتنى ذكراك إلى ذلك العالم الرومانسى المحب الذى طالما حلمت بأن أحيا ضلعًا فيه، أرتع فى حدائقه الوردية، أذوق من حلو ثماره، وأتمرمغ فى نعيم الوجد فأتلاشى فى حضرة نصفى الآخر، حين أجد فى عينه أقصى أمانىَّ.

هل حقًا قيمة حياتنا كائنة فى نفوس الآخرين؟ فى أرواح أولئك الذين يحتاجون إلينا ونحتاج إليهم، ينتظروننا دائمًا وننتظر هم أبدًا؟ . . هل الحب حقًا وحده هو الذى يشدنا لهذه الأرض ولولاه ما كانت لحياتنا قيمة؟

ولكن ياسيدى النفوس البشرية معضلة كبرى. . لا مقياس لها ولا ميزان، إنها إناء ينضح بالخير مرة وبالشر مرات، وما أظن أن لأبطال رواياتك النبلاء وجودًا على وجه الأرض، فهم مثل الكائنات الفضائية التى تعيش فى وجدانك ووجدان من يشاركونك العقيدة الرومانسية المجردة، هؤلاء الذين يقطنون كوكب فينوس، ينعمون فيه بالمحبة الخالصة والعطاء المكثف، بعيدًا عن شرور نبتون وبلوتو وجوبيتير والأرض. . فياقائد سرية النبلاء ذوى النفوس الراضية المطمئنة، لو أنصف الدهر لأعطاك نيشان الفضيلة لما تتمتع به أنت وأتباعك من خصال خيرية عامرة بالإيمان والرحمة والمودة.

ترى من أى طينة خلقت؟ . . ومن أى مادة ركبت؟

قد لا يعرف الكثيرون أن يوسف السباعى من عائلة كبيرة من العائلات المشهورة فى بنى على وهى عائلة حسنية علوية شريفة لها أصول مغربية من نسل ملوك الأدارسة، لقد وفد الجد الأول لهذه العائلة من الجزيرة العربية على مصر، وكان أول مقامه فى محافظة أسيوط، ثم نزح ببعض قومه فى تاريخ لاحق إلى القاهرة.

وأفراد هذه العائلة لا يزالون محتفظين بشجرة نسب نسلهم بالرسول الكريم محمد صلوات الله عليه وسلامه، وكانت وزارة الأوقاف المصرية كعهدها مع الأشراف الذين ينتمون إلى آل البيت تحدد لهم مكافأة سنوية لهذا الجاه الشرفى، وذلك إلى جانب اشتغالهم بالعلم والتجارة، ولم يكن ولدا محمد السباعى الجد لا الأب، وهما محمد وطه أول المتعلمين فى العائلة، فقد سبقهما سليمان السباعى

الذى كان محرراً فى جريدة الوقائع المصرية، إذن البعض منهم كان متفرغًا للعلم، والبعض الآخر للتجارة والآخرون للولاية، ومع ذلك فهم ينتمون جميعًا إلى جد واحد لا يزال يتبارك به الناس حتى اليوم وهو الشيخ صالح السباعى المدفون فى مسجد الدرديرى بالسيدة زينب بالقاهرة.

ولاشك أن هذا المناخ الروحى أو الصوفى لم يكن بالشىء الهين فى محيط أسرة «يوسف السباعى» والذى يمكن أن يمضى من غير أن يترك أثراً فى الأعماق عندهم.

بين أبو الريش وجنينة ناميش

حين سئل يوسف السباعى يومًا لماذا لم يكتب مذكراته مثلما يفعل أغلبية الكتاب، جاء جوابه منطقيًا صادقًا متمشيًا مع بساطته وميله للصراحة والوضوح، وهو أنه ليس بحاجة إلى كتابة المذكرات لأنه كتب بالفعل أدق تفاصيل حياته فى كتبه، أو بتعبير أدق استوحى حياته فى كتاباته فجاءت على شكل اعترافات وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منه، فالقارئ يكاد يلمسه فى معظم إنتاجه.

يقول يوسف السباعى فى أحد مقالاته «إن حياة الكاتب ليست ملكًا خاصًا به، بل هى ملك مشاع بين القراء، وأنا هنا أقدم إليكم قطعًا من حياتى أقتطفها كما هى وألقى بها إليكم عارية مجردة لا أثر فيها لخيال قاص أو ابتكار المؤلف، وبيدى لا بيد عمرو».

لقد أعطانا يوسف السباعى حرية التجول فى عالمه الذاتى، بل والإقامة لبعض الوقت إذا لزم الأمر، إذن تعالوا معى فى نزهة خلوية سيراً على الأقدام لنستمع إلى رجع أنفاسه وزفراته فى شارع السيد البرانى ومنه نعبر سيدى زينهم إلى سكة البغالة ثم نتجه يمينًا إلى ميدان زين العابدين ونلقى السلام على من استيقظ من أهل الحى، وحتى لا نمل السير نجلس لحظات نلتقط فيها الأنفاس على قهوة الواردى، وبالمرة نستجوب أول عابر سبيل عن ذلك المنزل قديم العهد المطل على جنينة ناميش.



أحقًا هو منزل السباعية؟! . . وكيف لا يكون وقد انطبق الوصف على الرسم . . نعم، هنا كان يسكن الأديب محمد السباعى وزوجته عائشة المصرى وأولادهما محمد ويوسف وأحمد السباعى، بكل أسف تعرف الأجيال الجديدة أسماء طه حسين وعباس العقاد وإبراهيم المازنى ولكنها لا تكاد تقف عند اسم أستاذهم جميعًا محمد السباعى لأسباب كثيرة أولها عدم انضمام صاحبنا إلى الأحزاب السياسية والتى مكنت لغيره إلقاء الضوء على كتاباتهم وإنتاجهم الأدبى، بينما كان محمد السباعى يرفض بشدة الانتماء إلى هذه الأحزاب حفاظًا على استقلاليته إلى جانب عدم اطمئنانه إلى موضوعية وأمانة وصدق مواقف هذه الأحزاب .

كان محمد السباعى متحرراً ثائراً ضد المفاهيم التقليدية، مؤمنًا بالجوهر

لا بالمظهر، لذا فلم يعبأ كثيرًا بمسألة الشهرة والأضواء رغم أنه كان شخصية سابقة لعصرها لا مثيل لها فى تقدميتها، لم تكن هناك مسافة بين ما يعتقده وبين ما يفعله، لذا حظى أولاده بتربية غير تقليدية، كانوا يدركون قبل غيرهم مدى غرابتها وشذوذها عن المألوف.

كان الأب يختلف عن بقية آباء هذا العصر فى كل شىء فى أسلوب التعامل والتفاهم الخالى من التجهم، الملىء بالاحتواء والبساطة، لم يكن الأب «الكشرى» جامد الملامح، عنيف الحركة، صارخ النبرة وإنماكان الأب الحنون المرح الرقيق الودود.

وبالطبع كان هناك صراعًا خفيًا بين منهج الأب التحررى ومفاهيم الأم الصارمة عائشة المصرى، وأشهر تلك المواقف التحررية فى حياة السباعى الأب، هو مكافأة الابن الراسب فى الامتحان لا الناجح لأن الثانى يكفيه نجاحه، وقد لعبت هذه الأبوة الحانية دورًا هامًا وحيويًا فى نفوس الأبناء وأولهم يوسف الذى كان يدرك قيمة والده كمثال للأب المثالى إلى جانب قيمته الأدبية ككاتب قد يعد من أشهر مترجمى عصره والذى عرَّفنا على ديكنز وسبسنر وأديسون وشكسبير وترجم الكثير من القصص القصيرة ومصرَّها بأسلوبه الرائع فضلاً عن مؤلفاته هو شخصيًا ومنها الصور والسمر وذات القلوب البيضاء وغيرها.

ومن هنا ورث يوسف الشخصية المبكرة للأديب عن أبيه، وظل كل منهما يكن للآخر حبًا واحترامًا وتقديرًا، كان هذا التلاحم والتناغم بين السباعى الكبير والسباعى الصغير من أوثق الارتباطات الوجدانية، والتى امتدت فيما بعد لتشمل عائلة السباعى الصغير التى كونها هو لتصبح صورة طبق الأصل من أسرته الكبيرة التى ترعرع فيها، كأن الزمان يعيد نفس ذات التلاحم والتناغم بين يوسف ذاته وأولاده بيسا وإسماعيل.

وإذا تركنا الشخوص وتحدثنا عن الأماكن فسنجد أن البيئة الشعبية التى نشأ فيها يوسف السباعى بكل ما تحتويه من معالم وأبعاد وأعماق قد أثرت فيه بشدة خاصة وأنه قد أمضى مراحل حياته الأولى متقلبًا من سكن إلى آخر فى نفس ذات الحى،

وقد كان هذا عاملاً مساعداً فى إلهاب مشاعره وشحن خياله الروائى ، أظن أنه عرف الطريق إلى المكتبة قبل أن يعرف القراءة والكتابة .

كان الاطلاع على ما تحتويه مكتبة والده من ذخيرة لغوية وكنوز أدبية أسبق من دراسة المواد المقررة فى المدرسة ، وكان التنقيب والبحث عن سلسلة المجلات الأسبوعية التى يحملها الأب معه إلى الدار هى شغل يوسف الشاغل ، وخاصة تلك التى كانت تنشر فى هذه الفترة وأهمها البلاغ الأسبوعى والبيان والسياسة ، وكلها كانت مجلات سياسية تفرضها طبيعة المرحلة وما تحوى من مفاوضات بين مصر وإنجلترا ، إلى جانب المجلات الثقافية التى كان يلتهمها وقربته من عالم القصص والمترجمات ، وكان أول قارئ يقع بصره على كتابات والده فيزداد ولعه به كلما وجد شخصه فى كل ما يقرأ سواء كان تأليفًا أو ترجمة ، كما كان يحب أدبه وآراءه ويعجب بها وبه بحيث أصبحت هى رصيده المعبأ داخله .

أم رتيبـــــة

أما عن القَّصاصة الأولى فى حياة يوسف السباعى والتى كان لها بالغ الأثر فى تنمية عشقه لفنون القصة والرواية بعد أن تجرع كأس الأدب على يد أبيه . فهى جدته لأبيه «تحية جلال الدين» أو «نينة أم طه» . كانت هذه السيدة تتمتع بحنان فياض ، وكتب يوسف السباعى عنها يومًا فى صباه فقال «هى أول من أحبنى وأول من أحببت» ، لكن لم يكن الحب والحنان وحدهما هو كل ما تقدمه «نينة تحية» له ، إنما كانت تقص عليه روائع القصص والروايات لتصبح بذلك المعلم الأول فى حياته والباب الفضى الذى مهد أمامه الطريق إلى عالم القصة .

هكذا كان أطفال العائلة من الأحفاد يحتفون بنينة تحية وعلى رأسهم يوسف ، ويقضون طوال يوم الخميس من كل أسبوع فى هرج ومرج يتفننون فى ألعابهم ويجوبون أرجاء الدار الكبيرة ذهابًا وإيابًا ، وعندما تتبدد طاقاتهم ويشعرون ببوادر التعب يكون هذا إيذانًا بلون آخر من اللهو والتسلية والشغب ، وهو الاستماع إلى حدوتة «تيتة تحية» وعليها ترتفع الصيحات مطالبة إياها بأن تقص الحدوتة الأسبوعية .

وكان من بين هؤلاء الأطفال طفلة رقيقة نحيفة عرف عنها الهدوء والسكينة، خضراء العينين ذهبية الشعر، كانت هى ويوسف أسرع من يتخذ مجلسه بجوار الراوية العجوز، كان الطفلان الأشد لهفة والأكثر إنصاتًا وانفعالاً بنهايات القصص والروايات من بقية المستمعين الصغار وخصوصًا لو كانت نهايات درامية حزينة، فيتأثران ويعلنان اعتصامهما حتى تعدل الجدة النهاية التعيسة إلى أخرى سعيدة.

والطريف أنه قد قدر لهذه الصبية الرقيقة التى ترفض النهايات الدرامية التى تقصها الجدة أن تكون زوجة يوسف السباعى وأم أولاده بيسا وإسماعيل، هى دولت السباعى ابنة عمه ورفيقة عمره، لقد ظلت منذ الطفولة إلى أن تزوجته قلقة حزينة تبحث عن نهايات سعيدة لأبطال قصصه، ولم تكن تتصور يومًا أن يصبح زوجها ورفيق طفولتها وحبيب عمرها وأيامها بطلاً لقصة ذات نهاية مأساوية لم تقصها من قبل تيتة تحية.

خبايا الصدور

ليس هناك أبغض على الإنسان من رؤية حقيقته وليس أحب إليه من التعلل بالباطل والتعلق بالمسببات، ولكن هل كان يوسف السباعى من هذه النوعية؟

أشك.. بل أجزم أنه كان مختلفًا كل الاختلاف، لقد ظل محتفظًا بآدميته رغم كم وحجم الإغراءات الحياتية التى تعرض لها، لم تغادر منه طفولته بل ظلت كامنة مختبئة بأحد أركان قلبه تظهر عندما تتيسر لها الظروف.

فى إحدى قصصه القصيرة كتب يقول على لسان بطله «من أدرى بنفسى منى.. إنى لازلت كما كنت نفس ذات الصبى الذى كان يعدو فى فناء المدرسة ويقفز على ساق واحدة خلال الفسحة، ما أحسست فى باطنى إنى قد تغيرت، بل إنى لأشعر أنى ما زلت طفلاً، لولا أنى أتلفت حولى فأجد ظاهرى يكذب باطنى، وأجد من حولى يحترموننى ويبجلوننى ويحيطوننى بهالة من التقدير تجعلنى أجاريهم بين الحين والآخر فى تقديرهم وأعود من جديد لطفولتى».

هكذا كان وهكذا ظل.. أمينًا مع نفسه، وصادقًا مع الغير لم يكن التلميذ محمد

يوسف محمد السباعى من المتفوقين الذين يشار إليهم بالبنان، كما أنه لم يكن فى عداد الضائعين الخارجين عن قوانين وزارة المعارف العمومية، كان عاديًا لا هذا ولا ذاك، ولكن اللافت للنظر أنه كان من مدمنى القراءة، كل أنواع القراءة، القصة والرواية والمقال حتى داخل الفصل الدراسى وأثناء شرح المدرس كان ينشغل هو بوضع الرواية على ساقيه أسفل الدرج ويستغرق فى تفاصيلها إلى الحد الذى ينسى فيه كل من وما حوله.

كان يقبل على تلك الروايات التى كانت تصدر فى طبعات شعبية، كان يقتصد فى مصروفه اليومى ليوفر ثمن شراء الرواية الشهرية، ومن هنا كان محط أنظار أستاذ الغة العربية بالمدرسة، والذى كان يطالع كتابات تلميذه يوسف فى الإنشاء فيدرك أن وراء هذا المستوى الرفيع من اللغة والقدرة على اختيار العبارات وتركيب الجمل والألفاظ الحية فضلاً عن الاستشهاد بأبيات من الشعر تفوق مرحلته العمرية، موهبة حقيقية يجب أن تنمى.

يقول يوسف عن نفسه فى المرحلة الابتدائية بمدرسة محمد على بالسيدة زينب «لم أكن أعرف شيئًا عما يسمونه موهبة، كل ما فى الأمر أنى كنت أحب كتابة بعض موضوعات الإنشاء من التى تطيب لها نفسى، وكان مدرس اللغة العربية يطرب لما كنت أكتبه ويمنحنى أعلى الدرجات، ولكنى لا أكاد أنال رضاه حتى أخذله خذلانًا شديدًا فى كتابة موضوع لا أجد نفسى فيه».

ويذكر يوسف السباعى تلك الشخصيات التى غمرت هذه المرحلة ومن بينها جودة الخادم الذى كانت ترسله السيدة عائشة أم الأولاد ليجىء بطفليها محمود ويوسف بعد انتهاء اليوم الدراسى، أيضًا الشيخ كحكو أحد الشخصيات الشعبية المجذوبة التى كانت تهيم فى شوارع السيدة زينب وحاراتها وتجذب إليها الأطفال من كل الأعمار فيشتركون فى ذفة يقودها هذا المجذوب ومن ورائه الأطفال يرددون هتافات تبدأ بهتاف «شد العمة شد . . تحت العمة قرد»، وتنتهى بهتاف «ياعزيز . . ياعزيز . . كبة تاخد الإنجليز».

يقول يوسف نفسه عن هذه الأيام «كان جودة مكلفًا بمرافقتنا أنا وأخى محمود

صباح كل يوم إلى المدرسة، والسبب البديهى بالطبع هو الحفاظ على سلامتنا من حوادث الطريق وترويض شقاوتنا ومنعنا من اللعب فى الشارع، ولكنى أجزم بأننا لو تركنا وحدنا لكنا أكثر سلامة ولسرنا فى الطريق أهدأ ألف مرة مما كنا نفعل، لماذا؟ . . لأن جودة الخادم كان فنانًا فى الشقاوة، عبقريًا فى خلق الحوادث، فكيف إذن يمكن أن يجتمع الهدوء والسلامة مع جودة».

هذه الأسماء التى كانت تشكل عالم يوسف السباعى الصغير، الأب التحررى المرح . . الأم الصارمة القلقة، الجدة الحنون الراوية . . العم طه السباعى الوزير . . وابنته الرقيقة الحالمة دولت . . الأستاذ شعث مدرس اللغة العربية المعجب بأسلوبه الأدبى . . الأستاذ توفيق مدرس اللغة الإنجليزية الكاره له ولأفراد شعبه، جودة الخادم المتشرد المصدر الأول لمتاعب «الست عيشة» بما يحمله من عفرتة وإجرام صبيانى . . وأخيرًا الشيخ كحكو مجذوب السيدة . . كلها شخصيات كاريكاتيرية مرت فى حياته وتركت بصماتها على وجدانه، لقد أتاحت لنا كتابات السباعى أن نقف على بعض عوالمه القديمة كما أتيحت له فرصة تفريغ طاقاته المخزونة بحثًا عن رافد يلقى فيه ما امتلأت به جعبته من مشاهد وأحداث.

السقامات

أنهى يوسف الصغير المرحلة الابتدائية بالكاد وقدم أوراقه إلى المدرسة الخديوية الثانوية، فبدأت صفحة جديدة فى حياته تشكلت فى ملامح وتبلورت فى اتجاهات وتأصلت فى سمات وتعمقت فى جذور الأحداث والمواقف والمشاهد والانطباعات، وأصبح يدرك ما تحت السطح وما فوق الجلد على حد سواء، وممارسة الكتابة والثقافة والأدب بشكل أوسع وأكثر دقة جاءت فى مدرسة والده محمد السباعى حين كان يعتمد على رأيه فيما يكتب أولاً بأول ويرسله، خاصة فى الإجازات الصيفية ليأتى له ببروفة مقالة لتصحيحها وإعادتها مرة أخرى.

إذن أتاح له الأب أن يعاصر كل هذه التفصيلات قبل احترافه هو الشخصى، لقد اعتنق يوسف الأدب مثلما هام به والده محمد السباعى الذى استقال ذات يوم من

وظيفته بوزارة المعارف، وأغلق على نفسه باب حجرته بالبيت ليحفظ ديوان «ابن الرومى» فى الوقت الذى كان فيه مفلسًا يبحث عن قوت أولاده الثلاثة، هكذا كان الأب بوهيميًا طليعًا متحررًا من أية قيود، يقرأ ويكتب ويأكل ويشرب ويغازل ويضحك فى آن واحد، لم يكن يزن البشر بمراكزهم أو أصلهم وإنما ببساطتهم ولطفلهم، لم يكن يعنيه إن كانت أمور الحياة إلى إدبار أو إلى إقبال، كان يرى النفس البشرية، أكبر وأشرف من أن تهلك من مآسى الحياة أو تفز بمباهجها، وبالتالى لقن ولده الأوسط يوسف هذا المنهج ودفعه لأن يسير على نفس ذات الدرب.

وفجأة غابت البهجة التى يشعها الأب بشخصه ووجوده، كما اختفى العقل المتفتح الذى يشع بالفهم والعلم ورحابة الأفق، ومرض الأب ليطيح بسلام الأسرة، يسقط على الفراش فترتجف قلوب من حوله، ورغم مثول الجميع لأوامر الطبيب وإرشاداته، ونواهيه تنزل الصاعقة على الأديب الصغير يوسف السباعى، إذ يفرق الموت بينه وبين والده فيشق قلبه الحدث الجلل، ويظل الشرخ المتسع عميقًا صارخًا، لقد ذلله ذلك الفقد المريع حين انقض الموت واختطف من بين ضلوعه الأب والصديق والحبيب والقدوة والمثل الأعلى.

ويكتب عن دقائق الرحيل الأخيرة فى حياة الأب فيقول: «إنى أذكر جيداً ما رأيته، لقد أخذ أبى شهيقًا طويلاً ولم يخرجه، وشهيقًا آخر ولم يخرجه ومرة ثالثة ورابعة ثم كف عن الشهيق والزفير، وأخذت أنظر إليه وأنا لا أفهم حتى سمعت صراخًا حولى فعرفت أنه غاب عن دنيانا للأبد، كنت وقتذاك فى الرابعة عشرة وأذكر أنى أرتميت على الأرض أمزق الثياب وأغطية الأرائك بأسنانى غير مصدق أن أبى قد مات، حتى بدأ النعش يخرج من باب البيت وانطلقت أعدو وراء الجنازة، واندسست بين المشيعين ونظرى معلق على ذلك المحمول على الأكتاف، وسار الموكب الشجى من السيدة إلى القلعة إلى المجاورين، ومع السير الطويل بدأت أستشعر شيئًا من السكينة، وأحسست أنى سائر بصحبة أبى وأن الفراق لم يحدث بعد، ولم يعد لى أمنية سوى أن يطول الطريق وتظل الجنازة سائرة إلى ما لا نهاية حتى أظل أنعم بصحبته، ولكن النهاية حلت وودعته وافترقنا».

لقد أحدث غياب الأب شرخاً لم يلتئم أبداً فى نفس يوسف، وكان على الأم أن تمسك بمقاليد الأمور وقد أصبحت بلا معين فهى الأب والأم فى آن واحد، وعليها أن تثبت للجميع أنها كفء لهذه المهمة التى فرضتها الظروف رغماً عنها، وتبدأ فى مواصلة الحياة بعزم وحزم وتستكمل الرسالة وتنشئ ثلاثة رجال ناجحين على خُلق كما كان يتمنى والدهم، وبالفعل عاشت بهم ولهم ثلاثين عاماً ترعاهم وتتابعهم وتدفع بهم إلى الأمام، ودون سابق إنذار إنسانى وجد يوسف نفسه يعيش فى دنيا أخرى كاحلة الوجه ضيقة المنافذ، كان إحساسه بالكارثة يكبر يوماً بعد يوم فيدرك أن برحيل الأب السند، هناك صفحة حبيبة من حياته قد طويت تماماً ولا سبيل أبداً إلى تعويضها مهما كانت الحياة تدخر له من أطياب.

وتمضى الأشهر ويوسف فى الصف الثانى الثانوى وتضطر الأسرة إلى الانتقال إلى شبرا وتترك جنينة ناميش إلى الأبد لتكون قريبة من العم طه السباعى الذى كان يحصل لأبناء أخيه على معاش استثنائى من الدولة قدره اثنا عشر جنيهاً، وبعد فترة ينتقل طه السباعى إلى مصر الجديدة وتشترى «الست عيشة» قطعة أرض لتبنى عليها طابقاً واحداً لتسكن فيه مع أولادها فى روض الفرج، ورويداً رويداً يعود الأولاد إلى حياتهم الطبيعية، ولكن مع كثير من الحرمان والعوز المادى والتنازل عن معظم الرغبات والآمال التى كانت تتحقق بسهولة أيام كان السباعى الأب على قيد الحياة، لقد أصبح الأمر منصباً على ضرورة مواصلة الحياة التى باتت أهم بكثير من الاستمتاع بها.

ولم يتغير عالمه المدرسى فى شبرا عنه فى السيدة زينب وإن اصطبغ ببعض الأسى والحزن، فلم يعد يلعب الكرة مع محمود أخيه وخادمه جودة، لم يعد يرى الشيخ كحكو ومجاذيبه، ويقول عن هذه المرحلة: «كنت مثالاً للطالب العادى الذى لا يميزه شيء، لا ذكاء ولا غباء ولا قبح ولا وسامة ولا خفة ولا ثقل ولا شيء أبداً، كأنى الماء لا لون ولا طعم ولا رائحة، كنت شخصاً غير مميز ومحسوس أحس أنى ضائع فيمن حولى كأنى حبة فى أردب قمح، كثير السرحان فى الدرس أكثر من قبل، كارهاً للاستذكار فى البيت».

وظل هذا الإحساس بعدم التميز يعربد تحت السطح الهادئ فى أعماق يوسف، وكانت أحلام اليقظة هى الملاذ والتى تتيح له أن يرتفع بنفسه وينقذها من الواقع العادى المر، ومع آلامه الداخلية تفجرت أولى بذور مواهبه الدفينة وليس مثل الشعر تعبيراً عن هذه المشاعر التى كانت تضرم فى أعماقه، وهكذا وجد نفسه يقول الزجل ويكتب القصيد ويؤلف نشيد مدرسة شبرا الثانوية، وهو :

«يامصر يا أمتى
ياطيب أرض الوطن
يامصر تحمى الحمى
من عاديات الزمن
نقدم ولا نؤخر
ولا نهاب المحن
شبرا تنادى بنا
كونوا جميعًا يداً
لا نخاف الموت أو نجنبه
وإن قلب الدهر لنا ظهر المجن
نقهر الدهر ونسخر بالزمن
وأمام النيل نجثو سجداً

ومنذ ذلك الحين انسابت مشاعره على الورق، يسود بها الصفحات، ويسكب عليها العبرات وينفث فيها أحزانه، وعليه بدأ ينشر باكورة إنتاجه الصغير فى المجلة

المدرسية ويرسل الباقى إلى مجلة المجلة لأحمد الصاوى والمجلة الجديدة لسلامة موسى، كانت كتاباته المبكرة تهتم اهتمامًا بالغًا بالنوازع الإنسانية، لقد كُتب عليه أن يصاب بداء الأدب الذى أضاع أباه، وكانت الأم تخشى ما تخشاه أن يلحق الابن بمصير أبيه فتستهويه حرفة الأدب ويعيش فقيرًا ويموت فقيرًا، ومن هنا كان عليه أن ينسى تمامًا مشروع الالتحاق بكلية الآداب لتكريس موهبته الأدبية، ويدرك أن رحيل والده لم يؤثر فى حاضرة فحسب بل فى مستقبله أيضًا وعليه أن يرضخ لنداء الواجب تجاه أسرته وعلى رأسهم والدته.

سُمار الليالى الكاكى

كانت هذه الانتفاضة الداخلية هى البداية الحقيقية، ولم تعد به خطوات إلى الوراء وإنما سلحته بالانتباه «فمعتدل مارش، وأدرك أن المرحلة القادمة فى حياته تتطلب منه استجماع إرادته وقوته وإيمانه قبل أى شىء آخر من أجل بناء مستقبله والتخفيف مع أخويه عن الأم التى تحملت عبء الأسرة بمفردها، وتفانت فى التضحية وجاء الوقت لرد جزء بسيط من هذا الدين، وهنا نفض هيامه بالأدب والتحق بالحربية لما تهيئه الكلية لطلابها من وظائف مضمونة ومرتب جيد ومنصب اجتماعى مرموق، ضاربًا عرض الحائط بمواهبه الأدبية وخطواته المبشرة التى بدأ بها مسيرته الفكرية.

أما عن قصة التحاقه بالكلية الحربية فيعود الفضل الأول والأخير فيها إلى عمه طه السباعى فأحداثها تكاد تقترب شبهًا بأحداث رواية «رد قلبى» وإن اختلفت الأسماء والمواقف بعض الشىء، ولعل القراء على دراية بما حدث فى رائعة السباعى «رد قلبى» ومن كان الوسيط بين على ومدير المدرسة الحربية «سمو الأمير» الذى ألحق ابن الجناينى بهذه المدرسة المعروفة بصعوبة شروطها ودقة اختيار طلابها على خلاف مدرسة البوليس التى التحق بها أخوه محمد.

المهم.. بالنسبة للرواية الحقيقية فقد ذهب يوسف إلى عمه طه السباعى والذى كان فى ذلك الوقت موظفًا كبيرًا فى وزارة المالية حيث ساهم عمه بكثرة علاقاته



يوسف السباعى ومحمود السباعى بالميرى فى واقع الحياة



على عبد الواحد وحسين عبد الواحد فى فيلم «رد قلبى»

واتساع معارفه فى مساعدة يوسف، كانت حياته العسكرية الجديدة ذات نبض وتقاليد أخرى تختلف عن ذلك الذى عاشه من قبل، دخل يوسف الحربية فى شهر نوفمبر عام ١٩٣٥، وأحاطت به منذ الدقائق الأولى كافة القيود الصارمة من نوبات الصحيان والنوم المبكر والروح الجافة من طاقم ضباط الصف والمعلمين خصوصًا مع هؤلاءالطلاب المستجدين، وكل ما يختص بالضبط والربط والالتزام والمسئولية، مع بذل كل جهد ممكن وغير ممكن خوفًا من الجزاء الفورى، وبهذه الطريقة انقطعت صلاته بالأمس اللاهى الهارب فى سماوات الخيال والأدب والأشعار والأزجال، وفرضت عليه مهام وواجبات عليه أن يؤديها على أكمل وجه، هذا غير الرياضة الجبرية باختلاف أنواعها فى الكلية، لم تكن تترك للمزاج الشخصى إنما هى إلزام بغض النظر عن مسألة القبول أو الرفض ومنها السباحة لمسافات طويلة، والقفز من مرتفعات عالية والجرى لآلاف الأميال، وأخيرًا الفروسية التى عانى منها فى بادئ الأمر من كثرة الاهتزازات والسقوط التى تعرض لها قبل أن يحترفها ولكنها فى النهاية خلقت نوعًا من التلاقى الحميم بينه وبين الخيل، هذا فضلاً عن العلوم المستعصية ونذكر منها علم الطبوغرافيا العسكرية وهو علم مسح الأرض ورسم الخرائط، باختصار هو علم هداية العسكريين فى المعارك، العصا التى يتلمسون بها طريقهم فى الأراضى المجهولة، فقد كان عليه أن يحمل كل حصة «بلا نشيطة»، وهى لوحة ذات حامل من ثلاث قوائم مرتفعة تستعمل فى مسح الأراضى، بالإضافة إلى شنطة الجراية والمظلة.

وهكذا كانت مرحلته الحياتية الجديدة عبارة عن تجاوز النظريات إلى اتخاذ الخطوات وكذلك الانفلات من التقوقع والاندماج فى الصراع البشرى والخروج من دائرة الأسرة والرعاية والحب الخالص إلى أضدادها التى يموج بها المجتمع، إذن صارت الحياة بين يوم وليلة صحيان مفزع دون مقدمات ثم انتباه ثم اغتسال ثم ارتداء ثم لليمين در على أرض الطوابير ليبدأ البرنامج اليومى الشاق، وعلى العسكرى الحربى أن يكون طوال الوقت داخل وخارج الكلية مصلوب الجسد، بارز الصدر، مرفوع الرأس، مهيب الجناح، ولنا هنا وقفة يقصها السباعى فى أحد مقالاته عن الطعام العسكرى فيقول: «كانت أصنافه محدودة وكذلك ألوانه بمعنى

أن الطعام لا يخرج من نطاق لونين الأحمر والأخضر، وكأن المطبخ العسكرى المصرى عرف التجريد قبل أن يعرف به العالم مذهبًا فنيًا، فاللون الأخضر يرمز إلى السبانخ أو الملوخية أو الخبيزة أو القلقاس، أما اللون الأحمر فلا يخرج عن حدود طبخة بالطماطم، فإما هى بطاطس أو كوسة أو مسقعة هذا عن العشاء والغداء، أما عن الإفطار فهو إما عدس أو فول ولا ثالث لهما، وأمام الجهد الشاق الذى كنا نمارسه يوميًا لم يكن هناك أدنى اعتراض من أى فم، وذلك لأن الأفواه تحولت بفعل التعود إلى آلة صماء لا تعرف للتذوق أو للاحتياج معنى، وإنما تقبل على كل ما يعرض عليها من أطعمة أو غيره بمنتهى الاستسلام والرضا بقضائه»، ومع ذلك بذل يوسف كل جهده للتكيف ومواصلة العيش على هذا النهج القاسى بل والاقتتال من أجل التفوق حتى يستطيع الحصول على المجانية، وبالتالى يوفر على والدته عناء الأقساط التى تدفعها لأبنائها الثلاثة فى المعاهد العليا، وبالفعل نجح يوسف وتفوق وصار من أوائل الطلبة وأبرزهم وأطيبهم سيرة وأحسنهم ذكراً، وتمت ترقيته إلى رتبة الجاويش وهو فى السنة الثالثة ثم تخرج ليعين فى سلاح السوارى برتبة ملازم ثانى وهو أحسن وأفضل أسلحة الجيش، وأخذ فرقة ركبدارية التى أعدته ليكون معلم ركوب، وأضحى بالفعل قائد الأربعين جنديًا والأربعين حصانًا، وقضى أيامه ما بين إسطبلات الجيش والتفتيش على ملابس العساكر ونظافة السروج وعنابر الجنود، ومكث فى جناح الفرسان حوالى عشرين عامًا ما بين ١٩٣٥ إلى ١٩٥٦، وتعلم يوسف طيلة العشرين عامًا كيف يهذب روحه ويروضها على فعل ما لا تحب وقبول ما لا ترضى والتسليم بلا جدال ولا مناقشة، ومع ذلك كانت هناك رؤى دفينة تخايله أو تحاول أن تستشرق من خلال عالمه الشارد والمتأمل غداً مشرق وأحلامًا عذبة.

عن غده المشرق كان يتمنى أن يضم زوجة محبة وابنة وابن وفيلا صغيرة بحديقة غناء وعربية نص عمر، أما عن أحلامه العذبة فكانت من النوع الذى يساور كل رجل عسكرى يحب الأدب وهى أن يكون حامل السيف والقلم معًا، كان يود أن يكون فى عظمة نابليون بونابرت العسكرية وفى موهبة وليم شكسبير الأدبية.

مبكى العشاق

لكل روح نصفها الآخر وتوءمها الذى خلق لها والذى تظل تلتمسه طوال الحياة حتى إذا التقيا انطبق أحدهما على الآخر، وهذا ما حدث بالفعل فقد وقع يوسف فى حب حقيقى يقترب من الواقع أكثر منه إلى الخيال، فقد وجد فى حبيبة وصديقة طفولته ورفيقة أيام حواديت «تيتة تحية» نموذج الزوجة التى يريدها وهى دولت ابنة عمه طه السباعى، ومرت الأيام عليه وهو مضنى جفاه المرقد لا يأمل فى وصال ولا ينعم بلقاء حتى تبين له مع الوقت أنها هى الأخرى قد قصدت حياتها على غدها معه، إذن ما المشكلة فى أن نكتب الكتاب ونعلى الجواب؟! المشكلة أن علاقة خال يوسف شقيق والدته لم تكن على ما يرام مع عمه طه السباعى شقيق والده، كان يشوبها بعض الخلاف، كما أن عباس حافظ ومحمد السباعى أصدقاء العمر قد اتفقا على توثيق صداقتهما عن طريق زواج الأولاد من البنات أى أولاد محمد السباعى من بنات عباس حافظ، فيكون محمود لفريدة ويوسف لنبيلة وأحمد لسناء، وقد أصر القدر من ناحيته على هذه الرابطة فتزوج الأول والأخير من بنات عباس حافظ، أما يوسف فقد أصر على موقفه من رفض نبيلة لارتباطه بدولت، ومع الأسف لم تتحمل الفتاة الصدمة فمرضت ولم يستمر مرضها طويلاً وماتت، وبالضبط صدم الجميع وعلى رأسهم يوسف الذى شعر أنه تسبب دون قصد فى وفاتها، وكانت الأسرتان تحاولان التخفيف عنه قدر المستطاع إلى أن استعاد نشاطه من جديد بعد فترة حداد نفسى دامت لشهور.

أما عن قصتنا التى اكتملت بالزواج فيحكى أنها نشأت فى بيت العائلة، ذلك البيت الذى كان بمثابة الأصل والعماد الذى يضم الأجداد والآباء والأحفاد، كان طه السباعى الأخ الأكبر لمحمد السباعى هو أول الفروع التى خرجت من البيت عام ١٩١٦ بعد زواجه وإنجابه، انتقل من السيدة زينب إلى روض الفرج، وعندما توفى أخوه محمد السباعى عام ١٩٣٠ انتقلت أسرة محمد السباعى إلى روض الفرج ليكون الأولاد قريبين من عمهم، وقد منع الجو المضرم بين العم والخال من سير العلاقات فى خط مستقيم فأخذت تضطرب بين مد وجزر والست أم يوسف وسط الدائرة المشتعلة، تحاول تسيير دفة المركب رغم العواصف والأنواء، وكان من

الطبيعى أن يكون الأطفال خارج نطاق هذه الدائرة الساخنة الباردة، لذلك استمرت صلة الصغار ببعضهم البعض على مر الزمن بعيداً عما يصيب رءوس الكبار من غليان بدليل تلك الأحلام والآمال المشتركة بين يوسف وإسماعيل ابن عمه، فالأول كان يحلم بدخول الحربية والثانى كان يحلم بالالتحاق بالطب، لكن العلاقة بين يوسف ودولت أحاط بها فى بادئ الأمر حاجز يشبه السد، ولعلنا نستطيع أن نعود بذاكرتنا إلى فيلم «رد قلبى»، فقد كان هناك مانع شديد الثقل يباعد بين على وإنجى الحقيقيين يوسف ودولت، وهو الفارق الكبير بين ثراء بيتها بمصر الجديدة وفقر بيته بروض الفرج، فالاختلاف المادى بين مستوى معيشتهما دفعه إلى مزيد من التباعد إلى أن بدأ الإعجاب يتسلل من جديد بين الكبار الذين كانوا يوماً أصدقاء صغارا وطرأ الحب فجأة وفرض سيطرته فأزال الفوارق وأذاب التباعد فالتصقا وتزوجا وأنجبا بيسا وإسماعيل.

الأميرلاى الأديب

كان حصول يوسف على شهادة «أركان حرب» فى عام ١٩٤٤ يشكل نهاية المطاف لدراسته العسكرية، فقد سمح لنفسه بعد ذلك أن يطلق العنان لموهبته الأدبية، بعد أن باتت حبيسة أسوار الكلية العسكرية التى لم تسمح لأى مد فكرى أو أدبى ولا تعترف بشىء اسمه النشاط الثقافى لتشجع طلابها عليه، هذا عن مجال الأدب الروائى، لكن فيما يختص بالصحافة فيذكر أن أول اتصال للسباعى به كان بعد أن أصبح ضابطاً وبذور هذا التعاون بدأ مع صاحب ورئيس تحرير جريدة آخر خبر فى هذا الوقت بدأ يوسف عصر الكتابة عن طريق تعليق عسكرى كان يكتبه كل أسبوع، وتزامن ذلك مع قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية، ثم تحول فيما بعد إلى ترجمة قصة أجنبية كل عدد، وجاء هذا التكليف متماشياً مع المفاهيم السائدة فى ذلك الوقت، شيئاً فشيئاً بدأ يتنصل من موضوع الترجمة ويبدع هو أحداث وشخصيات جديدة من النوع المصرى الصميم الذى يتخذ من الأحداث البلدية مسرحاً للسرد، وقوبل هذا التميز بالإعجاب والإقبال من جمهور القراء، ثم انتقل إلى الصحيفة الثانية فى حياته وهى مسامرات الجيب لصاحبها ورئيس تحريرها عمر

عبد العزيز أمين، وقد وجد السباعى فى هذه الدار ما يتيح له سعة الانتشار وتقديم نفسه بشكل قوى كقاص مصرى من الجيل الجديد، فكتب فى ذلك الوقت مجموعته «بين أبو الريش وجنينة ناميش» عام ١٩٥٠، و«هذا هو الحب» عام ١٩٥١، و«سمار الليالى»، و«الشيخ زعرب وآخرون» عام ١٩٥٢، و«همسة عابرة» عام ١٩٥٣.

ولم يكن يوسف السباعى يضع اسمه الصريح على قصصه بل كان يكتفى بوضع الحرف الأول من اسمه وهو حرف الياء حتى يثير القراء حول صاحب الاسم الرمزى ومن يكون؟ هل هو كاتب معروف أم أديب شاب؟

وبعد هذه المرحلة انضم إلى جريدة «الكتلة» وهذا الوقت كان يمثل أكثر مراحله الفنية نشاطًا كأنه يريد أن يعوِّض قلمه عن سنوات الحصار التى فرضها عليه وهو طالب فى الحربية، ونعود للصحيفة الثالثة التى التحق بها يوسف بعد مرحلة مسامرات الجيب وهى جريدة الكتلة التى كانت تمثل لسان حال حزب الكتلة الذى أسسه مكرم باشا عبيد، بعد خروجه أو إخراجه من حزب الوفد، ورغم إدانة يوسف السباعى لكل الأحزاب واتهامه لرجالها بالازدواجية إلا أنه انضم إلى ركب التحرير وتعرف على أحمد قاسم جودة صاحبها، وفى ذلك الوقت قدم مجموعة «يا أمة ضحكت» ورواية «أرض النفاق».

الغريب في الأمر أن يوسف السباعى لم يكن قد ترك الخدمة ببلوغه شهادة أركان الحرب وإنما عُين مدرسًا لمادة التاريخ العسكرى برتبة صاغ، وكانت هذه المادة تتناول التاريخ من الناحية العسكرية وتفسر المواقع الحربية ومدى نجاح الخطط وفشلها والدروس المستفادة منها وفعالية الأسلحة فى المعارك، وقد نجح السباعى وأجاد فى تدريس مادته لأنه كان يتناولها بنفس أسلوبه القصصى، وبالتالى كانت ترسخ فى أذهان طلابه بسهولة، فقد كان يوسف ضمن قلة قليلة من المدرسين جعلت العسكرية جوهرًا ومنهجًا وليس مظهرًا خشنًا، لذلك كان الطلبة يتحلقون حوله واثقين منه محبين له، كما لا نستطيع أن نغفل أن الفضل يعود له فى إنشاء المدرعات فى سلاح الفرسان، وذلك بأقل الإمكانيات وأرخص الأسعار وأنظف المستويات، لقد كان يتميز بأن خطواته الإنشائية تتم دون ثرثرة أو إطلاق الشعارات، وأقرب ما

تكون لطبيعته المتواضعة حتى بعد أن وصل إلى رتبة مدير المتحف الحربى وهو منصب عسكرى رفيع فضلاً عن كونه أحد أهم رجال الثورة الأفاضل.

طريق العودة

أغلق يوسف السباعى صفحة العسكرية فى أوائل الخمسينيات وعاد إلى قواعده الأدبية القديمة منتميًا انتماءً كاملاً بعد فصول من التوفيق والجهد بين جانبين لا علاقة للأول بالثانى، لقد قضى قرابة العشر سنوات فى خدمة الجيش من جهة وفى تفريغ خواطره الأدبية أسبوعيًا من جهة أخرى، لقد أعطى الجيش كل ما يمكن أن يعطيه له من إخلاص وتفان وقرر أخيراً التفرغ لحاسته القديمة وحبه الأدبى وتوحده مع أفكاره وأبطاله وأحداثه، يكتب بعيداً عن الأنظار بين أربع جدران داخل نطاق عالمه الخاص.

عاد لينشئ نادى القصة مع إحسان عبد القدس وقد أثثاه بقطع من منزلهما وأخرى حصلا عليها من تجار الأثاث القديم، وقد أنعش نادى القصة الحركة الأدبية فى الرواية والقصة عندما صار منتدى للكتاب، كما جاءت خطوته الجريئة بإصداره سلسلة الكتاب الذهبى ليجتاز الأدب الروائى والقصص المسافات الفاصلة بين الأدباء والقراء، واتسعت الدائرة أكثر وأكثر لقراء سعد مكاوى ونجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله وعبد الرحمن الشرقاوى وتعرف القراء لأول مرة بأعمال يوسف الشارونى ويوسف إدريس ومصطفى محمود.

ومن بعده أنشأ جمعية الأدباء واتحاد الأدباء واتحاد الكتاب العرب والمجلس الأعلى للفنون والآداب ونادى القلم الدولى، وكانت الصحافة الأدبية تكاد تعجز عن توصيل المد الأدبى الجديد للقارئ فأصدر مجلات الرسالة الجديدة والأدباء العرب والزهور والثقافة ومختارات الشعر الآسيوى - الأفريقى ومختارات القصة الآسيوية - الأفريقية، وغيرها من الأنشطة الأدبية والثقافية التى ملأت سماء المحروسة على يد يوسف السباعى، فضلاً عن نشاطه هو الأدبى على مدى ٢٧ عامًا من الإبداع المتواصل، وإليكم أعزائى القراء جانب نشاطى واحد من مجمل

نشاطات يوسف السباعى الكثيفة المكثفة، وهى تمثل تاريخه الأدبى لمن لا يعرف من هو يوسف السباعى الروائى:

لقد قدم:

- أطياف (قصص قصيرة) ـ نائب عزرائيل (رواية)، عام ١٩٤٧ .
- اثنتا عشرة امرأة ـ خبايا الصدور ـ يأمة ضحكت (قصص قصيرة) عام ١٩٤٨ .
- اثنا عشر رجلاً ـ فى موكب الهوى ـ من العالم المجهول (قصص قصيرة)، أرض النفاق (رواية) عام ١٩٤٩ .
- هذه النفوس ـ مبكى العشاق ـ بين أبو الريش وجنينة ناميش (قصص قصيرة) ـ إنى راحلة (رواية) عام ١٩٥٠ .
- أغنيات ـ هذا هو الحب ـ صورة طبق الأصل (قصص قصيرة) ـ أم رتيبة (مسرحية) عام ١٩٥١ .
- بين الأطلال ـ السقامات (روايات) ـ سمار الليالى ـ الشيخ زعرب وآخرون ـ نفحة من الإيمان (قصص قصيرة) ـ وراء الستار (مسرحية) عام ١٩٥٢ .
- ست نساء ـ ستة رجال ـ هذه الحياة ـ ليلة قمر ـ همسة عابرة (قصص قصيرة) ـ البحث عن جسد (رواية) ـ فديتك ياليلى (رواية) ـ جمعية قتل الزوجات (مسرحية) عام ١٩٥٣ .
- رد قلبى (رواية فى جزأين) عام ١٩٥٤ .
- ليل ودموع (قصص قصيرة) عام ١٩٥٥ .
- طريق العودة (رواية) عام ١٩٥٦ .
- أيام تمر (مقالات) عام ١٩٥٧ .
- من حياتى (مقالات) عام ١٩٥٨ .
- لطمات ولثمات (مقالات) عام ١٩٥٩ .

- نادية (رواية فى جزأين) عام ١٩٦٠ .
- جفت الدموع (رواية فى جزأين) عام ١٩٦١ .
- أيام وذكريات (مقالات) عام ١٩٦١ .
- أيام من عمرى (مقالات) عام ١٩٦٢ .
- ليل له آخر (رواية فى جزأين) عام ١٩٦٤ .
- أقوى من الزمن (مسرحية) عام ١٩٦٦ .
- نحن لا نزرع الشوك (رواية فى جزأين) عام ١٩٦٩ .
- لست وحدك (رواية) عام ١٩٧٠ .
- من وراء الغيم (مقالات) عام ١٩٧٠ .
- أيام عبد الناصر (مقالات) عام ١٩٧١ .
- ابتسامة على شفتيه (رواية) عام ١٩٧١ .
- طائر بين المحيطين (أدب رحلات) عام ١٩٧١ .
- العمر لحظة (قصة) عام ١٩٧٣ .

أرض النفاق

هل تعلمون ياسادة أنه حينما عمد الدكتور لويس عوض منذ سنوات بعيدة إلى اختيار خمسين كتابًا من فكرنا المعاصر ، رآها جديرة باستيعاب التطور الثقافى الذى حققته الشخصية المصرية منذ بدء النهضة وهى الجديرة بالترجمة إلى اللغات العالمية ، كانت رواية «أرض النفاق» ليوسف السباعى هى أحد أهم الأعمال النضالية التى صورت تلك القوى الغاشمة التى كانت تسيطر على الحياة المصرية فى كافة مجالاتها قبل ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، خاصة تلك القيم الهابطة التى كانت قد استشرت فى مفاهيم الناس وعقولهم ومعاملاتهم اليومية وقتها .

ابتسامة على شفتيه

هذا الرجل كان ميالاً لتأمل الطبيعة من حوله والشرود فيها إلى أقصى درجات التوحد، محلقًا فى السماء والأرض، منصتًا إلى حفيف الريح، وهو لقاء يومى كان ينتظره يوسف وقت الغروب ليتلاحم مع الطبيعة أكثر فأكثر ويتناسى معها البشر المحيطين شيئًا فشيئًا، وإلى جانب هذا الهدوء المتأمل كان يتمتع بخجل وحياء شديدين فلم يكن من هواة الظهور والأضواء، كان يهرب من المجتمعات ولا يألف إلا قلة قليلة من الأصدقاء، مدعيًا أنه يفتقد الثقة والجرأة والشجاعة والإقدام.

ولكن كيف وقد تقلد العديد من المناصب الثقافية والإعلامية والسياسية، فكان أول رئيس لمجلس إدارة مؤسسة دار روزاليوسف، عقب التأميم عام ١٩٦١، ثم أمينًا عامًا لمجلس رعاية الفنون والآداب عام ١٩٦٣، ثم رئيس تحرير مجلة آخر ساعة عام ١٩٦٧، ثم منح جائزة لينين للسلام وهو يرأس مؤتمر التضامن الأفريقى ـ الآسيوى عام ١٩٧٠، ثم عين رئيسًا لمجلس إدارة دار الهلال عام ١٩٧١، ثم وزيراً للثقافة والإعلام عام ١٩٧٣، ثم رئيسًا للمجلس الأعلى لاتحاد الإذاعة والتليفزيون، ورئيس اتحاد كتاب مصر ورئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير جريدة «الأهرام» عام ١٩٧٦، ثم نقيبًا للصحفيين عام ١٩٧٧.

رغم هذا الكم المهول من المناصب التى شغلها إلا أنه لم يكن من هواة التطلعات، فخصاله الإنسانية الرقيقة والطيبة والمحبة منعته من أن يتحول إلى موظف بيروقراطى، وبالتالى تنقطع صلاته بهموم الناس، كان باب يوسف السباعى دائمًا مفتوح الروح والمسام، يؤمن بقدرة الخالق على فعل ما يشاء وليس على الإنسان سوى الاجتهاد فقط، وهذه الطبيعة الإيمانية جعلته لا يقلق على غد ولا يخشى علي مستقبل ولا ينتظر مطمعا أو جاها.

كل ما كان يشغله حقًا منذ فجر شبابه هو ما يخيم على البلاد من أحداث سياسية، كانت مناقشاته تدور حول هموم المواطن المصرى أولها الاحتلال ذلك الهم الأول الذى كان جاثمًا على الصدور، وتلك الوجوه الحمراء التى تمتلئ بها شوارع القاهرة ومدنها وسكناتها، ذلك المستعمر البغيض الذى يقف بين المصريين

وبين استعادة حقوقهم وأمجادهم، ويفسد عليهم كل أمالهم فى الغد الحر القوى، صحيح أنه لم يكن ينتمى مثل ابن عمه إسماعيل السباعى لحزب الوفد المصرى، ولكن ذلك لم يقلل من إيمانه بمصريته، وليس أدل على ذلك من قصصه «أرض النفاق» و«يأأمة ضحكت» و«الشيخ زعرب وآخرون»، هذه النوعية المغرقة فى السخرية من أحوال الوطن العزيز إلى آخر مواقفه المشرفة تجاه إعادة الحقوق للشعب الفلسطينى والتى راح هو ضحيته، وكتب قبل رحيله رواية «ابتسامة على شفتيه» يحكى فيها عن البطل الذى استشهد من أجل عيون الوطن وعلى وجهه ابتسامة رضا.

طائر بين محيطين

جاء حين من الدهر كان فيه يوسف السباعى يسافر إلى الخارج بمعدل مرة كل ثلاثة أيام، ولا شك أن طبيعة مهامه الأدبية والسياسية كانت تفرض عليه ذلك، وللسفر حكاية قديمة لابد من ذكرها، وهى أن يوسف السباعى كان يهوى الرحلات المدرسية، ولكنه كان يخشى من نفقاتها بما سوف يحمله من أثقال مادية على كاهل الأسرة، لذلك كان دائمًا يختار الرحلات الأقرب والأوفر، وعندما كبر سمحت له الظروف أكثر من مرة خارج حدود البلاد، ولكنه مع شروق كل فرصة كان يأتى غروب يفسد عليه كل الأحلام.

فى المرة الأولى حرم من بعثة دراسية بإنجلترا بسبب إخفاقه فى الامتحان عام ١٩٣٧، والثانية حرم أيضًا منها بسبب عدم إجادته للغات الحية عام ١٩٣٧، أما الثالثة عام ١٩٥٤ فرفضها لأنه كان يستعد لإصدار العدد الأول من مجلة الرسالة الجديدة، والفرصة الرابعة تم استبعاده منها لاعتذاره عن الرحلة السابقة، ثم جاءت الخامسة من وراء البحار من فيينا عاصمة النمسا تدعوه لحضور مؤتمر نادى القلم، ورغم مرضه فقد تحامل على نفسه وسافر ليكسر ذلك النحس الذى ظل سنوات ملازمًا له كظله ومنعه أيامًا وليالى من متعة اختراق آفاق جديدة، وبدأت خطواته فى عالم الرحلات ليكتب عنها جميعًا عام ١٩٧٠ كتاب «طائر بين محيطين». ولنا

هنا وقفة أمينة وهى أن يوسف السباعى كان يكتب عن تلك الرحلات بنفسية أديب، فيصف الأماكن والعوالم كما يصف نفوس أبطال رواياته، صحيح أنه كتب عن جوانب وأغفل أخرى تتصل بأحداث ووقائع ولكنه مع ذلك أبدع، لا شك أن مركزه الرسمى كموظف مسئول فرض عليه عدم الخوض فى تلك التفاصيل، لذلك يحسب هذا العمل على الأدب أكثر منه على الصحافة، فالصحافة شىء آخر مكبل بالمعلومة والتحليل والنقد بعيداً عن ذلك السرد التصويرى للمناظر الطبيعية والأغوار الإنسانية التى احترفها السباعى فى كتاباته.

ومع ذكر الرحلات لا يمكن أن ننسى دور مدام «دولت» وفزعها الدائم من ركوب يوسف الطائرة، فقد كانت هذه المشاعر شريكة كل رحلة يقوم بها وما تتضمنه من مراسم وداع قلقة واستقبال حافل بالعودة الميمونة، وذلك من أول رحلة قام بها خاصة مؤتمر أدباء العرب الذى عقد ببلودان بلبنان إلى آخر رحلاته فى مؤتمر التضامن بقبرص.

ويتحدث يوسف السباعى عن الوعكة النفسية التى تصيب دولت فور سماعها خبر سفره أو حتى انتقاله من مكان إلى آخر سيراً على الأقدام أو قائداً للسيارة فيقول: «كانت زوجتى تحذرنى فى كل خروجة من عبور الطريق، فربما أدهس من أول عربة تقابلنى، ولما فتح الله علىَّ وركبت عربية بدأت تتابع حوادث السيارات، فلا تكاد تسمع عن انقلاب سيارة فى الطريق الصحراوى حتى تتوسل إلىَّ ألا أسافر إلا بالقطار، فلا أكاد أسافر بالقطار حتى تسمع هى عن خروج قطار عن القضبان فتطلب منى أن أكف عن السفر بالقطار وأن أستعين بالطائرة أأمن، ومن بعدها بدأت تتابع بشغف حوادث الطائرات المختلفة من سقوط وانفجار واختطاف إلى أن أدركت أنه مرض مزمن لا شفاء منه، وحقًا كنت أشفق عليها من طول البكاء إلى أن أعود، وهذا ما دفعنى إلى إخفاء أمر السفر إلى آخر وقت حتى لا تعد العدة قبل الهنا بسنة، ولكن المحاولة لم يكتب لها النجاح، وذلك لأمر خارج عن إرادتى وهو أن الصحافة دأبت بشدة على نشر أخبار سفرى قبلها بأيام وبالتالى أفسدت علىَّ الخطة».

فلجأ يوسف السباعى لحيلة أخرى وهى تزييف أرقام المسافات بين البلدان



وانتهاز فرصة كراهية دولت زوجته لمادة الجغرافيا، وبالتالى تكون المسافة بين مصر والنمسا «فركة كعب»، ولكن الشيء الذى لم يكن فى الحسبان هو تلك الأحداث السياسية المتقلبة، والتى كانت لا تلبث أن تحدث انقلاباً عسكرياً أو ثورة سياسية فى أحد البلدان فتطول زوجها الزائر الضيف الرسمى، وبالتالى تغلق المطارات وتمنع الاتصالات وقد يتم القبض على رعايا الدول أيضاً.

أما رأى يوسف السباعى ذاته فى السفر فيقول: «كلما حلقت بى الطائرة أو شقت بى عباب اليم باخرة أشعر أنى أقترب أكثر إلى عدالة السماء وابتعد أكثر عن شوائب الأرض، فلا مجلس فنون ولا مؤتمر آسيوى ولا يوميات ولا كتابة قصص ولا غيره، ولا بغض ولا غدر ولا حسد ولا ضغائن ولا سخافات آدمية، بل خروج عن كل سلطان الأذى والتعب والضيق والألم ورقى بالشعور عن كل شعور».

العمر لحظة

كان الموت هو عدوه اللدود، أخذ منه الأب وهو لا يزال برعم صغير، خطف منه الأم وهو مرافق لابنه وحيده الذى خضع لعملية جراحية دقيقة فى ساقه، ثم سلب عمره فى لحظة وهو يدافع عن حقوق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره، لقد كانت رحلة قبرص هى الأخيرة فى حياته، وكأنه يعلم خاتمته، فالمقربون منه يصفون كيف كان على غير عادته آخرمرة، حزينًا بلا مبرر، يائسًا بلا سبب، شاحبًا بلا مرض، صامتًا مرعوبًا من مجهول لا يعرفه، كان هذا المجهول هو عدوه اللدود الذى سرق أحبابه من أمام عينه وسرقه هو الآخر من أحبابه أمام عينهم.

أكانوا يعرفون حقًا أنها الرحلة الأخيرة، رحلة الوداع، رحلة الانتماء إلى عالم آخر يبعد بينه وبينهم سنوات وسنوات؟ أحقًا كانت تدرك رفيقة العمر أن العمر لحظة قد تنتهى برصاصات غادرة أثيمة تصوب إلى رأس توءم الروح؟

لا أعتقد وإنما أؤمن أنه كان يدرك جيدًا أنه سوف يرحل فجأة إلا فما كتب وسطر آخر رواياته «العمر لحظة»

سبعة وجوه ليوسف السباعى

لكل منا وجهان لعملة واحدة . . هى نحن ، من أول شهيق حتى آخر زفير تستهوينا اللعبة القديمة ، فنقذف بها إلى الأعلى متمنين وجه الملك فلا نحصد إلا الكتابة ، أما يوسف السباعى فكان له سبعة وجوه تمناها وحصدها فى رحلة الستين عامًا ، فمنذ أن أمسك بالقلم وآثر مهمة الكتابة واختار طريق البوح وهو يعيش حياة الفكر بكل آفاقها المضيئة ، وسمواتها المتوهجة ، وقد مكنته مواهبه الخصبة المعطاءة من أن يجعل من الفن حياة ، ومن الحياة فنًا ، وأن يمزج بين الحياتين مزجًا لا افتعال فيه ، فعاش إنسانًا فى عالم الفكر ومفكرًا فى عالم الإنسان ، متواضعا عزيز النفس ، خجولا ونجما ، ساخرا وجادا ، مرهفا وحادا ، وهى ميزات لا تتاح إلا للأصفياء من حملة القلم ، والمثقفين من أرباب الفكر .

إن الوجوه السبعة التى تتقاسم ملامح يوسف السباعى ليست فى الحقيقة إلا وجهًا واحدًا له مسالك متعددة ، تبدأ من نقطة واحدة وتنتهى إلى غاية واحدة ، كالنهر العظيم الذى مهما تعددت روافده فإنها فى النهاية تلتقى بمجراه الخالد لتبعث الحياة والنماء فى الأرض . . إليكم يوسف السباعى . . الأديب الروائي . . الكاتب الصحفى . . الوزير الفنان . . المفكر السياسى . . البطل الشهيد . . الإنسان البسيط . . الفارس النبيل .

يوسف السباعى هو كل هؤلاء ، وكل هؤلاء هم يوسف السباعى .

وجه
الأديب
الروائى

روح مصر

أيها الحب،
ياعماد الإنسان..
ومنبع قوته..
وحياة حياته..
لقد عرفتك وأنت فتى..
يطفئ النهار لحظك..
وصادقتك وأنت شيخًا..
أكل الشعاع حياتك.
أيها الحب..
أنت كعبة الأفكار..
إليك سجت قصائد المجنون قيس.
وجميل بثينة.
لا لمال كتبوا عنك.. ولا لشهرة..
وإنما لك.. وبسببك..
ومن أجل استمرارك فى الحياة.

هذه اللغة الحانية التى سطرها السباعى الأب فى كتابه «الصور» ظلت فى وجدان يوسف الابن نبراسًا أضاء الطريق أمامه، لكى يتحسس خطواته الأولى فى عالم الحرف، دون خطر الوقوع فى أخطاء الناشئين المعهودة، صحيح أن الحب يلعب دورًا بارزًا فى كل الروايات لجميع أدباء الدنيا، ولكن الحب عند يوسف السباعى اتخذ صورًا مصرية لها طبيعة خاصة وثيقة الصلة بتلك القصص الخالدة فى تراثنا الفرعونى والعربى والإسلامى والأدب الشعبى.

ولأنه أحب كتابة القصة فقد استطاع أن يضع كل ما يود قوله من نقد وأفكار وخواطر فيها، وهكذا وجد نفسه لا يستطيع أن يجول بالقارئ فى مرتفع أفكاره، وخواطره إلا إذا أغراه بقصة حتى لا يمل السير معه، كان يجلس للكتابة لإبراز تفاصيل نبضات أبطاله إلى حيز الوجود، باحثًا لهم عن مكان وزمان وتفاصيل.

وتعاطف السباعى مع صنعه، أى مع نماذجه البشرية التى ابتكرها فى رواياته، فكل نموذج بشرى فى قصصه حظى باهتمام شديد فى بناء معماره الفنى وأبعاده الاجتماعية والرسمية والشخصية، فقد كان يسعى لالتقاط خيوط موقفه كأديب فى مطلع حياته الأدبية، وأراد أن يقول لقرائه ذات يوم «يخيل إلىَّ أن مهمة كاتب القصة فى عصرنا هذا قد أضحت مهمة شاقة، فهو لا يجد من حوله مادة دسمة يغذى بها خياله، فنحن فى عصور برود وجمود ليس فيها من الحوادث ما يلهم القصة ويوهب الكتابة، وأغلب ظنى أن مهمة أسلافى من كتاب القصة فى العصور السابقة كانت أسهل كثيرًا حيث كانت الحياة مسرحًا للحوادث المثيرة والمآسى المروعة التى تهيئ لهم مرتعًا خصبًا يرتعون فيه بآذانهم وأقلامهم ويسجلون لنا عنها قصصاً رائعة لأن خير ما كتب الكتاب هو ما استلهموه من باطن الحقيقة وما صوروه من صميم الواقع».

كان هذا رأيه المبكر فى مهمة كاتب القصة، وكأنه يحاول بإصرار وعناد وصبر أن ينسج لنفسه خيطًا مضيئًا ينير له بداية دوره هو أديب مبدع فى حياة مصر.

الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى

ومن خلال استلهامه هو لباطن الحقيقة وتصويره لصميم الواقع بدأ يقدم لنا قصصه وكأنه فى معمل اختبار، ويريد أن يثبت لنفسه أولاً ثم لنا أنه على صواب، فيجعل نماذجه تمر بتجارب قاسية لكى يقص من خلالهم الواقع والحقيقة، ليصل إلى نتائج هامة وهى أن الأخلاق والدين والوعى والذكاء أسلحة ضرورية لحماية الجنس البشرى من براثن الخطيئة، وهذه المرحلة فى كتابات السباعى تمثل الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى التى مارسها بنفسه وقلمه يليها المرحلة اللاحقة وهى مرحلة الفعل الثورى، والالتزام بهدف محدد وهو فك الأغلال عن قلب مصر وعن عقل مصر وعن أبناء مصر، وتحقيق الحرية والاستقلال والعدالة الاجتماعية والاستقلال العائلى للأسرة المصرية البسيطة وتحقيق أمل كل إنسان فى الحب والكرامة والحياة.

وقد تجد البداية فى بين الأطلال والسقامات والبحث عن جسد، ولكن قمة هذه المرحلة بحق، بل قمة عطائه الأدبى والفكرى كانت متمثلة فى تلك الروايات الخالدة التى بدأت برد قلبى، نادية، وجفت الدموع، ليل له آخر، أقوى من الزمن، ابتسامة على شفتيه، العمر لحظة، ففى روايته الأخيرة نجده قد حشد تجارب عمره وحصاد ثقافته المتنوعة وعاد من رحلات البحث عن المعرفة عبر سنوات عمره ليضع بنفسه ذلك الشىء الذى لابد وأن يحدثه فى الحياة الكئيبة ليكسبها بعض الجمال والرونق ويمنحها بعض النور، فبعد جولة دهرية بين ربوع قصصه تبين أن الرواية أضحت فرضًا واجبًا عليه، مقتنعًا تمام الاقتناع بأنه لا يعرف أو يجيد غيرها.

أما عن متعة الفهم عنده فمنذ بدايته الأولى وهو يسعى إلى تحقيق متعة المشاركة العقلية مع قرائه، كان يخطو إلى مواجهة ظاهرة مع قرائه ويختبر كل قواه النامية وأفكاره المتوهجة ليشدد الهجمة على الظلم الاجتماعى، هذا ما فعله بالضبط فى «أبو الريش وجنينة ناميش»، ولو نظرنا لأسلوبه سنجد روحًا مضيئة تتمشى فى صعب الكلمات، تتشكل من فرح وتفاؤل وحب للإنسان، لذلك فإن القتامة

لا تلحق بما يكتبه حتى والمأساة فى ذروتها، وإن أدائه فى هذا الأسلوب هو المزاج الشعبى الذى يعكس فى المقام الأول تكوينه.

تأمل كلماته وهو يصف إحدى بطلاته كالآتى «استيقظت المرأة - من باب التجاوز - وجلست فى فراشها برهة تستريح من عناء النوم، هبت من فراشها فقرقع الفراش من ثقلها، وتوجع وكلا منه صرير لو ترجم إلى العربية لكان «اللهم هب لنا من لدنك رحمة، اللهم لا تحملنا ما لا طاقة لنا به».

بداية الموقف الثورى

إذا كانت الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعى تعتبر المرحلة الأولى فإن بداية الموقف الثورى يمثل المرحلة الثانية من مراحل النمو الفكرى عند السباعى وذلك فى معالجة جوانب البطولة فى الإنسان المصرى ومشاكل مجتمعه، كان يوسف قد قرأ كتابات والده النقدية اللاذعة، وكان معجبًا بشجاعة والده فى هجومه النقدى على رجال الحكم دون خوف من أجل إصلاح حال الناس والمجتمع، وهذه القدرة الأولى حفرت فى وجدانه نهراً صغيراً صاخبًا بدأت أمواجه تضطرب وتدفع دفعًا إلى جذور الفكر الثورى، إذن هو دعا إليها فى المرحلة الأولى، وهذه الدعوة هى التى صنعت الموقف الثورى فى المرحلة الثانية.

من يقرأ الأعمال التالية له سيجد أنه اعتنق فكر قاسم أمين ورفاعة الطهطاوى القائم على النهضة والتنوير، وكان عليه أن يضيف شيئًا جوهريًا إلى من سبقوه، وهذا ما فعله فقد طور دعوة قاسم لتحرير المرأة وذلك فى رواية «إنى راحلة» وصور فيها الإنسان الذى يجاهد مجموعة من العقبات المتكررة من عصر إلى عصر وكأنها تحديات لفكر الأدباء والمصلحين الاجتماعيين على السواء.

هذه الأعمال الإصلاحية سواء أرض النفاق أو ياأمة ضحكت أو الشيخ زعرب وآخرون ثم بين الأطلال وإنى راحلة وفديتك ياليلى تشكل علامة بارزة فى عالم السباعى كروائى وكمفكر ثورى، وكمصلح اجتماعى، ففيها جرت فكرته

الإصلاحية وجعلها شعلة متوهجة تحرق كابوس الظلام الذى يحاصر وجدان الإنسان المصرى ويزيد من محنته فى عام ١٩٤٨ .

جرثومة أخرى هاجمها السباعى بقلمه الساخط ، وشدد هجمته عليها لأنه كان يراها ركنًا من أركان التخلف الذى أسلمنا للاستعمار وهى الأمية أو الجهل العام لا فى القراءة والكتابة فقط ، وإنما فى الوعى والإدراك ، ولو استعرضنا أرض النفاق مثلاً فسنجد أنها تمثل قمة الانفجار الفكرى الذى يفصل بين عصر مضى قبل ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ وعصر آت بعد قيام الثورة ، فجاءت مثل قصيدة الشعر الكبرى التى تدور وجودها منذ انتهى عصر البارودى وشوقى وحافظ ، فقد كانت هذه الرواية هى التأصيل الحقيقى للرواية المصرية كفن مصرى شديد المحلية ، فصارت أشهر رواية مصرية عالميًا لأنها مصرية اللغة والشخصيات والأحلام والمتاعب وإنسانية فى نفس الوقت ، روحها وأصواتها يمكن أن تقع فى أى مجتمع فى العالم ، لذلك أثارت دهشة الجميع لأنهم رأوا أنفسهم من خلالها ، كانت مرآة صادقة تعكس آفات النفاق والجوعى والفقراء وأحلام الثراء والطمع والطموح والزهد ، ولابد أن نذكر هنا قول محمد فريد أبو حديد عن يوسف السباعى «يوسف السباعى خلقه الله بنوع من الأدب لم يستطع غيره إلى الآن أن يبدع فيه كما أبدع السباعى ، فقد كان لنا كتاب يملكون أصواتًا لها ألاهيب مثل ألهوب السباعى كالمازنى ، فإن فى مجتمعنا المصرى عيوبًا تحتاج إلى من يصورها كما صورها السباعى ، ومن يهوى عليها بقوله مثلما نزل السباعى بقلمه وفنه وفكره» .

وقبل أن ننتقل إلى المرحلة الثالثة وهى تمثل ذروة ثورته الأدبية وقمة مواقفه الأدبية وشهادة أمينة على العصر ، لابد أن نذكر ما حققته رواية بين الأطلال والتى أهداها إلى الملهمة النائية أينما كانت وكيفما كانت هذه الرواية كانت محاولة من السباعى نفسه لكى ينتهى من معركة جانبية ليتفرغ لمهمته المقدسة النهائية .

وقد جاء صدورها حدًا فاصلاً بالفعل بين المرحلة الفاصلة من دعوته للإصلاح ، ثم التمهيد لمشاركة الضباط الأحرار فى الثورة لإنقاذ مصر وتغيير تاريخها المعاصر ، فالذين سبقوا السباعى مهدوا له الأرض جيدًا ليأخذ القضية على عاتقه ويصل بفكره

المتوقد لعلاج كل قضايا الوطن، ويجعل من سامية بطلة قصته «بين الأطلال» نموذجًا مترتبًا على الدعوة ومحفزًا على التنفيذ، فقد تخيلها تدرك أن طريق التعليم والشهادات هو طريق استقلال المرأة وحصولها على حريتها فى التصرف فى الحياة والبيت، وفى مصيرها، فالبطلة هنا ساخطة، ثائرة على واقع مهين تعيشه وتعيشه معها كل بنات جنسها، مستضعفات فى الأرض، وكأن سامية فى مرحلة من مراحل العصر هى الرمز الحى لمصر الأم المعشوقة والمستعبدة بسبب جهلها وتخلفها، هذا ما حاول أن يستنهضه السباعى ويجعله محور روايته، ليعالج هذا اليأس ويصل بطموح الفتاة إلى شهادة الدكتوراه.

ولعل الختام المناسب لهذه المرحلة الثانية هو ما قاله الدكتور محمد مندور عن السباعى «السباعى أديب قاهرى حتى النخاع، ينزل إلى الناس والأسواق ويضرب فى الأزمة والدروب ويلتقط طموحات وآلام الإنسان المصرى العادى، ويصوره فيجيد تصويره، كاشفًا عن حساسية وعيه الاجتماعى وتطوره الفكرى فى معالجة قضايا بلده، وهذا تأكيد جديد من جانب السباعى على أن الفن الراقى لازم للإنسان حتى يفهم الألم ويفيده».

شاهد على العصر

وبمسئولية الشاهد العادل على عصره، وبضمير المشارك فى الفعل الثورى، وبصدق الفنان وأصالة المصرى الذى بنى أجداده الأهرامات والمعابد وابتكروا للدنيا أبجدية اللغة، وقواعد الهندسة، وأبدعو القصة والشعر والحكمة قبل العالم بآلاف السنين، بكل هذه الصفات كتب السباعى رواياته «رد قلبى، وطريق العودة، ونادية، وجفت الدموع، ولست وحدك»، وفى رواية «البحث عن جسد» كانت روحه هائمة شاردة ترفرف فى السماء بحثًا عن جسد يناسب ثورتها وفكرها الجيد وحلمها بالبناء المنتظر، وحسمت هذه الروح حيرتها حينما انضم كاتبا إلى الضباط الأحرار وشارك فى الحل العملى اليدوى الحزب الثورى المباشر فى تحطيم قيود مصر، كان مع الثوار وهم يطردون الملك وهم يحلمون بإعادة النظام والإصلاح لكل ما فسد فى حياة مصر واختار القلم والرواية والإنشاءات الثقافية العديدة وبدأ

يمارس مهمته فى طريق الثورة، وكتب «رد قلبى» بحماس المقاتلين، وتنبأ مبكرًا بالتحديات الصعبة التى ستواجهها الثورة، وقد أثبتها فى السطر قبل الأخير من الرواية عندما قال «فى الحياة لا تتحقق أحلامنا إلا بعد أن تعتصر دماؤنا»، وهى نبوءة تجعلنا نقفز عدة سنوات من ١٩٥٤ حيث صدرت رد قلبى إلى عام ١٩٦٠ حيث صدرت رواية نادية، ثم إلى ١٩٧٣ حيث صدرت رواية «العمر لحظة» فالروايات الثلاث وثيقة الصلة، متصلة التجربة، متتابعة المواقف عن مراحل الاختيار الصعب الذى كان على الإنسان المصرى أن يواجهه بعد أن صار فعلاً، وبعد أن جاءت ثورته بصفحة جديدة تسجل أصواتًا تاريخية عن تحويل مسار الاقتصاد القومى من الإنتاج لمجتمع النصف بالمائة إلى مجتمع الكفاية والعدل، ومن عصر تسوده أحلام الطبقة إلى عصر آخر ثورى يتسع لأحلام جميع الطبقات، هذا ما رصده السباعى بحسه الفنى ووعيه الفكرى وبثورته والتى كانت قد وضعته داخل الضمير المصرى كاتبًا ومؤرخًا ثوريًا اجتماعيًا بمسئوليات واضحة فى قيادة الحركة الثقافية والأنشطة السياسية والأدبية لدول آسيا وإفريقيا.

ويضيف السباعى موضحًا لقراء رواية «نادية» فى مقدمة لعلها من أهم ما كتب من مقدمات لقصصه فيقول «أحسست بمسئوليتى ككاتب وضابط عاش فى تلك الفترة التى انتهت بالثورة، وعانى كل التجارب التى مرت بها، وأحس بالانفعالات التى أحس بها أصحابها، مسئوليته هذه هى التى دفعته إلى تسجيل كل هذه الحوادث والتجارب والانفعالات التى سبقت الثورة وأدت إليها، ثم يشير السباعى إلى ضخامة الأحداث التى يصنعها الإنسان المصرى الثائر فيقول فى نفس المقدمة الهامة «ويبدو لى أن جيلنا من الكتاب قد منحه الله من الأحداث الضخام ما هيأ له زادًا من مصادر الإلهام والانفعال، فلم تكد تنته أحداث الثورة حتى بدأت أحداث التأميم والعدوان والانتصار فى بورسعيد».

إن السباعى بتحليله لموقفه بنفسه ومن خلال وجهة نظره لمراحل تطوره الفكرى الثلاث التى بدأت بالرومانسية ثم تركها إلى مرحلة الإصلاح الاجتماعى وبعدها إلى العمل الملتزم الثورى يجعلنا نصدقه حين يقول «لقد بدأت الرومانسية كحركة احتجاج من جانب البرجوازية الصغيرة على كلاسيكية النبلاء وعلى القواعد

والأنماط وعلى الشكل الأرستقراطى وعلى المضمون الذى استبعدت منه جميع قضاياه الهامة» .

لقد جعل من رومانسيته الأولى احتجاجًا وسخطًا على الجوانب الملكية والحرية الفاسدة التى تحاصر الإنسان المصرى، وبعد ذلك دعا للإصلاح وجاء هو ليؤكده بتحليله فى مقدمة «نادية» ليصل إلى قمة التزامه الفكرى والاجتماعى وقيامه بالعمل الثورى، وهذا ما تحمله لنا رواية «نادية»، بالحدوته العاطفية الدافئة فقط ولا بالدراما المأساوية فى شخصية التوءمتين نادية ومنى وغرامهما المحزن المشبوب بالأحلام لا بالنضج الفنى الواضح فى صياغتها وإنما أيضًا لنظرته العميقة فى الجرح الذى أصاب جسم الوطن ونظام الثورة وتحديها للاستعمار، ثم باستنباته بذور الأمل من جديد فى نفس نادية ونفوس كل المجروحين المصدومين اليائسين من استمرار الثورة أو نجاحها فى التحدى .

لقد استنبت الإرادة المصرية من داخل الوجدان المصرى العميق الجذور وذلك فى قوله : «يعلم الله ما تذخر به نفسى من انفعالات مستمدة من باطن وممن حولى . . ومن هذا الجد الصاخب الذى نعيش فيه والذى يؤلمنا نحن المصريين، إحساسًا بأن علينا أن نخوض كفاحًا شاقًا من أجل حريتنا وكرامتنا، إحساسًا يملأنا يقينًا بأننا نضع مستقبل بلادنا، ونثبت دعائم الرجاء للأجيال القادمة فى هذه الأيام التى نعيش فيها برغم ما تنزفه نادية وننزفه نحن أيضًا من دماء .

قضاياه عن الحرية ورد الاعتبار والوحدة

وهكذا عن العمل الثورى فى الداخل وتطوراته السياسية خارج الحدود المصرية كان قلم السباعى يكتب وكأنه نذر نفسه لأن يترك للأجيال القادمة أصدق تسجيل أمين للأحداث الضخمة التى عاشتها مصر الثورة .

وينهى تاريخه الروائى برد الاعتبار للإنسان المصرى فى رواية «العمر لحظة»، كانت المعركة رمزًا لصلابة الجندى المصرى وجرأته وفدائيته ولا ننسى أن نذكر فى ختام البحث عن أبعاد بطولة الإنسان المصرى فى قصص السباعى أن نقف أمام

تناوله لبطولة الإنسان العربى بصفة عامة فى قصته الشهيرة «طريق العودة» و«ابتسامة على شفتيه»، وهما معًا عن فلسطين، ثم «جفت الدموع» و«ليل له آخر» وهما معًا أيضًا عن الوحدة بين مصر وسوريا ثم الانفصال بنيهما.

ونبدأ بروايات فلسطين، ونقول إنه رغم اتساع الفترة الزمنية بين صدور الرواية الأولى «طريق العودة» عام ١٩٥٦، وصدور الثانية «ابتسامة على شفتيه» عام ١٩٧١، إلا أن أحداثهما متكاملة، فالقصة الأولى تحكى كيف صار الفلسطينيون مشردين ولاجئين بسبب أخطاء بعض قادة العرب عام ١٩٤٨، وبسبب غفلة وسلبية بعض قادة الشعب الفلسطينى المنكوب، والقصة الثانية تكمل التطور الذى صنعته مصر فى قضية فلسطين حيث جعلتهم يمسكون بالبندقية ويتحولون من لاجئين تائهين فى الأرض إلى فدائيين مسلحين يقاتلون من أجل حقهم ومصر هى التى فعلت ذلك.

وقد كتب طه حسين فى مقاله المطول عن السباعى فى كتاب «الفكر والفن فى أدب السباعى» وقال: «إن طريق العودة قصة رائعة بأوسع معانى هذه الكلمة وأدقها، وما أعرف أنى قرأت للأستاذ السباعى بعد قصته الرائعة «السقامات» شيئًا يشبه طريق العودة فى روعتها وانتقائها وإمتاعها».

وإذا كانت طريق العودة تنتهى بالمزيد من الجراح والشهداء وهو يكتب بحماس ليدل الفلسطينيين إلى الطريق السليم لأخذ حقوقهم وهو البندقية والثورة والالتزام بأرضه، فإن نهاية «الابتسامة على شفتيه» تثير الشفقة أيضًا على تفكك العرب، وتزرع العزم والتصميم من جديد فى نفوس الشرفاء ليقبلوا المزيد من التضحية، ويكفى أن الرواية تنتهى بإذاعة أول بيان لمنظمة فتح لتعلن ميلادها الثورى بفضل مصر والسباعى كواحد من أصحاب الفضل عليهم للحقيقة والتاريخ رغم أنهم اغتالوه غدرًا وخيانة وهو فى طريقه للدفاع عن حقوقهم فى مؤتمر أسيا وأفريقيا فى قبرص، لقد علمهم بقصته أن البندقية تصنع الفلسطينى حيث يجب أن يكون من أجل أرضه وليس لاغتياله.

إن السباعى كأى أديب مسئول ملتزم بقضايا الحرية والعدل، من بصره وبصيرته إلى كل طموحات الأمة العربية، فها هوذا فى قصتيه الطويلتين «جفت الدموع»

و«ليل له آخر» يؤرخ للوحدة بين مصر وسوريا، ثم يشد من أزر العرب بعد الانفصال مبشرًا بفجر آت لا ريب فيه بعد الليل المؤلم الطويل.

إن قصة «جفت الدموع» نموذج آخر من إيمانه بوجود الطموح العربى، والإنسان المصرى فى هذه القصة ينحصر وجوده فى حريته، وهو الذى يفتح بإرادته الحرة أمام الحرية أفق الممكنات، إن الوحدة فى قصة السباعى عمل جماعى بحيث يجب أن يتم لمصلحة الجميع وليس لأغراض زعامية، وهو لا يخفى قلقه على مصير الوحدة، بين أيدى المنافسين على السلطة، وعلى إفساد العلاقات لكى يعود لهذه الوحدة بكل الأحلام والعزم فى ليل له آخر، حيث يربط هذه القضية السياسية بمصائر الإنسان المصرى العادى والإنسان السورى العادى، وذلك حين صور الفتاة السورية سهير وقد تعلقت بالشاب المصرى حمدى واتفقا على الحب والزواج فى غضون فرحتهما بالوحدة بين مصر وسوريا ولكن يقبل الليل فجأة، ويتآمر الساخطون ويفصلون الحبيبة عن حبيبها وإن كان هذا كله قد ضاع فمن حبها له وحبه لها.

هو أيضًا بطل!

وبعد، فإن يوسف السباعى كان مشغول الفكر على الدوام بالإنسان وحريته وحقه فى الحياة الحرة الكريمة، وكان يملأ قصصه بصورة رائعة، عن بطولة الإنسان المصرى، وكان يناصره ويدعوه إلى هدم كل ما هو فاسد ويشاركه الهجوم على الظلم ويضع يده فى يد الإنسان المصرى ليشاركه فى إعادة بناء الحياة، وكان يقول دائمًا هذا البلد لا يحتاج إلى شىء كحاجته إلى الاستقرار لكى توضع فيه المشروعات التى تودى إلى رخاء الشعب، ثم ننفذ فى صمت وسكون، وفى عقل وحكمة بلا تهريج ولا ضوضاء ولا شغب ولا دعاية ولا حفلات ولا زينات، بل تعدد الأهداف التى ستصل إليها والطريق الذى سيوصلنا والزمن الذى سيستغرقه الوصول ثم نسير فى طريقنا قدمًا بلا تلكؤ ولا هزل ولا عبث.

وينهى البطل كلامه فى طريق العودة، ويقول: «ما أسرع ما ينتهى الإنسان، فى

لحظة يكون، وفى اللحظة التالية يختفى، الفاصل بين أن يكون وألا يكون لحظة واحدة فقط، كان يمكن أن تأخذ نهاية الإنسان وقتًا أطول، هذا الكائن الضاحك الساخط المتحرك المفكر الذى يفعل أشياء كثيرة، كان يجب ألا ينتهى بهذه الطريقة الخاطفة، كان من المفروض أن يكف عن كل أفعاله الكثيرة شيئًا فشيئًا، لكن ومض البرق، الموت خاطف، إنه كلامه بالحرب ومضيره بالحرف، لقد عاش يوسف السباعى بطلاً، واستشهد بطلاً مثل حورس الأمل المنشود فى الخلاص، وكانت إيزيس هى مصر فى أشد الحاجة إليه، وإلى أمثاله من الأمناء على مصريتها، لقد استلهم روح مصر فى كل كلمة كتبها وأعطته هى فؤادها حيًا كان ثم ميتًا.

كاتب شعبى بمعنى الكلمة

مظاليم الأدب كثر..

أحدهم فارس الأدب الراحل يوسف السباعى.

صحيح أنه حصل فى حياته على كل شىء..

الوسامة.. السلطة.. الثروة.. الشهرة.

ولكنه فاز أيضًا بتجاهل الكتاب والنقاد لحصاده الأدبى.

لقد غبنه النقاد حيًا، وتجاهلوه ميتًا، وأسروه فى خانة الكُتّاب الرومانسيين، غاضين النظر عن تعدد إبداعاته وتنوعها ما بين الرومانسية والواقعية والاجتماعية والتاريخية، وظلموه ثانية عندما عدوه روائيًا فقط وتجاهلهم ما أبدعه قلمه فى مجال المقال والقصة والمسرحية، وتمادوا فى ظلمهم له ثالثًا حين لم يعطوا أعماله ما تستحقه من دراسات نقدية لائقة بمكانته كأحد أكبر أدباء مصر انتشارًا وأحد أوائل الذين ترجمت أعمالهم إلى اللغات الأجنبية.. لماذا؟

لماذا لم يأخذ حقه من التقدير؟ أيعود السبب إلى خشية هؤلاء من اتهامهم بالنفاق والمداهنة فى تناول إنتاج السباعى المتنوع بالبحث والدراسة لذلك فضلوا أن يلوذوا بالصمت المقصود والتجاهل المتعمد؟! ربما، وربما أيضًا تكون تلك هى رؤيتهم الخاصة وتقييمهم الموضوعى من وجهة نظرهم، لذا كان علىّ أن أذهب إلى

أولى الأمر مستفسرة وراغبة فى المعرفة، هل حقًا ينطبق على يوسف السباعى ما يطلقون عليه أديب البرج العاجى؟ ألم يكن مؤرخًا دراميًا للأحداث التى مرت بها مصرنا على الصعيدين السياسى والاجتماعى من خلال رواياته؟ ألم يسجل مسيرة ٢٣ يوليو فى رواية «رد قلبى» عام ١٩٥٤ ومعركة التأميم والتحول الاجتماعى فى رواية «نادية» عام ١٩٦٠، وأحداث الوحدة بين مصر وسوريا فى رواية «وجفت الدموع» عام ١٩٦١، والانفصال ومأساته المريرة فى رواية «ليل له آخر» عام ١٩٦٣، والسد العالى، وأهم إنجازات الثورة فى رواية «أقوى من الزمن» عام ١٩٦٤، ومأساة فلسطين فى رواية «طريق العودة» عام ١٩٥٦، وحرب الاستنزاف فى رواية «ابتسامة على شفتيه» عام ١٩٧٠، وأخيراً إشراقة أكتوبر المجيدة فى رواية «العمر لحظة» عام ١٩٧٢، فضلاً عن آخر كتبه «مصر المشكلة والحل» عام ١٩٧٨، والذى تضمن عدة دراسات منها الأرض والبشر ومسكن لكل أسرة ومشكلة التعليم وإعادة بناء القرية المصرية والهجرة إلى القاهرة وأمن الشعب، هذا الكتاب الذى يحتوى على تخطيط لحلول مشاكل كنا نعيشها وكان حلمه أن يحققها.

ثلاثية رومانسية لا تعمم

لم تكن رومانسية يوسف السباعى إلا ثلاثية فقط هى من أرق ما كتب «إنى راحلة» عام ١٩٥٠، «بين الأطلال» عام ١٩٥٢، «فديتك ياليلى» ١٩٥٣، هذه التجارب الثلاث هى التى جسدت عالم الوجدانيات لا غيرها، إذن كيف لنا أن نقيده داخل غرفة واحدة، وهو الذى يملك البيت كله بأبوابه ونوافذه وحدائقه المحيطة به.

السؤال الموجه إلى الروائى الكبير خيرى شلبى باعتباره شاهد على العصر الأدبى المصرى، قارئًا له، مطلعًا عليه، ومبدعًا فيه.. يقول خيرى شلبى: يوسف السباعى بطبيعة الحال كان لابد له أن يبدأ بداية رومانسية لأن الأدب الرومانسى كان سائدًا فى هذا الوقت، فتقريبًا لم يكن هناك أدب غير رومانسى فالأدب كان معناه الحقيقى هو الرومانسية، ومجرد التفكير فى كتابة أدب لمجتمع مليء بالمشاكل هو فى حد ذاته رومانسية ورفاهية زائدة عن الحد، حتى مصطفى لطفى المنفلوطى حينما

اكتشف أسلوبه وأعاد صياغة الأعمال التى كانوا يترجمونها له كان فى منتهى الرومانسية، فمثلاً كتبه العبرات والنظرات كلها تتنفس رومانسية.

محمد السباعى والد يوسف السباعى له كتاب اسمه «الصور»، وقد وصف أيضًا فى ذلك الوقت بأنه كاتب رومانسى ربما أن يوسف نشأ فى ظل نهضة سياسية حيث كان ينتمى إلى جيل الأربعينيات الذى قام بالثورة فبالتالى لم ينفصل هو عن هذا الجيل، واهتماماته، فبدأ أدبه يحمل الهم العام، صحيح أنه كان يكتب قصصًا رومانسية ولكن معظم القصص التى كان يكتبها كانت أيضًا تحمل الهم العام، وتقدم شخصيات من الواقع المصرى، والمثال على ذلك أولى مجموعاته «يا أمة ضحكت» فى معظمها أدب واقعى، إذن أول ظهوره للقراء كان بالأدب الواقعى وإن كان فى داخله يولد رومانسيًا.

ولو أمعنا النظر فى مجموعاته فيما بعد لوجدنا أن «بين أبو الريش وجزيرةناميش»، و«الشيخ زعرب وآخرون»، كانت تتراوح ما بين الرومانسية والواقعية، حتى رومانسيته كانت رومانسية نابعة من الواقع، لم تكن محلقة فى أوهام خيالية بل كانت منطلقة من أرض واقعية صرفة.

ويكمل: وحينما كان يكتب الرواية كان أول من كتبوا الفانتازيا فى الأدب العربى فقد مزج الخيال بالواقع امتزاجًا بسيطًا ومقبولاً بتوليفة خيالية يقبلها الذهن، وإنما ذات رؤية انتقادية عميقة جداً للواقع، إذن فهو أيضًا ساخر من جهة أخرى.

ولو تحدثنا عن الرؤية الواقعية تحديداً عند يوسف السباعى فستجد أنها تبلورت تمامًا فى السقامات، فهى رواية واقعية ومتميزة جداً كأى رواية لنجيب محفوظ ويوسف إدريس زعيمى الواقعية فى الأدب العربى، بحق كانت رواية عظيمة وغريبة جداً على يوسف السباعى، ومن يقرأها لا يتصور أبداً أنه كاتبها، فالأسلوب هو أسلوب يوسف السباعى، ولكنها تدل على أن فى أعماقه كاتبا واقعيا من الدرجة الأولى.

• إذن القارئ لأدب يوسف السباعى حتمًا سيلاحظ كم التنوع ما بين واقعى واجتماعى ورومانسى، إضافة إلى الفانتازيا، ومعظم هذه التجارب القصصية

والروائية كانت فى الغالب انعكاسًا لما ترسب فى أعماقه أثناء مرحلة الطفولة، والبعض الآخر منها كان انعكاسًا لحياة من حوله، فمن أين أتت التصنيفة الرومانسية لأعماله؟

■■ سبب اشتهاره بالرومانسية أعتقد يعود إلى تلك الأعمال التى كتبها برومانسية وتحولت إلى أفلام سينمائية وحققت نجاحًا شعبيًا كبيرًا جدًا مثل «إنى راحلة، بين الأطلال، رد قلبى، ابتسامة على شفتيه»، وغيرها من الأعمال التى اصطبغت بالجانب العاطفى.

هذه النوعية من الروايات كان يوسف السباعى منساقًا إليها لأنها كانت ذات رصيد جماهيرى وكان الناس فى ذات الوقت يتلهفون على هذه القصص ويقبلون على مشاهداتها لذا نجده كان يكتب هذه الأعمال مدفوعًا بحب الناس له وفى نفس الوقت كان لها وجود حقيقى فى تاريخه وفى تاريخ الحياة المصرية فى الأربعينيات، فهذه الميلودراما التى قد نظن أنها غريبة على الواقع المصرى هى موجودة فيه بالفعل ونابعة منه. هناك أدباء غير يوسف السباعى يمكن أن نطلق عليهم لقب «فارس الرومانسية» مثل محمود كامل الذى كان يكرس للرومانسية فى كل أعماله وهناك محمد عبدالحليم وعبد الله فارس فرسان الرومانسية أما أن يوصف يوسف السباعى بأنه فارس الرومانسية فهذا ظلم كبير له لأنه كاتب واقعى جدًا حتى فى رومانسيته وقد ننخدع إنه رومانسى بسبب رقة أسلوبه ومعالجته للأمور بدقة شديدة لو نظرنا لرواياته سنجد أن أحداثها موجودة فى الواقع، وإن اختلفت الرؤية والمعالجة لهذا الواقع ونجاح العمل يرتبط بطريقة معالجة الأديب له، كما أعتقد أنه من أسباب وصف السباعى له الرومانسى أنه لم يكن يهتم بأن يكون كاتبًا واقعيًا ولم يكن يشغل نفسه بهذه التصنيفات فهو يريد التأثير على القارئ بأى نوعية من الأدب، ولكن نظرًا لأن إحساسه بالواقع إحساسًا مرهفًا فقد كتب بحسه المرهف فقالوا عنه إنه رومانسى.

المرئيات فى مواجهة الكتابات

● لاشك أن السينما والمسرح والتليفزيون مثلث مرئى قوى ينافس عالم الكتاب

وتحديداً الرواية وإن كنت أظن أنه يكون أحياناً بمثابة الروح التى تبث الروح لهذا الجسد الملقى على الرف المسمى بالرواية فتجعله يتكلم ويتحرك ويملأ السمع والأبصار، لقد أفادت الدراما بمختلف فروعها يوسف السباعى ولكن هل انتشر أدب السباعى عن طريق هذه الوسائل قبل القراءة؟

■■ العكس هو الصحيح لقد استفادت هذه الوسائل من شهرة يوسف السباعى لأنه حقق شعبية رائعة فى وقت مبكر جداً فى أوائل الخمسينيات، فكان له حضور مبكر فى الواقع الثقافى وكانت كتبه توزع توزيعًا منقطع النظير، وكان ذكيًا جداً يعرف قدر الأدباء الآخرين ونوعيات ومستويات كتاباتهم فيدرك أنه كاتب شعبى وأن كتابات «توفيق الحكيم» أعلى قيمة وفلسفة وكذلك «طه حسين والعقاد»، ومن هنا كان يحسب حساب ذلك جيداً وينشر إنتاجه بكل الوسائل والسبل التى تمكنه من وضع قدم على قدم بجانب كبار الأدباء فى الصفوف الأولى.

● معنى ذلك أن قربه وجواره الشديد من هؤلاء الأدباء هو الذى حقق له الحضور وأفاده فى بداية حياته؟

■■ أدبه هو الذى فرض نفسه وحقق له الحضور، فقد كان يخاطب القاعدة العريضة يكتب روايات يفهمها كل القراء بأسلوب جميل ورشيق وفى نفس الوقت به قيمة وجمال. نحن جميعًا فى بداياتنا كنا مغرمين بتقليد أسلوب السباعى حتى فى موضوعات الإنشاء كنا نقتبس عباراته لجاذبيتها، وأذكر تلك الشعبية الهائلة التى عرف عن طريقها على نطاق واسع قبل أن يصدر كتبه حين كان يكتب فى مسامرات الجيب وحين أصدر مجموعته الأولى كانت له أرضية انطلق منها وبدأ الناس يقبلون عليه وعلى أعماله، ومن هنا سعت السينما إلى يوسف السباعى حين وجدته كاتبًا جماهيريًا واسع النطاق كما وجدت فى أعماله حيوية وحياة تصلح للسينما، هذا الرجل عاش صادقًا مع نفسه وفى كتاباته، فحينما يكتب رواية لا نجد فرقًا بينها وبين المواويل الشعبية التى تحكى الحكايات المعروفة «حسن ونعيمة - شفيقة ومتولى»، هذا تراث فى الفلكلور وهو تربى على هذا الفلكلور تربية شعبية حتى النخاع.

حارة محفوظ وحارة السباعى

● اتفقنا أن الرواية المصرية الصميمة هى مفتاح أدب وشخصية السباعى، حيث جاءت أغلب قصصه متميزة ببعدها الإنسانى النابض الفعال بدليل ظهور الحارة المصرية بشكل مبكر جداً فى أعماله، ماذا لو عقدنا مقارنة بين حارة نجيب محفوظ وحارة السباعى . . . ألست معى أن السباعى كان أكثر احتفالاً وتصويراً للعوالم المادية عن محفوظ الذى كثف اهتماماته فى شخصية الفتوة؟

■■ الحارة عند يوسف السباعى مزيج من الثقافة والصياغة الفنية فهو يصور ويحلل مواقيعها وشخوصها من كل مكان فى الحى ليقدم فى النهاية بانوراما ضخمة لصميم الحياة المصرية والمقياس الأدق الذى يكشف مدى انغماس روح السباعى فى الحارة ودنياها، وهو الذى ولد فيها واستمر سنوات عمره الأولى يتنفس أجواءها هو اختياره لملامح غير تقليدية بعيدة عادة عن اهتمامات القصاصين الذين يرتبطون بالشخصية لا بعملها، فاختياراته السابقة ومهنته المنقرضة حفظ لها نبض عصرها المنطوى وبعث فيها الحياة مرة أخرى وسط عصرية اليوم.

أما الحارة عند نجيب محفوظ فمصاغة صياغة فنية دقيقة أو بمعنى أدق مطبوخة طبخاً جديداً وجيداً تقدم خلاصة الإنسان المصرى البسيط ابن البلد ليس فقط الفتوة كما تصور كده ومعاناته ولهوه وعبثه وشكواه وآلامه، وهذه شروط نجاح أى عمل هو المطابقة الشديدة العادلة الموضوعية لهذا الوطن حتى لا يكون هناك كذب وزيف.

الحارة عند السباعى فيها مجموعة من اللمحات الموجودة فى الأصل الكاتب هو الذى أراد رؤيتها، ولو أراد أن يرى أكثر لكان سيكتب أكثر ولكنه لم يشغل نفسه بها بل شغل نفسه بالحارة كحارة واقعية صرفة، أما محفوظ فشغل نفسه بالحارة كوطن مصغر فاهتم بالتقاط الأشياء والمعادلات والزخارف التى تكرس معناه ونظرته للفتوة فى الحارة هى نظرته لحاكم مصر وللحارة كتاريخ لمصر وحكامها.

عقدة الموت الفجائى

هناك جانب آخر لم نتحدث عنه برزت فيه معظم قصصه يتمثل فى الاتجاه

الميتافيزيقى الفلسفى ذلك الذى يتناول فيه عقدة الموت الفجائى والذى ترسب فى أعماقه منذ وفاة والده، فالبطل الحقيقى فى «السقامات» هو الموت.

● هل تظل الصدمات الأولى فى حياة الروائى مؤثرة وملحة عليه فلا يتحرر منها مهما طال الزمن أو قصر؟

■■ أى كاتب تكون لديه مجموعة من الأفكار مسيطرة على أدبه ويكون هو مهتم بهذه الأفكار ويبدأ فى التعبير عنها بأشكال مختلفة، وهذا شىء موجود ومشروع فى الأدب وحين نطلّع على أعمال هذا الكاتب أو ذاك سنجد أن كل عمل يعبر عن هذه الأفكار بصورة أعمق ومن زاوية جديدة وإن كنت أرى أن السباعى لم تكن لديه هذه الأفكار الملحة لأنه كاتب خاضع للوارد، فوجدانه وجدان شعبى خالص، سمع مواويل وأغنيات كثيرة ويرى الناس بشكل جيد، وله قصة اسمها «حارة المبيضة» هى إحدى قصصه القصيرة لا يكتبها إلا كاتب صعلوق، لذلك فموضوع انشغاله بقضايا فلسفية يحاول أن يستجليها فى الحياة من خلال أعماله غير موجود لديه، وكما قلت وأظل أقول هوكاتب شعبى بمعنى الكلمة يريد أن يسعد القارئ ويسليه ويعطيه الموعظة بشكل غير مباشر، كما يريد أن يطوره وله لون مختلف عن كل أدباء عصره.

مجمع البحوث الإسلامية يعترض

● لفت نظرى خبر نشر مؤخراً عن تقرير أعده مجمع البحوث الإسلامية مطالبًا بحظر نشر رواية «نائب عزرائيل» التى كتبها السباعى فى الأربعينيات لتكون أول رواية مصرية يحظر نشرها لموانع إسلامية بعد أكثر من ستين عامًا من طبعها وتداولها بين الجمهور فى مصر والعالم العربى، وقد استعان المجمع فى تقريره بكلمات المؤلف الذى هاجم فيها ملك الموت واتهمه بالتكاسل كما وصفه بأنه طائش وأحمق وغبى ونحس وسكير وعاشق ولهان.. فما هو تعليقك على ذلك؟

■■ إذا كان هذا قد حدث هو يؤكد أنهم لا يقرأون الأدب قراءة جيدة لأن الأدب لغة مجازية وهذه الشخصية «نائب عزرائيل»، هى شخصية مجازية من حق الكاتب

أن يصفها، كما رأى دون التعدى على دينه، ففى كل الأمم لو طبقنا المقاييس الدينية أو الأخلاقية الصارمة، فسنظلم الأدب وسنظلم هذه القيم أيضًا ولن نحميها، وعلى العكس نحن نحمى هذه القيم بالأدب الذى يظهر لنا، والدى ـ رحمه الله ـ كان يقول لى دائمًا «تعلم الأدب من قليل الأدب»، والعمل الروائى كذلك يرينا كيف يبدأ السقوط لنتعلم منه كيف لا نسقط.

● استفسار جانبى.. هل الروائى مطالب دائمًا بقدر من الواقع يتراوح ما بين الخيال والنظرة البعيدة لما هو متوقع؟

■■ مازلت أذكر كلمات يحيى حقى التى قالها ذات يوم إن قدر الكاتب أن يتعرى ليكسى الآخرون، نحن فى عالمنا العربى لا يزال التلقى لدينا ضعيفا فلا نفرق بين الروائى والكاتب، فنأخذ دائمًا راوى القصة على أنه هو الكاتب، وأنه ما دام الكاتب يروى بضمير المتكلم فهو إذن بطل القصة، وأنا بهذا الشكل أتحمل أوزار أبطالى، وأتهم بدلاً منهم وهذا نوع من التضحية، لكنى مضطر للكتابة بضمير المتكلم حتى يصدق القارئ إن هذا هو صاحب المشكلة وطرفًا أصيلاً فيها وهو المصدر الأول والأخير للمعلومات الخاصة بهذه القصة.

إذن فالكاتب عليه مسئولية كبيرة جدًا وهى أن يعيد بناء المجتمع على نحو صحيح، لكن لابد له أن يكون على قدر كبير من الثقافة العميقة، وأن يكون ملمًا إلمامًا قويًا بتراثه القومى المكتوب والشفاهى حتى لا يخلع على المجتمع ما ليس فيه، كما يكون ملمًا بطبيعة المجتمع المصرى وطبيعة الشخصية الوطنية، فالمطلوب من الكاتب الروائى على وجه التحديد أن يكون واسع التجربة وواسع الثقافة. متابعًا لتطورات المجتمع وخاصة فى فترات التحولات الاجتماعية التى تطرأ عليه.

ويضيف: حين يكون ملمًا بهذه الأشياء فليكتب ما يشاء وعلينا أن نقبل ما يكتبه، ولكن المشكلة أن يكون دون هذه الأشياء ثم يتعرض لكتابة الأدب، وهذه النماذج هى التى تسىء لسمعة الكتاب ولا يصل أدبها للقارئ، فالأدباء هم حملة مشاعل الفكر الذى يضىء للناس حياتهم فيجب أن يكونوا أعلى من هذا المستوى.

عصر السباعى الذهبى

● كان ليوسف السباعى دوراً محورياً فى قيادة الحركة الأدبية والفكرية منذ أن أنشأ نادى القصة مع إحسان عبد القدوس عام ١٩٥١، وشارك فى تقديم الأعمال الأدبية المصرية للعالم حين استعان بمترجمين لعرضها ومنها قصة «زينب» لهيكل و«سارة» للعقاد و«المعذبون فى الأرض» لطه حسين و«إبراهيم الثانى» للمازنى و«أحاديث جدتى» لسهير القلماوى. . ولكن أين السباعى نفسه فى قلوب وعقول الأجيال الجديدة، أين هو على أرفف المكتبات والهيئات الثقافية والتعليمية ودور النشر التى تهتم بالتراث؟

■■ يوسف السباعى له أفضال كثيرة جداً على الحياة الثقافية فى العالم العربى ومن ينكرها فهو جاحد وغير موضوعى، ماذا أقول عنه وهو الذى أنشأ المجلس الأعلى للفنون والأدب الذى هو الآن المجلس الأعلى للثقافة. وأحد الذين وضعوا توفيق الحكيم فى مكانته التى يستحقها، كما أنه قدر أدباء مصر تقديراً عظيمًا ووضعهم فى أماكنهم التى تليق بهم فى المجلس، وله الفضل فى إنشاء جمعية الأدباء التى شهدت تجمعًا للأدباء بعد أن كانوا شراذم وأفراداً متناثرين لا يعتنى بهم أحد، أصبح لهم مقر يجتمعون فيه، وينظمون ندواتهم وأنشأ أيضًا سلسلتى الكتاب الذهبى والفضى وهما أعظم سلسلتين فى تاريخ الأدب العربى، حيث كانتا تقدمان لنا كل شهر كتابًا جديداً أو عملاً جديداً بثمن يتناسب مع الجميع، هذه السلسلة التى قدمت لنا ثلاثة أجيال الأول هو جيل طه حسين ويحيى حقى ومحمود البدوى وسهير القلماوى، والثانى هو جيل نجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله وعادل كامل، ثم الجيل الأخير إدريس والشارونى وعبد الرحمن الشرقاوى، لقد أبدع لنا مملكة تحتوى على ذخيرة من الأدب الروائى والقصص مازلنا نعيش فيها حتى الآن وتتسع لنا، ولولاه ما كان للقصة والرواية أى مستقبل فى مصر، كانت ستبقى مجرد أفراد ولكنه استطاع تجميعها وعمل قوة لا بأس بها وحضوراً وأصبح على أى قارئ تجميع هاتين السلسلتين ليكون عنده تاريخ القصة والرواية الحديثة.

ويكمل: أما فيما يختص بغيابه عن أرفف المكتبات ودور النشر وعقول وقلوب شباب اليوم، فاللوم عليه شخصيًا وعلى أى شخصية قيادية كبيرة تسيطر لفترة طويلة فى أى مجال من المجالات ولا تهتم حقيقة بتربية كوادر تحمل اللواء من بعدها، لذا فبعد رحيله يحدث نوع من التفكك، وهذا يحدث عندنا على جميع المستويات السياسية والاجتماعية والعلمية، وهكذا نشكو من عدم وجود الكفاءات مع أننا نمتلكهم فى الواقع، ولكننا بكل أسف لم نلق عليهم الضوء الكافى ولا نعطيهم الفرصة ليتبوءوا مكانتهم فى وقت مبكر، فكى يكون لدينا نجيب محفوظ جديد، يجب الاهتمام بالمواهب فى وقت مبكر لكن كل موهبة الآن تبنى نفسها وتربى نفسها وتخلق لنفسها الفرصة على خلاف الأزمنة القديمة التى كنا نجد فيها مجلة الرسالة مثلاً التى كانت تحمل كل الحركات الثقافية وكانت تمثل نبراسًا للمثقفين الجدد وغيرها من المجلات وسلاسل الكتب، أما الآن فكلها مجهودات فردية وأصبحنا فى حالة عقم كامل لأن الأدب أصبح مجرد أفراد، والأدباء شبان لا يجدون من يهتم بهم لدرجة إنى فى بعض الأحيان أترك كتابة الرواية لأكتب مقالاً عن أحد هؤلاء الكتاب الموهوبين، أيضًا الحياة الثقافية عندنا مفككة، ومجلاتنا الأدبية هزيلة يرأسها موظفون، لقد أهين الأدب فى عصر غير ثقافى، وأصبح العصر منحطًا فى جميع مستوياته حتى فى معاركه، وبعد أن كان العقاد والمازنى يتداخلان فى معركة مع أحمد شوقى حول الشعر والعمود الشعرى تحدث هذه المعركة شرارًا فكريًا يراه الأجيال، أما الآن فأصبحت المعارك شخصية وتصفية حسابات وأخذت سمة عصرها.

السباعى قفازًا فى يد السادات

● عالم الرواية رحب مترامى الأطراف له طبيعة متنوعة فريدة وزمن خاص يلتقى فيه الحاضر بالماضى مع حرية فى استشراق المستقبل والروائى ذلك المبدع الموهوب بقدرات متميزة له الحرية فى الاستناد إلى الواقع من حيث المكان والزمان والرموز والأحداث، بينما تأتى الشخصيات المجسدة لكل ما سبق من الخيال، وهى معادلة على أساسها تتضح رؤيتها وتتحد أفكاره ومعالجته لمختلف المواقف الإنسانية



تاريخية كانت أو معاصرة، جماعية كانت أو فردية. وهذا يدفعنى لسؤالك. . ماذا ينقص أدب يوسف السباعى؟

■■ لم يكن ينقص أدب السباعى شيئًا، فقد كان يعيبه شيء وأنا المسئول عن ذكره فقد كان عيبه أنه كان مريضًا بالشيوعية وكان لديه عقدة منها كان يعتبر أن أى شخص يختلف معه فى الرأى شيوعيًا، ويقيم مواقفه بناء على هذا، وهذا ما جعل الماركسيين يأخذون موقفًا من أدبه، رغم أنهم لم يكونوا يكرهونه على المستوى الشخصى وإنما كان هو الذى يبادر دائماً برفضهم لأنه لم يكن واسع الأفق، ولو كان واسع الأفق لكان قد أدرك أننا بدأنا عصراً اشتراكيًا وأن هناك ثورة اشتراكية هو الذى يمثلها وبالتالى فإن مفاهيم الأدب تغيرت، ومفاهيم النقد بالضرورة تغيرت، وظهر هناك نقاد جدد وبيانات نقدية جديدة بعد أن كان أنور المعداوى وعبد القادر القط أصبحت هناك بيانات نقدية تعطى طلباتها للأدب، لذا كان عليه أن يكون مرنًا وألا يتصادم مع هذه المفاهيم النقدية والأدبية الجديدة بل يتحاور معها، ولو أنه تحاور معها بمرونة أولاً كان سيطور نفسه وكان سيتنازل عن كثير مما كتبه فى أواخر حياته، كان سيكسب احترام جميع التيارات اليسارية، لكنه ركب رأسه وأخذ موقفًا عدائيًا من جميع التيارات اليسارية فتعرض لكراهيتهم جميعًا ثم قبل أن يكون قفازًا

فى يد ديكاتورية أنور السادات السياسية ، كما قبل على نفسه أن يقيل كاتبًا ويقمع آخر فيغلق مجلات وهذا تحديدًا ما يؤخذ على يوسف السباعى .

● معنى كلامك أنه كان ممثلاً للسلطة عند المثقفين وليس العكس ممثلاً للمثقفين عند السلطة؟

■■ نعم، بكل أسف لم يكن ممثلاً فقط بل أداة فى يد السلطة فيذهب إلى الأهرام ليسكت أصوات ، ويجعل الحياة فيها وردية ثم يذهب إلى دار الهلال ومن بعده روز اليوسف ، كان يقبل على نفسه أن يكون أداة فى يد الديكتاتورية السياسية الظالمة ، بينما هو هذا الكاتب الرقيق الجميل ، وهذا هو العيب الحقيقى الذى يدان به يوسف السباعى والذى كان يمكنه أن يتفاداه بسهولة شديدة جدًا ، ولكنه فى هذا الأمر ليس وحده ، وإنما هو مرض مصرى ، فأنا أدين يوسف السباعى بذلك ولكن أعتقد أنه مرض مصرى عام على مدى التاريخ ، فالمصرى بشكل عام سواء كان مثقفًا أو أميًا مصاب بمرض السلطة فهو يهاجم السلطة . . وهو خارجها أو تحت ضغطها ولكنه بمجرد أن تأتيه الفرصة ليكون صاحب سلطة ولو ضئيلة جدًا تتغير شخصيته كليًا ، فقبل أن أدين يوسف السباعى أدين المصريين جميعًا .

هبـــاء فى هبـــاء

إلى الحمير الكبار..

أهدى كتابى.. يا أمة ضحكت..

فمنهم قد استلهمت وحيه..

واستوحيت حكمته..

ليتهم يقبلونه ويقرأونه ويفهمونه..

ثم يستحون ويعقلون ويندمون على ما يفعلون..

أيها الكتّاب..

ألا هل بلغت؟!

لا أظن.. فما من حمار منهم.. سيعرف أنه حمار..

وياحسرتاه على الإهداء..

لقد ذهب هباء فى هباء..

هكذا تعـود يوسف السباعى أن يكتب إهداء غير تقليدى فى مقدمـة كل عمل سطره، لقد خشى أن يتهم بالتملق لو أنه لجأ لكبار الكتّاب، وعليه فقد وقع اختياره

على الحمير الكبار، وعلق قائلاً: «إن بعض الكتّاب تعودوا أن يرصعوا كتبهم بأقوال التقدير والمديح من ذوى الحيثية من الصحافة ورجال الأدب، ولكنى أشعر أننى فقير فى هذه المرصعات، لست أدرى لماذا.. قد يكون السبب أنى لا أكتب أدبًا، أو يكون لأن رجال الأدب لا يقرأون الأدب».

هناك نوعان من الأدباء نوع فاز بالدنيا ونوع فاز بالآخرة والدنيا هنا معناها جمهور واسع من القراء سواء عن طريق القراءة أو مشاهدة الأعمال دراميًا، وبهذا يفوزون بمباهج الدنيا من شهرة وثروة وهيبة ونفوذ، أما الآخرة هنا فهى الاهتمام النقدى بالأديب، فهو الذى يكون مدخله إلى دنيا الخلود، وكل أديب يتطلع إلى الفوز بالدنيا والآخرة معًا، وإن كان الجميع بينهما متعذرًا فى كثير من الأحيان، حتى يبدو أن ما يعجب الجماهير لا يعجب النقاد والعكس بالعكس، وهذا ما حدث لرواية «السقا مات»، لأديبنا الجليل فقد أعجبت النقاد ومع ذلك فقد كانت أقل رواياته توزيعًا، فى النهاية الذى لا يمكن أن نختلف عليه هو أن يوسف السباعى فى مجمله يعتبر ظاهرة اجتماعية جديرة بالبحث، فقد كان يمتلك ثروة فى البناء اللغوى والمحتوى العاطفى والتركيب النفسى والهيكل الفكرى.

ولكن.. من أين أتى بهذا الرصيد المعبأ بداخله والذى كون ذخيرته الحقيقية للإنتاج الأدبى، السؤال موجه للناقد الأدبى يوسف الشارونى:

يجيب: اتجاه أى إنسان إلى سبيل ما تحدده أولاً سمات تركيبه البشرى الذى يشكل قدراته فى الحركة والحياة، وأعنى بذلك قدراته الذهنية والحسية والبدنية، وهذه الأشياء توجد مع ولادته أى أنها تنتمى إلى عنصر الوراثة أو غيرها من وسائل التكوين البشرى غير المنظورة.. ويتأثر هذا التكوين مع الأيام بشيئين.. تأثر لا إرادى بالبيئة، وتأثر مقصود بالتربية، التأثر البيئى ينتقل إما مع الزمن بالتعود، أو مع التأثير بالإعجاب والانبهار، أما فيما يختص بالتأثير المقصود بالتربية فهو نفسه ينقسم إلى قسمين.. تأثر تلقائى فى البيت وينتج عما يفرضه واجب الأبوة تجاه الأبناء، وتأثر منظم وهو ما تفرضه الحياة من واجبات على الأبناء، التركيب البشرى كان أكثر العناصر تأثيرًا على حركة يوسف السباعى، ومن بين هذه التراكيب ما

يسمونه بالموهبة، إلى جانب البيئة السكنية والأسرية التى نشأ فيها، فقد شب على القراءة بغير إرادة ولا جهد، ليس فقط كل ما ألفه وترجمه والده من عيون الأدب العربى وإنما أغلب إنتاج الأدب الغربى أيضًا.

هذا الشغف المبكر بالقراءة كان أثره واضحًا فى محاولاته الأولى، كذلك استمد منه بيئته الأوسع، بيئة الحى الذى ولد فيه، بعض موضوعات قصصه وروياته، أيضًا كثرة تنقلاته من سكن إلى آخر فى حى السيدة زينب أتاحت له أن يتجول فى أماكنها الغنية بالشخوص والتفاصيل واستطاع بمهارة أن يشم رائحتها ويلمس مذاقها فى كثير مما كتبه.

وكانت الخطوة الثانية الطبيعية بعد القراءة والانغماس فى البيئة الشعبية هى محاولة الكتابة، فكانت أولى محاولاته زجلية شعرية وقصصية وتضمنت أيضًا سجلات خاصة كان يحررها ويرسمها، ويجلدها، ثم تجاوز هذا النطاق الخاص إلى النطاق المدرسى وبعدها تجاوز إلى النطاق الصحفى وهو فى السابعة عشرة من عمره . . ونشرت له أكبر المجلات الأدبية.

الغريب فى الأمر أن أشقاءه شاركوه كل هذه التفاصيل من قراءة مبكرة وكثرة التنقلات ومع ذلك نجدهم كانوا يعملون فى وظائف بالجيش والبوليس، مجرد متذوقين للأدب لا محترفين له كما فعل هو.

تحطيم الفواصل بين الموت والحياة

● كتبت ذات مرة وقلت إن أثر أبيه عليه فى موته لا يقل عن أثره عليه فى حياته . . فماذا قصدت بذلك؟

■■ علاقة يوسف السباعى بوالده كانت علاقة حميمة جدًا، فقد كان مولعًا به، عاشقًا له، كان السباعى الكبير صديقًا لابنه المراهق أكثر مما كان والدًا له، يأخذ الأمور مأخذًا سهلاً لا يرى فى الحياة ما يستحق المعاناة التى يتكبدها أكثر الناس، بينما كانت والدته على عكس ذلك تميل إلى الشدة والصرامة، وكان محمد السباعى دائمًا يقول لصديقه يوسف: «كفى مذاكرة»، بينما كانت الأم تُجبره

وأخويه ليذاكروا، ويجيء الأب فيجد الباب مغلقًا عليهم فيأتى بالسلم ويصعد عليه وينظر إليهم من الشراعة ويكلمهم ويداعبهم وعندما رسب يوسف فى الامتحان ذات مرة وهى حادثة شهيرة كان يذكرها يوسف السباعى كلما حلت الذكرى أن والده عاد إلى المنزل وسأل عنه ليكافئه ويسرى عنه، وكان أخوه محمود قد نجح ولم يهتم به الوالد، فدهشت الأم لذلك، لكن الأب قال لها إن الناجح تكفيه فرحة النجاح أما الراسب فهو أحق بالعزاء، لهذا فقد كان من الطبيعى أن يكون موت مثل هذا الوالد المرح صدمة عميقة للابن اليافع، لم يرد أن يصدق حدوثها ورغم تجاوز حزنه بعد سنوات، إلا أنه هام بها بإحساسه متصوراً أن الفرقة لم تحدث بعد كما يحدثنا فى قصة «البحث عن جسد» ذلك الولد الذى ظل يتخيل أباه حيًا ولا يراه فى منامه فقط، بل يتمثل له فى يقظته ويحدثه ويسأله أحيانًا عن شئون الدنيا وأحيانًا عن شئون الآخرة، وأعتقد أن استغراقه فى هذا الخيال جعل صور الموت والحساب والجنة تستكين فى أعماقه حتى أوحت إليه شكلاً جديداً فى القصص.

● معنى ذلك أن يوسف السباعى انشغل بسيطرة فكرة الموت المفاجئ والتى عبر عنها بأشكال عديدة محاولاً تحويل هزيمته أمامها إلى انتصار عليها..

■■ هذا صحيح مائة بالمائة، ويظهر بوضوح فى اتجاه الفانتازيا عند يوسف السباعى ويتمثل فى تحطيمه الفواصل بين عالمى الواقع والخيال، كأنه يسمح لأبطاله بحرية الحركة بين الأرض والسماء، كما نجد فى روايتيه البحث عن جسد ونائب عزرائيل، ففى الأولى تخيل الراوية نفسه روحًا صعد بها عزرائيل إلى السماء وقد حدث عجز فى المستجدين بالحياة إذ زاد عدد المواليد المطلوب إنزالهم إلى الأرض عن الأرواح التى تحل فى أجسامهم، فاقترح عزرائيل على روح الكاتب أن تعود إلى الحياة الدنيا فى جسد من أجساد أولئك المستجدين وترددت الروح بين القبول والرفض بينما عزرائيل يغريه بما سيلاقيه من أزهار فى حياته حتى يقبل العودة إلى الحياة، وكان هو يرفض، مؤكدًا على ما لاقاه هو من أشواك فى هذه الحياة.

أما الرواية الثانية فيطلع فيها البطل على كثير من شئون الدار الآخرة ويكتشف

سهولة الموت بل ومتعته فى التحرر من الدار الفانية بل الانطلاق إلى حيث لا يوجد مرض ولا قلق ولا خوف من أى شىء.

وقد عبر عن هذه الفكرة بصور عديدة، فكما أذاب الفواصل بين الأرض والسماء سمح أيضًا بحرية الحركة بين عالمى الواقع والحلم فى رواية أرض النفاق، وبطلها تاجر أخلاق بالجملة والقطاعى، فضلاً عن تحطيم الفواصل بين الماضى والحاضر أيضًا فى مسرحية «أقوى من الزمان»، وذلك عندما ربط الحب بين ابنة فرعون وأحد مهندسى السد العالى، وأخيرًا فى رواية «لست وحدك» حين أذاب أيضًا الفواصل بين عالمى الأرض والفضاء من خلال مركبة فضائية تحمل ستة أشخاص من كوكب الأرض يحدث بهم صراع على السلطة، لقد طوع قالب الفانتازيا وجعل له أكثر من استخدام، ليس فقط مجرد انتصار على فكرة الموت وإنما استخدمه أيضًا كوسيلة للنقد السياسى والاجتماعى على المستويين المحلى والعالمى.

ويضيف: كانت قضية الموت ركنًا أساسيًا فى مضمونه الروائى وقد حاول أن يتغلب عليها بأكثر من وسيلة من أهمها تقبل الظاهرة الطبيعية الحتمية وإزالة مخاوفها، وأن الموت يعتبر مصدر رزق للبعض كما أنه مصدر حزن للبعض الآخر، وأخيرًا تغلب عليها بأسلوبه المرح الساخر، خالقًا بذلك لونًا من التوازن بين قتامة الموت وفكاهة الأسلوب.

الحياة تتراجع والموت يتقدم

● هل ظل متمسكًا بهذه السخرية فى مواجهة الموت أم أن الموت بأحزانه تغلب فى النهاية على الحياة بفكاهتها؟

■■ إذا كانت قصص يوسف السباعى تتميز من ناحية الشكل بطابع الفانتازيا والاتجاه التاريخى والواقعى، فإنها من ناحية المضمون تتميز بوجه اجتماعى وهو النقد على المستويين السياسى والاجتماعى.

وبوجه ميتافيزيقى يتلخص فى ثلاثة أنواع من الجدل، الدعامة الأولى للوجه

الميتافيزيقى هو الجدل بين القدر والإنسان وتقدمه بوضوح فى قصة «فديتك ياليلى» عام ١٩٥٣ ، أما دعامته الثانية فهو هذا الجدل بين الحرية والعبودية فى رواية «نحن لا نزرع الشوك» عام ١٩٦٩ ، وأخيرًا الدعامة الثالثة وهى الأهم فهو الجدل بين الموت والحياة فى أكثر من رواية أهمها «السقامات».

● فى حياة كل قصاص دائمًا ما تعثر على فكرة تلح عليه وتتكرر فى أكثر من عمل أدبى، وعن كاتبنا السباعى كانت فكرة الموت والفجائى منه بوجه خاص ما تركته من أثار عميقة فى نفسيته انعكست بدورها على أدبه، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مهمته الأدبية هى تحويل الهزيمة إلى انتصار بأكثر من طريقة، مرة كما سبق وقلت وصفه بأنه ليس فقط هو الجانب السلبى الذى نعرف غيره، وهو أنه يأخذ أحباءنا بل له جانب إيجابى فهو أيضًا مصدر رزق للحانوتية وصبيانهم فضلاً عن أنه أذاب الفواصل بين العالمين بوضوح فى مسرحية «أم رتيبة» عام ١٩٥١ وذلك عن طريق اتصال الأحياء بعالم الأموات، ومرة ثالثة عن طريق نقده حينما يكتشف الآدميون فى قصة «جهنم» من مجموعة «يا أمة ضحكت» أن جحيم جهنم أهون من جحيم الأرض، ومرة رابعة بالتأكيد على أنها ظاهرة طبيعية وما هى إلا مجرد نومة طويلة بعض الشىء بعدها راحة تامة فلا إزعاج ولا مسئوليات، وأخيرًا المعنى الذى ظل مقتنعًا به وهو أن الموت وإن كان ينتصر على الأفراد واحدًا بعد الآخر أنه لن ينتصر على استمرار الحياة جيلاً بعد الآخر.

ويضيف: وطبعًا من الصعب على أى إنسان أن يظل متمسكًا بطابع الجد والسخرية فى مواجهة من هو أقوى منه، لأنه فى البداية كان شابًا والشاب لا يشعر جيدًا بالموت مثلما يشعر به كبار السن الذين يدركون مدى قربه منهم فى أى لحظة، لذلك تغير أسلوب الكاتب فى مواجهة عدوه اللدود فى العشرين سنة الأخيرة من حياته، فلم يعد يتغلب عليه بالفكاهة والسخرية التى كانت تبدد قتامته ووحشته، وانهزم التوازن الذى كان يقيم الكاتب بين الأسلوب والموضوع أو بين الحياة والموت، وبدا الأسلوب كالموضوع تشيع منه المرارة والأسى، فقد كانت السخرية من الحياة لصالح الموت وليس العكس.

عاشق روح القصة القصيرة

● فى بداية حياة يوسف السباعى الأدبية تنوع إنتاجه ما بين القصة والرواية والمسرحية، وحينما سئل عن أيهم أحب إليه فقال إنه يفضل القصة القصيرة عن الرواية والمسرحية لأنها أسرع فى التأثير وأسهل فى الانتشار.. فكيف تراه أنت؟

■■ بدون شك الأديب فى بداية حياته نجده يطرق أبوابًا عديدة قبل أن يستقر على سبيل محدد أقرب إلى موهبته، وهذا ما حدث للسباعى، جذبته فنون الآداب بفروعها إلى أن استقر على سبيل أقرب إلى طبيعته، لقد كان السباعى غزير العطاء والإنتاج الأدبى أول قصة قصيرة نشرت له كانت بعنوان «فوق الأنواء» وذلك عام ١٩٣٤ وكان عمره لا يتجاوز السادسة عشرة، وهى منشورة فى مجموعته القصصية «أطياف» وظل على هذا الدرب حتى آخر مجموعة قصصية له «ليل ودموع».

بعد مرحلة كتابة القصة القصيرة جاءت مرحلة كتابة الرواية الطويلة، وأولها كانت رواية «نائب عزرائيل» عام ١٩٤٧، ثم تلتها رواية «إنى راحلة»، وأذكر أن إحساس القلق قد انتابه وهو على وشك أن ينتهى منها، لأنه وجد نفسه ـ رغم عشقه للمغامرة ـ يعرض جهوده للاختبار غير المضمون، واستمر يقدم روايات عديدة إلى آخر تجربة «العمر لحظة» ثم جاءت المرحلة الثالثة، المسرحية، والتى بدأها بأم رتيبة عام ١٩٥١، وقد أضاف السباعى إلى جانب هذه القوالب الأدبية الثلاثة المقالات الأدبية والاجتماعية والسياسية التى كان لا ينقطع عن كتابتها إلى جانب كتاب واحد فى أدب الرحلات وهو «طائر بين محيطين»، كما ساهم فى كتابة القصة والسيناريو والحوار لخمسة عشر فيلمًا، بالإضافة إلى عدد من رواياته ومسرحياته التى قدمتها له السينما، وقدم بعضها الإذاعة والتليفزيون.

ويكمل: أما لو أجبتك كيف أراه أنا على وجه الخصوص، فبالطبع أراه أديبًا روائيًا أكثر منه قصاصًا، فهو لم يتميز فى القصة القصيرة كما يتميز فى الرواية باتجاهاتها المختلفة سواء فى اتجاه الفانتازيا كما فى «أرض النفاق» أو الاتجاه الواقعى كما فى «السقامات» و«نحن لا نزرع الشوك»، أو حتى فى الاتجاه التاريخى حيث أرخ تقريبًا لكل الفترة التى عاشت فيها مصر، وحروبها وتطوراتها العسكرية

وعلاقتها بالدول وهزائمها وانتصاراتها ومشاكل أشقائها العرب، أنا بحق آراه أديبًا روائيًا مؤرخًا ساخرًا ناقداً اجتماعيًا.

عناصر الجذب فى أدب السباعى

● بوضوح أسألك.. ما هى عناصر الجذب فى أدب السباعى، هل الشكل الروائى، أم المضمون، أم اللغة، أم البناء؟

■■ إذا نظرنا إلى الشكل الروائى فى أدب يوسف السباعى بوجه عام فإننا نجده يتميز باتجاهين أساسيين. اتجاه الفانتازيا كما سبقت وأشرت، والاتجاه التاريخى، وثمة اتجاه ثالث كان أقل نصيبًا فى إنه كما أن غيره شاركوا فيه بصورة أبرز، لو تحدثنا عن الاتجاه التاريخى فيتمثل فى تلك الروايات التى يتتبع فيها أهم الأحداث التى وقعت منذ عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٧٣، والتى جعلته أبرز كتاب هذا الاتجاه، وقد أعلن السباعى سبب اهتمامه بهذا الاتجاه أنه يرى بصفته العسكرية أنه أقدر الكتاب على تسجيل تلك الفترة بحكم خدمته العسكرية فى الفترة التى وقعت فيها تلك الأحداث، لقد حاول دمج قصته فى قصة الأحداث الدامية التى حدثت فعلاً حتى تبدو القصة كتلة واحدة، ومعنى هذا أنه يجعل القصة الفردية مرتبطة بالأحداث العامة فى نسيج روائى متكامل، والواقع أن هذه السلسلة القصصية التى بدأها برد قلبى ونهاها بالعمر لحظة لم تكن مجرد تتبع محايد بل إن مهمتها الأساسية كانت الكشف عن الجوانب الإيجابية خلال هذا الصراع التاريخى تصل إلى حد استشراف المستقبل بحيث يؤدى فيها الفنان مهمته التنبؤية هذا عن الاتجاه التاريخى.

أما فيما يختص باتجاه الفانتازيا فكما قلت إن استخدامه له جاء ثورة على المألوف والعادى، وواضح أن استخدامه لهذا القالب كان يهدف إلى نقد المذاهب السياسية التى تسيطر على حضارتنا المعاصرة من ناحية، وتخلق مدينة فاضلة من ناحية أخرى، وإن كانت قصصه متميزة من ناحية الشكل بالفانتازيا والاتجاه التاريخى فإنها من ناحية المضمون تتميز بوجه اجتماعى وهو النقد على الصعيدين الدولى

والمحلى يتلخص فى وجود ساسة يتربعون على قمة العالم لا هم لهم إلا إشعال نار الحروب وما تعانيه البشرية نتيجة ذلك، أما بالنسبة للمحلى فيتخلص فى وجود فئة اجتماعية تتربع على القمة وتعانى من الانحلال وكثير من أفراد هذه الطبقة تسلقوا إليها من طريق الدعارة إذا كانت شخصيات نسائية أو عن طريق الرشوة إذا كانت أفراد من عالم الرجال، بينما أفراد الطبقات الشعبية يعانون.

ويضيف: وللغة فى أدب السباعى أكثر من شأن فهى أولاً من عناصر الجذب التى تفسرلنا وجهًا من وجوه الرواج الذى تناله مؤلفاته، والرواج بين الشباب بصفة خاصة، فهى لغة شابة تهمس ولا تصرخ، تأسر ولا تأخذ بالخناق ولا يتميز أسلوب السباعى بصفته الفكاهية والجذب فحسب، بل إنه فى كثير من الأحيان مستمد من أسلوب حياتنا الشعبية، ففى رواية «السقامات» يقول الدكتور محمد مندور: «غير أنه لم يحاول أن يفرض أسلوبه الخاص على أشخاصه البسطاء بل تركهم يتحدثون بلغتهم الخاصة مكتفيًا بأن تأتى طبيعية، حية، شقية، مفصحًا خير إفصاح عن عقليتهم ومشاكلهم ومسراتهم وما يعتزون به من تقاليد، فهو لم يحتشد للغة الاحتشاد الذى يرضيه كقارئ وإنما أطلقها على سجيتها وكأنه يحدث صديقاً لا كلفة بينهما، استطاع أن يتحرر من القيود وانطلق مدفوعًا فى أسلوبه ولغته كما تدفق فى صوره وأفكاره».

معارك القط.. والعالم ومندور النقدية

من أشهر المعارك النقدية التى تعرض لها السباعى كانت على يد محمود أمين العالم وذلك فى قصته ـ نابعة الميضة ـ من مجموعته «يا أمة ضحكت» عام ١٩٤٨ بأنها قصة تصل من التخلخل حد التشتت وانعدام الرابطة، بصراحة هل تطورت أعماله من جهة الأسلوب والتناول والشخصيات بمرور الزمن؟

■■ التطور نوعان. . نوع نابع من تطور المجتمع الذى نعبر عنه، ونوع آخر إنسانى بحكم السن والتجربة والقدرة على رؤية الأشياء بطريقة أدق وأصدق وأقرب إلى الحقيقة، بالنسبة ليوسف السباعى فهو قد تطور بالطبع بتطور الزمن،

ففى البداية كان هناك نوع من التساهل، القصة التى ذكرها الناقد محمود أمين العالم كانت تمتلئ بحشد هائل من التعليقات والأحكام الجانبية التى لا تساعد على تنمية الموضوع الرئيسى للقصة، كما أن زمن القصة لم يكن موحداً، ومع ذلك لو قرأنا آخر ما أنتجه السباعى وقارناه بمحاولته الأولى لاكتشفنا الفارق الكبير، لقد أصبح أهم ما يميز بناءه الروائى هو تماسكه بشكل يكاد يكون هندسيًا، فالشخصيات لا تفترق فى أول العمل الروائى إلا لتلتقى بعد ذلك على مستويات جديدة بعد أن تطور وتقدم الزمن بكل ما فيه، وهكذا تتشابك خيوط الرواية وتتبلور حول الشخصية أو الحدث الرئيسى.

وقد شعر يوسف نفسه بهذا التطور واعترف به وهو يقارن بين رواياته «السقامات» ١٩٥٢، و«نحن لا نزرع الشوك» ١٩٦٨، إذ قال إن السقامات كان بها أحداث وأوصاف قد تبدو زوائد، أما نحن لا نزع الشوك فهى من ناحية الهندسة القصصية أكثر إحكامًا، وليس فيها زيادات مما لا تتطلبه حاجة القصة، فجاء إيقاعها منتظم وأفكار شخصياتها وأحاديثهم واضحة منطقية فى حالة صمود دائم حتى فى أشد الأزمات.

● ولكنه اتهم من قبل بعض النقاد وعلى رأسهم الدكتور عبد القادر القط بأنه صاحب أدب سلبى، وقد أدار السباعى الطاولة وقال على نقد القط إنه نوع من الهجوم المذهبى الذى يجعل تقييم العمل لا صلة له بالإنتاج الفعلى.. فهل كان خلافًا مذهبيًا بالفعل؟.. وكيف تراه أنت من مرآة نقدك؟

■■ أعتقد أن من انتقدوه كانوا يحكمون على عمل مفرد وليس على مجموعة أعمال، فحينما ترين بانوراما أعمال السباعى فستجدين أنها متنوعة، وقد تكون وجهة نظر الدكتور القط ونقده لرواية بين الأطلال صحيحًا ولكنه لا يصح أن نعمم هذا الرأى على بقية الأعمال فمعظم إنتاجه الأدبى إيجابي جداً وما قاله النقاد ليس حكمًا عامًا، بل قد يكون حكمًا يصدق على جزء، وليس الكل أبدًا، وهناك كتاب آخرين احتفوا به، وعلى رأسهم الدكتور غالى شكرى الذى أصدر كتابًا جمع فيه كل المقالات التى كتبت عن السباعى، وبالتالى ترى أن الأغلبية من النقاد كانت تقيمه تقييمًا ليس سيئًا.

● هل جنت عليه مناصبه بحيث خاف النقاد من مدح رواياته حتى لا يكون فى ذلك شائبه نفاق؟

■■ العكس صحيح، لقد كانوا يهاجمونه وهو فى منصبه وهو خارج مناصبه، وأنا شخصيًا ترددت فى أن أكتب عنه لمدة طويلة لكن فى النهاية تساءلت لم يحرم من الكتابة عنه لمجرد أنه فى منصب، ومع ذلك لم أكتب إلا فى آخر علاقتىَ به ليس خوفًا من أن يقال إنى أجامله رغم أنى كنت أتحدث عن الجوانب الإيجابية أيضًا، لأن رأيى باستمرار أن يتحدث الناقد عن الجوانب الإيجابية الموجودة بحيث يدرك الكاتب نفسه وما الجيد الذى أصدره وما الذى يحتاج لإعادة النظر.

عشرون عامًا مع السباعى

● معرفتك به تعود إلى عشرين عامًا. . حدثنى عن بدايتها كيف كانت؟

ـ المعرفة بدأت بندوة لنجيب محفوظ فى الأوبرا فى أواخر الأربعينيات كان هو يجلس ومحفوظ وكان يحضر هذه الجلسات السحار ومحمد عفيفى وأنا وتعرفت عليه من خلالها، وفى ذلك الوقت كان قد بدأ ينشئ المجلس الأعلى وكنت أنا مدرسًا فى وزارة التربية وكمال الدين حسين وزيرًا للتربية، فطلب منه نقل بعض المدرسين منهم فوزى العنتيل وعبد العاطى جلال وأحمد يوسف وصلاح ذو الفقار وأحمد مظهر وأتى أيضًا ببعض المهتمين بالأدب فى وزارات مختلفة فى المجلس، وتعمقت الصلة منذ ذلك التاريخ.

● من الملاحظ أن إنتاجه الأدبى قل بعض الشىء فى السنوات الأخيرة من حياته مقارنة بغزارة الخمسينيات والستينيات، بالطبع يعود ذلك إلى كثرة أعماله والمناصب التى شغلها، ولكن كيف استطاع أن يجمع بين القلم والوظيفة بهذه المهارة الفائقة؟

■■ معظم الأدباء يكتفون من نشاطهم بما يكتبون ويصنفهم التحليل الأدبى فى قائمة الأشخاص الانطوائيين، ولكن هناك قلة تستطيع أن تجمع بين القلم والعمل، فيكونون بفضل هذه الميزة الفريدة جسرًا أو صلة بين رجال الفكر والفن ورجال

الحياة العملية، الجدير بالذكر أن السباعى رغم كثرة انشغالاته فقد جعل شخصه ومنصبه فى خدمة الأدب والأدباء، كان يتمتع بموهبة النظام بحيث جعل وقته يتسع لعدد أكبر من المشاغل ولكن حرمه أيضًا مما يسمى بأوقات الفراغ.

● برحيل يوسف السباعى هل انطفأ شعاع المجالس الثقافية والتجمعات الأدبية التى كان يرأسها؟

■■ قد تكون هذه المؤسسات قد مرت بفترات ركود، ولكن وزير الثقافة الحالى فاروق حسنى استطاع أن يمدها بالعون المادى والأدبى، فقد كانت ميزانيتها بسيطة جدًا ولم تكن تقدر على عمل أى شىء، أما الآن فالميزانية معقولة، والنواحى المعنوية متوفرة بكثرة عن طريق المسابقات.

ذيوع النشر العشوائى

● ذكرت فى أحد كتبك أنك تحلم بتطبيق دراسة إحصائية تحدد العلاقة بين الإنتاج الأدبى والمستهلكين.. بم ستفيدنا هذه الدراسة؟

■■ ستفيدنا فى ألا يكون النشر عشوائيًا أو للمجلات والخواطر فقط، بل ستمنع ما يسمى بطبقة قطاع الطرق فى الحياة الأدبية مما سد الطريق على الجيل الحقيقى من الأدباء، وقطعوا الروابط بينه وبين الجيل السابق، لابد من عمل دراسة لنفض الغبار عن أكوام المخلفات الأدبية، فترتبط بالأصيل منها فهناك كتب تشبه المخدرات، ومن أمثلتها كتب الجنس التى توجه للمراهقين فضلاً عن نوعيات منحطة لا يصلح حتى مجرد الحديث عنها، وانتشرت بصورة غير عادية، أين النقد؟ أين كبَاره؟ أين أساتذته ليوجهوا هذه الطفرة الطفيلية؟ أين الملاحق الأدبية التى تتابعَ وتهاجم وترفض؟ مع الأسف النقد فى بلدنا أصبح غرما لا غنم فيه، أى لا غنيمة فيه.

السقامات

المعلم شوشة الضنك شيخ السقايين.. فى حارة الميضة.

الرجل الذى يحمل الحياة على ظهره ويهاب الموت..

مطلقًا صيحاته كلما اقترب منه..

الموت جبان.. جبان..

فتقوده الأقدار لأن يترك الماء..

الذى منه كل شىء حى..

ويلتصق بالتراب..

الذى يحتفظ برفات الأموات..

السقا مات..

عزت العلايلى أحد أشهر أبطال روايات أديبنا يوسف السباعى الذى حلم بتمثيل شخصية شوشة ، وبكى بكاء شديداً بين صفحات القصة متمنيًا أن يلعب الدور الذى اتحد به اتحاد الروح بالجسد وهو فى سن صغيرة لا يعرف متى . . أين ومتى تزف الأمانى إلى مرادها . . حتى التحق بمسرح التليفزيون عام ١٩٦١ وبدأ بمسرحية «شىء فى صدرى» لإحسان عبد القدوس ومن بعده بدأ الإعداد لقصة الأرض ليقوم بأداء دور الشيخ يوسف الذى أداه المرحوم عبد الرحمن الخميسى فى



الفيلم، ثم يقع اختيار المخرج يوسف شاهين عليه عام ١٩٦٨ ليلعب دور عبد الهادى دون تدخل منه بل توفيقًا من عند الله.

كان لعزت العلايلى أكثر من موعد مع الحياة ففى عام ١٩٧٦ اتصل به المخرج يوسف شاهين «كلاكيت ثانى مرة» عارضًا عليه ذلك المراد الذى تمناه يومًا.. شخصية المعلم شوشة فى رائعة السباعى «السقامات» وعلى الفور أرسل له السيناريو وبدأ فى قراءته من جديد بعد مرور أكثر من خمسة عشر عامًا.. وفى اللحظة التى وصل إلى مونولوج «الموت جبان» جرت الدموع مثلما تدفقت وهو صغير.

ويكمل الفنان عزت العلايلى تفاصيل الحلم أو الحقيقة، فيقول: وحان وقت

تصوير هذا المشهد وأذكر أنى أعدت تصويره ١٨ مرة لأنى لم أكن أستطيع الاحتمال من كثرة البكاء والإرهاق ألغينا التصوير واتفقنا فى النهاية على تصويره بطريقة «بلاى باك»، هذا المونولوج الشجى مأخوذ كما كتبه السباعى دون تغيير أو حذف، كان محسن زايد أمينًا جدًا فى كتابة السيناريو فلم يعدل النص الأصلى أى شىء.

وانتهى تصوير الفيلم على أكمل وجه وجاءت لحظة العرض الخاص فى ستوديو مصر، ومن عادتى أنى لا أحب رؤية نفسى لذا فقد فضلت البقاء خارج قاعة العرض، ولكن يوسف بك ـ رحمه الله ـ طلب منى أن أشاهد الفيلم معه فرضخت لطلبه وجلسنا أنا وهو وصلاح أبو سيف وبعض العاملين، وبعد حوالى نصف ساعة شعرت به يبكى بجوارى منفعلاً بالأحداث، فتعجبت بشدة وسألته عن السر فى جريان هذه الدموع فقال: «ربما تتعجب أنى أبكى من صميم فؤادى على شىء أنا الذى كتبته، ولكنك لا تعلم أن صدقك فى الأداء وانغماسك فى الشخصية أثارا شجونًا قديمة كنت قد نسيتها فأعدتها أنت لى».

ويكمل مع الأسف لم يشاهد يوسف بك الفيلم فى دور السينما لأن الموت كان أسرع، فقد استشهد بعدها بشهرين، وليته قرأ ما كتب عن جوهرته.

نجاح عالمى وسقوط محلى

● يبدو أن معظم إنتاج السباعى القصصى ما هو إلا انعكاس لما ترسب فى أعماقه منذ الطفولة، ورواية «السقامات» تحديدًا هى أكثر رواياته قربًا لأحزانه الكامنة فى خلايا روحه..

فالبطل الحقيقى هنا هو الموت، كيف كان استقبال المتلقين لهذا التناول المباشر الصريح؟

■■ لم يكن استقبالاً جيدًا فى الوقت الذى احتفى به النقاد نكره الجماهير، ورغم ذلك فقد نجح عالميًا فى عدة مهرجانات دولية، وخلت المقاعد فى دور السينما المحلية.

● وكيف كان رد فعلك الشخصى تجاه هذا الاستقبال الفاتر من جهة الجمهور المصرى؟

■■ بالطبع كنت حزينًا للغاية، وشعرت بالظلم فلم أكن أتخيل أن الدور الذى تمنيته وحلمت بأن استمع لتصفيق الجماهير بعد مشاهدته آراه يسقط بهذا الشكل، ولكنى تذكرت رائعة شاهين «باب الحديد» وكيف انفضت المقاعد فى أول أسبوع، وبعد عشرين عامًا يتهافت الناس على رؤيته حين يعرض على شاشات التليفزيون، وبالفعل السقامات، فلم يشعر الجمهور بأهمية الفيلم حين عرض، أما الآن فلا يمكن أن أصف كم الاتصالات والخطابات التى تصلنى حين يعرض الفيلم على الفضائيات.

● هل تحلل لى نظرية الإقبال والنفور عند المتلقى بين الأمس واليوم؟

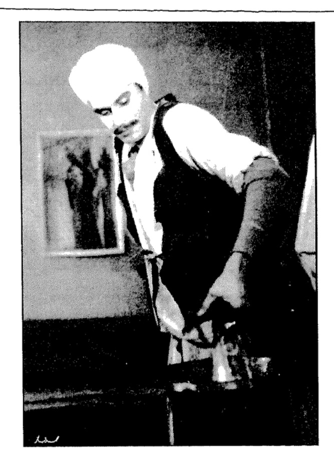
■■ السبب الرئيسى هو موجة الانفتاح فى ذلك الوقت، كان الناس ينقضون على كل ما له علاقة بالانفتاح لذا لم يكن توقيت فيلم «السقامات» موفقًا، بل لقد جاءت التجربة فى غير أوانها، مبكرة بعض الشىء أو بمعنى أدق دخيلة على عصر الانفتاح، فالتركيبة البشرية التى ظهرت فى عصر الانفتاح لم تكن تريد سينما الفلسفة والمواعظ وإنما كانت تريد سينما الاستعراض والغناء، ولا أنكر أنه قد عرض علىّ أن ألعب أدوارا من مثل هذه النوعية التى كانت سائدة فى هذا العصر ولكنى رفضتها عن اقتناع وإيمان، فكيف لى أن أنخرط فى هذا اليم وورائى مكتبة والدى المليئة بعبير كامل الشناوى ولويس عوض وزكى نجيب محمود وطه حسين، أنا لا أستطيع الانفصال عنهم لمجرد التواجد على الساحة الفنية، وقد أثبتت لى التجربة أنى كنت على حق فيما عزمت عليه رغم اعتراض الكثيرين ودهشتهم من موقفى المتصلب والزملاء من حولى ينتشرون ويشتهرون ويعلون وأنا محلك سر، ولكن فى النهاية لا يصح إلا الصحيح، يكفى أن أقول لك إنه فى موسوعة «مائة سنة سينما» لى عشرة أفلام تعتبر من روائع السينما المصرية، وأحمد الله أنى حققت ما حققت وقمت بتجارب لعظماء الأدباء ولم أستسلم للسائد وتمسكت بمبادئى التى نشأت وتربيت عليها إنسانيًا وفنيًا، فأنا من جيل عشق الحكيم، وتناقش مع إدريس، وعزف مع سيد مكاوى، وردد أشعار صلاح چاهين.

تلاقى ثقافى بين العلايلى والسباعى

● بما أنك ذكرت هذا الجيل فلماذا لا نعود سنوات إلى الوراء لتحدثنى عن نقطة التلاقى بينك وبين السباعى وكيف كانت البداية؟

■■ أنا كنت من هواة حضور الندوات الأدبية والجلسات الثقافية، وكان السباعى فى ذلك الوقت رئيس المجلس الأعلى للفنون والآداب بالزمالك، وهذا المجلس كان يضم نخبة من المثقفين والأدباء والسفراء أمثال فوزى العنتيل وفؤاد نجم وغيرهما، وبما أن الثورة وقتها آمنت إيمانًا مطلقًا بأن الفنون والآداب لابد وأن تكون على جبهة عريضة جداً حتى تسمو بهذه الثورة أمام التحولات الاجتماعية فى هذه الفترة، وأنا من جيل الثورة وكان أمامى من يمثلها وهو يوسف السباعى الذى خرج من صفوف الضباط أديبًا وفنانًا وله تاريخ وكتابات قبل وبعد الثورة، فالتصقت به لما لمسته من خصال إنسانية وعلاقات قوية بكبار الأدباء والفنانين من ناحية ومن أخرى شدة إعجابى به كروائى قدير التهمت مؤلفاته من أول نائب عزرائيل إلى العمر لحظة، بهرنى أسلوبه وقدرته فى الجمع بين كل هذه الأقطاب، جيل توفيق الحكيم، وزكى نجيب محمود، ويحيى حقى، ومن بعدهم جيل نجيب محفوظ، وأنيس منصور، وعبد الرحمن الشرقاوى، والحقيقة أنى كنت مهتمًا بهذه الحركة النقدية والفنية التى كان يوسف السباعى أحد فرسانها، وحين التحقت بالمعهد العالى للفنون المسرحية زاد قربى لهؤلاء المثقفين، فكان من محاضرى فى قسم النقد بالمعهد الدكتور لويس عوض والدكتور طه حسين والدكتور محمد مندور، إلى جانب الأديب الشاب يوسف السباعى، الذى كنت أنظر إليه نظرة انبهار بما حققه من قيمة أدبية وشهرة وهو فى سن صغيرة، ومرت الأيام وجاءت المرحلة التى توجت أعماله وإنجازاته فصار وزيراً للثقافة، وكنت من أول المهنئين والمرحبين به، خاصة وأنه جاء بعد مرحلة غنية كان قائدها الدكتور ثروت عكاشة، ومعنى ذلك مواصلة ذلك البناء الحضارى الذى خطط له عكاشة ونفذه السباعى.

هؤلاء العظماء لم نجد أمثالهم مرة أخرى فيوسف السباعى وجد فى عصر التحولات وكان إفرازاً للعصر القادم من موروث قديم وليس من فراغ، كلنا يذكر



رموز التنوير رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده وزكى مبارك وعبد الله النديم وجمال الدين الأفغانى ثم مرحلة طه حسين والعقاد ولطفى السيد والمازنى إلى أن وصلنا إلى رموزنا الحاليين، طبعًا إلى جانب أهل الفن سيد درويش وأم كلثوم وعبد الحليم وعبدالوهاب وغيرهم. ويوسف السباعى يقف فى صف هؤلاء العظماء، فلقد قدم قيمة كما قدموا القيمة، وأنا كنت من بين هؤلاء الذين أدركوا هذه القيمة وقدموها فى أعمال شرفت بنفسى بعملين أولهما «السقامات» بكل عظمة فترة العشرينيات التى كتب عنها، خاصة أنه من مواليد سنة ١٩١٨، وعاش هو هذه الفترة بكل معالمها، كما أخذ من عمه طه السباعى الكثير من التفاصيل، أما ثانى تجربة فكانت «العمر لحظة» على المسرح قبل تقديمها سينمائيًا.

روائى الثورة والنصر

● يبدو لى أن الأدب هو أحد مصادر السباعى التى يرصدها لتفهم حقيقة الأوضاع فى مصر ، فقد آل على نفسه أن يحقق مهمة متعددة النتائج بعيدة عن ذلك الفن السطحى أحادى النتيجة باهت الأثر . . ومن بين هذه المهام كان التأريخ لثورة يوليو والتنبؤ بنصر أكتوبر ؟ !

■■ ويعلق عزت العلايلى قائلاً : لم يكن السباعى مؤرخًا فقط بل مفكرًا له نزعة فلسفية ، فهو كان يلمس ما يضطرم به باطن المجتمع المصرى وهذا ما جعله يستشرف مرحلة الغليان قبل حدوثها ، وسلسلة الروايات هذه هى التى جعلت منه زعيم ما يسمى بالاتجاه التاريخى ، والتى ظن البعض أنها مجرد تتبع لأحداث الثورة ، وتقديمها فى شكل قصص ، غير أن النظرة الأعمق كشفت أن الهدف منها ليس مجرد التقديم بل عرض الجوانب الإيجابية من خلال هذه السلسلة من الصراع التاريخى للشعب فى مواجهة الحكم المنحرف والملكية الفاسدة ، و«رد قلبى» كان له دلالة مزدوجة ، دلالة عاطفية وأخرى قومية ووطنية .

ويكمل : وهو أيضًا الذى تنبأ بانفصال مصر وسوريا قبل حدوثه بالفعل ، وذلك فى رواية «ليل له آخر» عام ١٩٦٣ ، كذلك تنبأ بعودة العلاقات مرة أخرى فى «جفت الدموع» ، والمنهج الروائى فى رواية «العمر لحظة» هو المنهج نفسه الذى أعلن عنه فى مقدمة رواية «رد قلبى» ، فأحداث الرواية تقع فى أواخر عام ١٩٦٩ وأوائل ١٩٧٠ ، وهى الفترة المعروفة باسم حرب الاستنزاف ، لقد تناول خلال الأحداث لحظات مضت كما تنبأ بنصر أكتوبر قبل حدوثه بالفعل ، إذ نشرت الرواية كاملة فى مجلة المصور فى مارس وحتى يونيو عام ١٩٧٢ .

● هل اختلفت رواية العمر لحظة حين قدمت على خشبة المسرح عما قدم سينمائيًا؟

■■ لقد عرضت على خشبة المسرح قبل تحويلها إلى فيلم سينمائى ، أى أن المسرح سبق دور العرض بسنوات ، وأذكر أن الفرصة جاءتنى على طبق من ذهب ، فبعد حرب أكتوبر كان هناك اتفاقًا فنيًا بيننا على أن نقدم نتاج هذه الحرب ، ومن

ضمن هذا الإنتاج قصة «العمر لحظة» التى كتبها السباعى عن حرب الاستنزاف، وقتها كنت أستعد لدور فى مسرحية «تمر حنة» حيث كنت قد اتفقت مع صديقى بليغ حمدى على تقديمها، واقترح أن تشاركنى البطولة فيها وردة التى كانت وقتها فى قمة شهرتها، وبالطبع كانت فرصة رائعة لا تعوض، ولكن خلال الاستعداد للرواية اتصل بى سيد بدير وكان وقتها رئيسًا لهيئة المسرح والموسيقى وأستاذى وأبى الروحى وعرض علىّ مسرحية «العمر لحظة»، بعد أن أعدها سعد الدين وهبة فوجدت نفسى أعتذر لبليغ رغم الإغراءات الكثيرة وقبلت الدور الآخر من فرط إعجابى بيوسف السباعى وكتاباته.

وشاركتنى البطولة سميحة أيوب وصلاح السعدنى، وأذكر حادثا طريفا حدث فى ليلة الافتتاح والذى كان على خشبة مسرح الجمهورية، فقد كان الجمهور يملأ الصالة ولم تكن خشبة المسرح تبعد أكثر من نصف متر عن مقاعد المتفرجين، وكان هناك مشهد أؤديه أنا وصلاح السعدنى وكأننا نصيد السمك من قناة السويس، فكنا نجلس على المسرح وتكاد أرجلنا تلامس المتفرجين، وفى هذا المشهد من المفترض أن نتعرض لهجوم نارى من العدو وتصور معركة شدوان بطريقة واقعية، وبالفعل أظلم المسرح وبقى ضوء بسيط وفجأة ضغط المخرج على زر المفرقعات فى الكواليس فأحدث ضجيجًا، وفوجئت بالمتفرجين يصرخون ويغادرون صالة العرض، فلم أتمالك نفسى أنا والسعدنى من الضحك ولكنى حاولت مع ذلك استجماع نفسى وطلبت إنارة الأنوار وإنزال الستار، وبعد ذلك اتفقنا مع المخرج على استبدال المفرقعات الحقيقية بأصوات فقط حتى لا يفزع الجمهور.

فلسفة نائب عزرائيل

● ما هى الرواية التى قرأتها للسباعى وتمنيت أن تقدمها دراميًا ولم يسعفك الحظ؟

■■ رواية «نائب عزرائيل» فلقد أعجبتنى فلسفة يوسف السباعى فيها حين دارت حول خطأ حدث للراوى جعله ينتقل إلى دار الآخرة بسبب تشابه اسمه مع اسم

الشخص الذى كان من المفترض أن يموت بدلاً منه، وبعد أن يطلع البطل على كثير من شئون الدار الآخرة فيرى عزرائيل أنه أصبح خطراً ولا يمكن إعادته للحياة فيتفق معه على أن يقوم نيابة عنه ببعض مهامه فى قبض الأرواح، ولكن البطل يخالف تعليمات عزرائيل ولا يتقيد بقائمة الأسماء والعناوين المعطاه له فيضبطه عزرائيل متلبسًا بمخالفة أوامره، ويقرر إعادة روحه إلى جسده فى القبر، ولكنه يصاب بالفزع لأنه سيعود إلى حالة الأسر وتنتهى القصة بصعوده إلى السماء مرة أخرى، وهنا يؤكد أنه لا أحد يستطيع القيام بدور إنسان آخر خلقه الله من أجله، فكل إنسان خلقه الله مؤهلاً لعمله وأعطيت له الموهبة لأداء هذا العمل، وهى رواية مليئة بالفلسفة والسخرية والرموز والحب والحكم والمواعظ.

● الرمز عند يوسف السباعى.. هل كان له حيز كبير؟ ألم يخش من وضع فلسفته الشخصية داخل إطار من الإبهام؟

■■ الحق يقال، كان يوسف السباعى عميقًا جداً وبسيطًا جداً فى نفس الوقت، أى «السهل الممتنع»، وكان عنده الإنسان هو أهم شىء، كان محور الحركة هو الذى يحمل الخير والشر داخله، الطموح والجموح، الأمل واليأس، إنسان واحد فقط قد يغير مجرى التاريخ مثل هتلر وستالين وغيرهما من الكثيرين الذين طوعوا الخير بداخلهم أو الشر، ولم يلجأ السباعى لنظرية الرموز إلا من باب الهروب من المباشرة التقليدية العقيمة، ومع ذلك ورغم فلسفته العميقة الدقيقة كان شديد الوضوح والتلقائية ولكن فى ثوب فلسفى مهندم.

نظرية العودة للتراث

● أمام هذا الحشد الهائل من الأعمال العصرية ذات القيمة والمفهوم المحدود، هل يمكننا العودة للخلف.. للتراث لإحياء بعض الكنوز الأدبية تمهيداً لتقديمها دراميًا إنقاذاً لما هو سائد الآن من هم وليس فنا؟

■■ لا أظن فكل مرحلة ولها إنتاجها وإفرازها، فمثلاً الأدب السينمائى المصرى حتى أوائل الستينيات باستثناء رواية «زينب» للدكتور هيكل والنائب العام التى كتبها

أحمد كامل مرسى كان إنتاج السينما المصرية كله مقتبس عن السينما الأمريكية ولم يكن يحكى شيئا عن الشرق، فلما بدأ الأدب المصرى الحقيقى يدخل من خلال الفلسفة عن طريق نجيب محفوظ وزكى نجيب محمود بدأ يظهر إنتاجنا الدرامى من خلال هذه الفلسفة طورت المحال والبيوت والشوارع والأشخاص والتربية والأخلاق وأشياء كثيرة، فالفلسفة أساسًا يتولد عنها الفكر والمفكرون هم الذين فسروا الفلسفة والأدب يؤخذ عنه الدراما هى حلقة لا غنى عنها، لو تحدثنا عن العصر الحالى سنجد أن الفلاسفة قلوا وبالتالى الأدب قل والفكر قل وعليه انحصرت الدراما فى تلك النوعية التى تتحدثين عنها، وعادت عجلة المستوردين من السينما الأمريكية ونحن الآن وفى ظل هذا العصر لا نستطيع أن نأتى بفكر زكى نجيب محمود وفلسفته ونقدم منها دراما فلن يتقبلها أحد، لا يمكن أن نعيد رواية مثل «تحت ظلال الزيزفون» للمنفلوطى، أو نعيد إنتاج رواية «زينب» بصورة عصرية بعد أن انتهى عصر الرومانسية، فإعادة التقديم يحتاج لفلاسفة يعيدون صياغة المجتمع الجديد والفكر المعاصر.

ويضيف: مع الأسف نحن أضعنا موروث أجدادنا، لقد ترك لنا الأجداد دستورًا استفاد منه العالم كله، أما نحن فاستفدنا منه قليلاً ثم نسيناه الآن، الثورة حين جاءت شجعت الفن والأدب وعملت على إرساء القيم وأتت بيوسف السباعى لإيمان عبدالناصر بأهمية الأدب، وأتت بأم كلثوم لإيمانه بأهمية الفن، هذا جيل الثورة الذى لا نزال نعيش على أمجاده حتى الآن.

العمــر لحظــة

هنا.. على جبهة القتال..

لا يبقى أمامنا سوى إشارة..

ونتحرك لنؤدى واجبنا..

لا يبقى لدينا ما نقدمه..

سوى أرواحنا..

وهى لا تشغل من فكرنا الكثير..

فمصيرنا يحدده مسار طلقة أو شظية..

يحولها القدر أنملة.. يمنى أو يسرى..

لتخطف الروح.. أو تبقيها..

ويصبح عمرنا لحظة..

وهى أوج العمر.. أو نهايته..

«العمر لحظة» ١٩٧٣

مونولوج . . جاء على لسان المقدم محمود عبد الله بطل رواية «العمر لحظة»

وهو يودع حبيبته «نعمت» الفنانة ماجدة، الصحفية بجريدة «الخبر» قبل ساعات من العملية الفدائية التى كلف بها وجنوده، تلك اللحظة التى تفصل بين الحياة والموت . . بين الانتصار والهزيمة.

وبعد فشل العملية واستشهاد أكفأ الضباط، يدور النقاش بين نعمت ومحمود عن أسباب نكسة عام ١٩٦٧، وهل ممكن أن يحدث ما حدث ثانية، فيستشرف السباعى المستقبل على لسان محمود حين يرد عليها قائلاً: «لا أظن ليس هناك بالطبع من يستطيع أن يضمن نتيجة عمله مائة بالمائة، كل عمل معرض للنجاح أو الفشل، ولكن الفشل شىء والضياع شىء، الفشل يجب أن يكون داخلاً فى الحسبان، محسوبًا ضمن النتائج المتوقعة، ومردودًا عليه بحسابات الخطة الأشمل، وإذا لم نفعل فخير لنا ألا نتحرك، ومع ذلك أشعر أننا قادرون على فرض إرادتنا على العدو بما يسمونه الطرقات المتواصلة، فشعبنا يحتمل كل ما هو حتمى، لكنه يسخر من كل ما لا مبرر له، يجب أن نحول المعركة إلى معركة نفس طويل، حتى يأتى ما يسمى بالعبور العظيم».

هنا نرى أن السباعى استطاع بمهارة أن يربط بين جبهة القتال والجبهة الداخلية، معنى هذا أنه جعل القصة الفردية مرتبطة بالأحداث العامة، ليصبح للرواية مستويان خاص وعام، ولكنهما يتشابكان ويلتحمان بحيث يبدوان فى النهاية نسيجًا روائيًا متكاملاً.

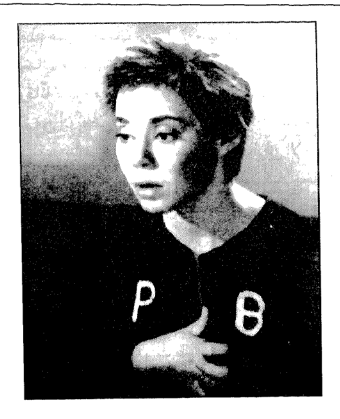
كان السباعى دائم الحرص على الانتقال من التعميم إلى التخصيص ومن التخصيص إلى التعميم، بمنتهى الرشاقة، وتضيف الفنانة ماجدة باعتبارها إحدى أهم بطلات رواياته، وإن كان يوسف السباعى قد ظفر بمشاركة أهم بطلات سينما الخمسينيات والستينيات مثل فاتن حمامة وشادية ومريم فخر الدين ومديحة يسرى ونادية لطفى وسعاد حسنى ولبنى عبد العزيز، إلا أنه كان سعيدًا كل السعادة بمشاركة الفنانة ماجدة فى «العمر لحظة».

تقول الفنانة ماجدة: «يوسف السباعى لم يكن غريبًا عن السينما فقد اشتغل بالنقد السينمائى وكان زميلاً لمعظم محررى الصحافة السينمائية وأذكر منهم الأستاذ

جليل البندارى وإمام عمر وعثمان العنتبلى ومنير فريد وثروت فهمى، ثم اشتغل بكتابة القصة السينمائية وشارك فى عمل السيناريو والحوار لأكثر من عشرين فيلمًا روائيًا، وقضى أوقاتًا كثيرة فى الاستديوهات مع الفنانين والمخرجين والمصورين والعمال، وبالرغم من أن بعض العسكريين تركوا القوات المسلحة المصرية وعملوا فى السينما فى مختلف عناصرها مثل عز الدين ذو الفقار فى الإخراج وأحمد مظهر وصلاح ذو الفقار فى التمثيل إلا أن موضع التأليف كان يخلو من هذه الهوية العسكرية، حتى ظهر اسم الأديب القاص الضابط يوسف السباعى وعرف الطريق إلى الاشتغال بها، وأذكر جيدًا أن المخرج حسن الإمام عرض عليه يومًا بطولة الفتى الأول الوسيم فى أحد الأفلام فرفض كاتبنا مكتفيًا مقتنعًا بطريق الأدب، فهو يعد من أكثر روائيينا الكبار تعاملاً مع السينما سواء بقصصه المعروفة التى أعدت للشاشة الكبيرة أو بمشاركته فى كتابة القصة السينمائية أو السيناريو أو الحوار، ومن الصنف الأول رواياته «آثار على الرمال، فديتك ياليلى، أرض النفاق، بين الأطلال، رد قلبى، نادية، جفت الدموع، العمر لحظة»، ومن الصنف الثانى أفلام «شباب امرأة، وإسلاماه، جميلة بوحريد، بقايا عذراء، الليلة الأخيرة، الناصر صلاح الدين، حياة بلا ثمن، بهية، غرام الأسياد، امرأة بلا قلب»، وغيرها. ولم تكن أيضًا صلته مقصورة على إسهامه فى أعمالها بل تعدتها إلى الكتابة عنها ومناقشة مشاكلها ونقد أفلامها، فهو من أكثر الكتاب، الصحفيين تناولاً للسينما واهتماماتها فى مقالاته أو يومياته التى بدأ نشرها فى جريدة الجمهورية يوم الإثنين من كل أسبوع فى أوائل عام ١٩٥٦».

«جميلة بوحريد»

● «جميلة بوحريد» و«العمر لحظة» تجربتان روائيتان من أهم علامات السينما المصرية والعربية، الأولى تحكى عن كفاح ثورة الجزائر فى شخصية المناضلة الجزائرية «جميلة بوحريد»، والثانية تحكى عن نضال الشعب المصرى أمام العدو الآثم فى شخص الصحفية الوطنية «نعمت عبد الهادى».. ما الفرق بين التجربتين وبينهما فارق زمنى..



■■ لقد عشت رواية جميلة بوحريد فى الجرائد ومع الأحداث العالمية وعاصرتها حينما كان لها ضجة عن طريق الصليب الأحمر ، وكانوا يطالبون بإنقاذ جميلة المناضلة ، فهزتنى الصحافة والرأى العام ، ومصير الفتاة الصغيرة التى ضحت بحياتها وشبابها من أجل بلادها وأعطت كل ما تملك من صحة وشباب وحياة وروح لإنقاذ وطنها .

حقيقة انفعلت بهذه الشخصية ، وكان أول تفكير طرأ علىّ هو تحويل القصة الحقيقية إلى فيلم عن طريق الاستعانة بالأستاذ الصحفى محمد جلال وقد أكد لى وقتها أنه جمع كل ما كتب عنها ، ولكن بكل أسف لم يتم الموضوع فاتصلت بالأديب يوسف السباعى بعدما قرأت كل ما كتبه عنها والوقائع التى نقلها من خلال مشاهداته للأحداث وأخبرته إنى أرغب فى تقديم صورتها للعالم فتحمس للفكرة وتعاون كل من الأستاذ نجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوى وعلى الزرقانى مع

الأستاذ السباعى لجمع كل ما كتب من أخبار ومعلومات تفيد السياق الدرامى، وقام كل من الأستاذ الشرقاوى والزرقانى بكتابة السيناريو والحوار وكلما كان أديبنا يكتب جزءاً كنا نجتمع جميعًا لمناقشته لإضافة جزء أو حذف آخر أو تعديل فقرة وهكذا، ولا أنكر أن العمل قد مر بأحداث صعبة جدًا، فكان لابد أن ألجأ للجنة العليا بالجزائر وكان وقتها وزير الشئون العربية فتحى بك الديب موجوداً بمصر ورغم أن مصر كانت بحق تساعد الجزائر بكل قوتها وتمدها بكل المعونات إلا أن الجو العام كان غير مستقر ومع ذلك تحملت وبدأت ألجأ للجنة العليا كل فترة لأحصل على المادة العلمية المطلوبة لتتطابق الأحداث الدرامية مع الوقائع الحقيقية.

وبالفعل تم جمع كل المادة المطلوبة من خلال القنوات المسئولة عن حرب الجزائر وذهبت لجنة إنتاجية تابعة له لتصوير أحداثها فى أوج الحرب وتم تصوير أحياء كاملة بالجزائر، إضافة إلى تصوير عدد كبير من المكافحين والثوار الذين قاموا بهذه الثورة إلى جانب الحوارى الضيقة والمرتفعات والمنخفضات وآثار الجهاد ولصعوبة تصوير المشاهد على أرض المعركة تم بناء ديكورات تمثل كل هذه المناطق فى استديو مصر على فدانين كاملين مطابقين للمادة الفيلمية التى حصلنا عليها وبعدها جاءت مرحلة التنفيذ فاتفقت مع عز الدين ذو الفقار الذى سَعد فى البداية ثم بدأ يغير فى بعض الأحداث فرفضت ما قام به وقلت إن الأحداث بقلم كبار المفكرين والكتاب الذين لهم وزن أدبى وقيمة فنية رفيعة ولا يصح أن نحذف شيئًا منها دون الرجوع إليهم فأصر عز الدين على رؤيته كمخرج وأصريت أنا على تشبثى بالواقع كما هو وعليه توقف العمل.

وتضيف: ومن جديد اتصلت بيوسف شاهين وكنت أبكى بشدة وعرضت عليه إخراج الفيلم وطبعًا اختلفت معه فى بعض الأشياء لكن الفيلم سار بشكله الصحيح كما سطر وقائعه كبار المؤلفين، والحمد لله خرج الفيلم بأفضل شكل ممكن رغم العوائق التى وقفت أمام تنفيذه، إلا أنه أحدث ضجة إعلامية وفنية كبيرة وكانت المظاهرات تخرج عقب كل عرض مباشرة إلى الساحات والميادين وذلك من فرط الواقعية، كما كُرم الفيلم وتمت إذاعته فى كل من الاتحاد السوفييتى والهند والصين لمدة ١٨ سنة، إلى جانب أنه فتح أسواقًا أمام الفيلم المصرى.

نعمت عبد الهادى

● ماذا عن تجربة «العمر لحظة» وقد عرضت من قبل مسرحيًا؟

■■ الفيلم بدأت تفاصيله من عام النكسة، مروراً بحرب الاستنزاف والصمود ثم عودة الكرامة بالنصر، كانت هذه المرحلة هى مرحلة كبت، وذل، ومهانة للشعب المصرى، والأمة العربية كلها وقد برع السباعى فى تدفق الأحداث حتى وصلت إلى عام ١٩٧٣ وقام هو بتعرية المجتمع المصرى بجرأة من خلال شخصية الصحفية الوطنية «نعمت عبد الهادى» التى كشفت كل الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية التى مرت على الوطن إضافة إلى كل المراحل التى مرت بها الصحافة، كان دور الصحفية إيجابيًا وممتداً، تطرقت من خلال عملها لآفات الجبهة الداخلية وأوجاع جبهة القتال بمنتهى المصداقية، الحقيقة كل العناصر تكاتفت من أجل إنجاح هذا العمل والذى يعتبر أفضل فيلم وطنى تعرض لهذه المرحلة بمنتهى الواقعية والوضوح، المسألة لم تكن مجرد حرب بين جنودنا وجبهة العدو إنما جاءت على شكل ضفيرة ملتصقة تربط بين أحداث اجتماعية متشابكة مع أحداث سياسية لنفس ذات الأفراد، لقد ظل هذا الفيلم يعرض لمدة ستة أشهر فى سينما ديانا وكان الجمهور كل ليلة عرض يخرج من الصالة وعيونه مليئة بالدموع وقلبه ملىء بالفخر والعزة.

المناضلة ماجدة

● ماجدة بطلة فيلم «المراهقات» و«أين عقلى» و«بنات اليوم» لماذا لم يستثمر كاتبنا السباعى الصبغة الرومانسية التى اشتهرت بها فى بداياتك؟

■■ الحقيقة أنا قمت بأعمال وأدوار رومانسية كثيرة جداً، كل أدوارى تقريبًا كان بها النزعة الرومانسية، ولكن أنا نفسى نشأت فى جو أسرى وطنى ولمن لا يعرف أنا حفيدة عبد الرحمن باشا الصباحى الذى كان رئيس مجلس شئون القانونيين قبل أن يكون هناك مجلس شورى، وقد سجن جدى الكبير محمد باشا الصباحى ونفى مع الخديو فى مالطا، لذلك من داخلى أحب السياسة ولا أفصل نفسى أبداً عن سياسة

مصر وحب مصر وأرض مصر، ودون أن أشعر أجد نفسي دائمًا أتابع كل جديد سياسي، لذلك أحببت القالب الذي وضعني فيه يوسف السباعي لأنه حقيقتي، أما ماجدة «المراهقات» و«بنات اليوم» وغيرها، هذه مرحلة خضعت لها وأنا صغيرة، ولكن حينما نضجت أصبحت أبحث عن القصص التي تحكي عن واقع مجتمعنا، لقد شعرت بأنه يجب عليَّ أن أقدم شيئًا لبلدي من خلال الفن والحمد لله وفقني الله وقدمت تجارب أعتز بها حقًا، حتى أفلامي الرومانسية التي قدمتها كان لها أيضًا بعدًا اجتماعيًا.

يوسف السباعي عن قرب

● جمعتك بيوسف السباعي علاقة فنية وصداقة روحية حدثيني عنهما؟

■■ هذا صحيح.. لقد اقتربت من يوسف السباعي الرجل الرائع المحب للناس الذي تجدين بابه مفتوحًا دائمًا ليس للفنانين فقط بل لكل مواطن له شكوى أو كلمة أو رأي، لم يغلق بابه أبدًا في وجه أي شخص وكان مختلفًا تمامًا عن كثير من الوزراء، كان إنسانًا بمعنى الكلمة، رجل رائع الأخلاق، يندر وجوده، أي شخص اقترب من يوسف بك أحبه وصادقه لأنه كان دائمًا يشعر من حوله أنه قريب منهم، ولا أنسى أن نصحني قبل فيلم «العمر لحظة» وقال إنه فيلم يحتاج لمؤسسات وليس لماجدة الرقيقة لإنتاجه، وأكد لي أن ميزانيته قد تحملني فوق طاقتي، ولكن ناقشته وأقنعته برأيي وكنت دائمًا متحمسة لأي عمل يكتبه وعلى الفور أقوم بإنتاجه وأنا مغمضة العينين مهما كانت تكلفته، فقد أنتجت «جميلة بوحريد» و«العمر لحظة» وقصة «العائدون»، ولم يشغل بالي ما الذي سوف أتكبده، فقد كان يعنيني تقديم عمل بإمضاء يوسف السباعي.

● هل كان من النوع الذي يتدخل في قلب العمل بالحذف أو الإضافة أو الاعتراض على أي تفصيلة درامية سواء كانت أداء بعض العاملين أو اختيار بعض الأماكن؟

■■ بالعكس كان شديد المرونة والبساطة وثقته في من يتعامل معه ثقة ليست لها

حدود، ونحن أيضًا كنا ملتزمين جدًا بالنص الأصلى، وقد رأى السباعى فيلم «جميلة» وسعد به سعادة لا توصف، ولكن للأسف لم يمهله العمر لمشاهدة فيلم «العمر لحظة»، وأذكر أنى تعبت جدًا وقتها حين سمعت نبأ استشهاده، ولجأت للوزير السابق عبد الحميد رضوان الذى ساندنى بعرض الفيلم فى سينما ديانا.

ماذا لو لم يمت؟

● لو قدر ليوسف السباعى أن يعيش فى زمننا، فى اعتقادك فى أى اتجاه كان سيطلق عنانه الروائى؟

■■ أعتقد أنه كان سيتحدث عن قضايانا السياسية فى مصر والوطن العربى الحاصلة الآن، فهو لم ينفصل عنها منذ مولده وحتى مماته، فقد كانت له مصداقية كأديب ومفكر سياسى واجتماعى، وكان قلمه واضحًا وضوح شمس استوائية جريئًا مقتحمًا فى آرائه وأفعاله.

● وما الموضوع الذى كنت ستلجئين إليه لكتابته وتحويله إلى فيلم؟

■■ سأقول لك سرًا لم أذعه من قبل، فلقد كنت أتمنى أن يكون يوسف السباعى موجودًا لكتابة قَصة «أولادنا على الأرض» وعن الطفولة العربية وعن الطفولة العالمية، فأنا أتمنى أن أقوم بعمل هذه القصة، وحاليًا نقوم بالفعل بتجهيزها وهى تحكى عن مُدَرِسة تقوم برحلة ترفيهية لأطفال وتصمم على أن تأخذ طفلاً من كل بلد، ومن خلال ذلك تقوم بجولة فى البلاد لتنمى صداقة الطفل مع شقيقه العربى، ثم تتطرق الجولة إلى البلاد الأوربية فتنشأ صداقة بين أطفال العرب وأطفال أوروبا وتنتهى الرحلة بالذهاب إلى البيت الأبيض لينشد الأطفال نشيدًا يجمع طفولة العالم أمام البيت الأبيض فيخرج لهم الرئيس الأمريكى وهم ينادونه بأنهم يريدون العيش فى سلام وأمان وحب، وهو نشيد يجمع طفولة العالم، وكنت أتمنى أن يكتب لى يوسف السباعى هذه القصة، فهل سأجد بديلاً له؟ . . لا أعتقد.

وجـــه

الكاتب

الصحفى

صحفى من باب الأدب

قالوا عن فكره إنه مرحلة غنية فى حياة الإنسان..

نتفتح على خلجاتها تنبض قلوبنا بعشقها..

تسحرنا كلماتها..

تداعبنا فى أحلامها..

فهو لهفة القلب..

امتزاج الروح..

تحقيق المستحيل..

تناجينا صفحاته فنستسلم لسطوته..

أنَصف السنوات التى مرت على غيابه عن ساحة الفكر والأدب بالعجاف؟! أعتقدَ أنه لا يصح، فالدنيا لا تتوقف لأن فرداً مهمًا كان دوره قد رحل ولكنى أستطيع أن أجزم أنها افتقدت من بعده روح المبادرة، واكتفت بأن تدافع عن حدودها المحاصرة.

كانت الأيام عندما كان بيننا فى حالة احتدام على الدوام، وقد كان دءوبًا وحريصًا على أن يكون للأديب دوره لا لمجرد العطاء الموهوب بل لتأكيد حقه فى أن يكون هذا الدور قياديًا وفعالاً فى حركة المجتمع وقضايا الوطن وهمومه.

كان مخزون مصريته وخصائص ليبراليته يجعلان الساعة الثقافية دومًا فى حالة انفراج لا يعريها الانكماش مهماكانت الظروف صعبة وخطيرة، كانت مظلته تحتمل الأحياء والخصوم من كل الفصائل ليظل هو دائمًا القلب المفتوح والفكر الحر والفارس النبيل.

ذلك الذى عاش عمرًا حافلاً متعدد الجوانب خاض فيه معارك شتى ثقافية وأدبية وسياسية، ولا ننسى أنه أمضى نصف قرن فى بلاط صاحبة الجلالة، وكان واحدًا ممن أبدعوا فى تصوير ما يدور فى بلاطها، إلا أنه دخل هذا من باب الأدب وبالتالى حقق نوعًامن التناغم بينه وبين قرائه، فمسرحية «وراء الستار» يدخل بها السباعى إلى أعماق عالم الصحافة بقلب جرئ وفكر جاد وعين ناقدة ليطرح ما يدور فى كواليسها من مؤامرات وصفقات ذلك عام ١٩٥٢ أى قبل عمله الفعلى بها، لقد تمكن من اقتحام الأبواب الخلفية بمنتهى الحنكة وكشف الستار عن كل ما هو فاسد وملتو وضال، لقد استطاع من خلال مشاهد سريعة متعاقبة أن يقدم لنا بانوراما لأحوال المطبخ السرى للصحافة، موضحًا إلى جانب ذلك الحياة الحزبية فى مصر قبيل ثورة عام ١٩٥٢.

ومثلما كانت أفكاره مباشرة وصريحة فى أعماله كانت مقالاته الصحفية والتى بدأها فى جريدة «الجمهورية» أكثر مباشرة وصراحة وغضب من أولئك الصحفيين «المتلونين»، كما أطلق عليهم، أى الذين لا مبدأ لهم ولا ملة، يشتمون بلسان ويلحسون الأحذية بلسان آخر، وبالسخرية القدر التى جعلت هذا الأديب الذى هاجم بكل ما أوتى من قوة عالم السيرك الشهير بعالم الصحافة بألعابه ثقيلة الدم والخطرة فى أحيان أخرى يأتى على رأس قائمة التعيينات بعدما طبقت التنظيمات الصحفية الجديدة ليكلف برئاسة مجلس إدارة دار روزاليوسف الصحفية عام ١٩٦١.

الأولة.. روزا

● وأسأل الكاتب الصحفى صبرى موسى أحد الذين عاصروا مرحلة السباعى الصحفية والتى امتدت لمدة ست سنوات متواصلة من عام ١٩٦١ وحتى أوائل عام

١٩٦٧ على أى أساس تم اختياره للقيادة الصحفية بروز اليوسف وهو القصاص الروائى الحر؟

■■ يقول صبرى موسى : الكاتب القصصى فى أى مجلة من المجلات دائمًا يكون على اتصال بالمجال الصحفى ، فقد كان ليوسف بك خبرة بهذا المجال قبل وبعد الثورة ، كان يكتب وهو مدرس فى سلاح الفرسان ، وأذكر أنى كنت أرسل إليه خطابات رداً على مقالاته الصحفية ، وكان يرد عليها بمنتهى التواضع رغم اختلاف آرائنا ، وظلت علاقتنا كتابية إلى أن قابلته حين كان يعمل مديراً للمتحف الحربى ، وكان الفنان أحمد مظهر مديراً لمكتبه وقتها ومن يومها نشأت علاقة حميمة كان يسودها الود والاحترام والتقدير ، وحينما فكرت فى العمل بالصحافة كانت الثورة وقتها قد أنشأت دار التحرير وجريدة الجمهورية ، وكان هو من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة إلى جانب أنه كان يصدر مجلة «الرسالة الجديدة» التى كانت تصدر قديمًا باسم «الرسالة» ، وقد قوبلت هذه المطبوعة بترحيب كبير من الوسط الثقافى حيث إنها جمعت عدداً كبيراً من ألمع الكتاب ومن بينهم نجيب محفوظ الذى نشر روايته «بين القصرين» فى الأعداد الأولى منها .

وحين استقرت الثورة بدأ السباعى بفكرة تجمع الأدباء فأنشأ جمعية الأدباء فى قصر العينى والتى ولدت منها فكرة اتحاد الكتاب فكان صاحب مشروع إصدار قانون اتحاد الكتاب وهو الذى قدمه للدولة واعتمده مجلس الشعب ، وأذكر أن فى هذه الفترة توقفت مسامرات الجيب وعملت أنا كسكرتير تحرير مساعد فى الرسالة الجديدة ، وحرص هو على أن تبدأ دار التحرير فى نشر مطابع دار الجيب للأستاذ عمر عبد العزيز ، وبالفعل بعد أن كنا نطبع الرسالة الجديدة فى دار الهلال اشترينا مطابع الجيب وبدأت الرسالة فى الطبع فيها ، وكانت هذه هى بذرة مطابع التحرير الموجودة الآن فى شارع نجيب الريحانى .

ويضيف : هذه المقدمة كان لابد منها لأوضح مدى جهده الأدبى والثقافى ، فى ذلك الوقت ، فهو لم يكن غريبًا عن الصحافة ، وقبل رئاسته لروزاليوسف كان له أكثر من تجربة قاد فيها أكثر من سفينة صحفية إضافة إلى المقالات الأسبوعية فى

الصحف والجرائد اليومية، هذه الخلفية الثرية هى التى مكنته من تولى رئاسة مجلس إدارة دار رزواليوسف فلم يكن من الخارج كما يزعم البعض بل العكس هو الصحيح، فقد كان قريبًا منها ومن إحسان عبد القدوس فهما اللذان أنشآ نادى القصة عام ١٩٥١، لقد كانت علاقته بالصحافة هى علاقة الأديب برافد من روافد الأدب، وهذه العلاقة سمحت له بالتواجد داخل الوسط والإلمام بكل تفاصيله ومجريات عمله، ومن هنا استمد أكثر خبرته الصحفية.

صحفى من باب الأدب

● يشاع أن السقطة التى سقط فيها السباعى هو تغلب روح الروائى على روح المسرحى فى التجارب الأربعة التى قدمها مما أضعف الحبكة المسرحية وجعل أفكارها متناثرة غير متماسكة، وأسألك هل تلاقت المسيرتان الأدبية والصحفية فى تلك الفترة أم طغى التكوين الروائى مرة أخرى عليه؟

■■ أنا أعتقد أن العلاقة الأدبية بالعمل الصحفى أعطت له فرصة الملاحظة والاستنتاج وأكسبته خبرة ووعيًا بكل ما يحدث وزودته برؤية وفنون التعامل الصحيحة مع كل طارئ، فلم يكن يوسف السباعى صحفى الخبر أو التحقيق أو الحوار، وإنما كان كاتب مقال متميزًا وناقدًا أمينًا، أى أن صحافته لم تكن خبرية وإنما كانت أدبية خالصة، فقد دخل عالم الصحافة من باب الأدب.

● من المعروف أن القيادة الصحفية التى تولاها السباعى بروزاليوسف جاءت فى مرحلة تأميم المؤسسات. . فهل كان إداريًا متمكنًا من أدواته؟ وكيف استطاع أن يعدل بين مهامه الإدارية والأدبية فلا يجور فرع على آخر؟

■■ لا أنكر أن المرحلة التى تولى فيها السباعى رئاسة مجلس إدارة روزاليوسف كانت حرجة جدًا، فهى مرحلة تأميم الدار وتأميم الصحافة، ورأيى أن اختيار السباعى لروزاليوسف كان فيه قدر من المجاملة لإحسان عبد القدوس، فقد كان صديقًا له من أيام نادى القصة والكتاب الذهبى، ومع ذلك كانت المرحلة تتطلب

نوعًا من الإدراك السياسى والوعى الاجتماعى إضافة إلى الوعى العام بالأمور، ولم تكن تلك الفترة تعطى الفرصة كاملة لقائدها ليطور فى المؤسسة التطوير اللازم، لكن مع ذلك بذل كل جهده لإقامة التوازن المطلوب، والحفاظ على استمرار المسيرة حتى لا يحدث انهيار، وبالتحديد فى الفترة الانتقالية ما بين المرحلتين، واختياره كأديب وروائى لتولى الدار كان فيه قدر من المراعاة لهذا الجانب، وعليه فإن حضوره معنا لم يكن مزعجًا على الإطلاق بل كان مليئًا بالفهم والقبول لوجوده.

● أثناء توليه . . كيف كانت طريقته فى إدارة الحوار ومواجهة المشاكل والبحث عن حلول لها؟

■■ أغلب المشاكل التى واجهته كانت مشاكل اقتصادية فى الدار، فمن قبل كانت الدار صحيفة خاصة تعتمد على دخلها من الإعلانات والتوزيع، ولم يكن هذا كافيًا لتغطية مصاريف الإصدار والمحررين والتجديد والتطوير فى الآلات، ولكنه اجتهد وتغلب على بعض المشكلات واستطاع أن يوفر بعض الأموال لتطوير المطابع بقدر ما كانت تسمح به الظروف.

السباعى من الكتاب الأحرار

● يوسف السباعى كان يرى نفسه من الكُتّاب التقدميين الأحرار، وعليه كان فى معارك دائمة مع البرجوازيين، فكيف تراه أنت؟

■■ فى رأيى أن يوسف كان فنانًا وأديبًا وكاتبًا رائعًا، لكن جنت عليه وظائفه الرسمية، جنت على تقييمه أديبًا وكاتبًا متميزًا، فسطوره كلها سواء تلك التى جاءت على لسان أبطاله فى الروايات، أو على لسانه هو شخصيًا فى المقالات تقر وتؤمن بالعدالة الاجتماعية، حتى تلك المناصب التى جنت عليه هى فى الحقيقة كانت لخدمة الأدب والأدباء، فهى التى حققت مكاسب كبيرة لهم عن طريقه، إضافة إلى جهوده الإنسانية الخالصة مع عائلات الأدباء الذين كانوا يعتقلون

سياسيًا، وهذا الدور الاجتماعى والإنسانى مع الأسف معروف لقلة قليلة من المقربين منه، ولم يكن معروفًا على المستوى العام، وكثيرًا ما حاول تكريم الأدباء وهم على قيد الحياة تقديرًا لعطائهم.

ويضيف: أعتقد أن وظائفه الحساسة التى شغلها هى التى أنبتت هذا الخلاف مع البرجوازيين، بمعنى أنهم كانوا على خلاف مع المنصب وليس الشخص نفسه فكثير منهم يقدرون أدبه ويقيمونه التقييم الصحيح.

عودة روح الحكيم

● بين البارودى والحكيم وقع أديبنا أسيرًا للكلمة المكتوبة. . فى اعتقادك أيهما أثر عليه أكثر من الآخر حيث كان هو قريبًا من القطبين؟

■■ البارودى كان مثله الأعلى إلى جانب تأثره الشديد بوالده محمد السباعى، فعلاقته بمسامرات الجيب جاءت عن طريق والده الذى كان من أشهر الكتاب والمترجمين فى هذه السلسلة، وقام بترجمة كثير من روائع الأدب الروسى، إذن فوالده كان هو الطريق لمسامرات الجيب، لمعرفته بكبار كتاب مصر فى ذلك الوقت، والذى اتخذ من بينهم البارودى مثلاً أعلى، أما علاقته بتوفيق الحكيم فقد جاءت بعد هذه المرحلة بعشر سنوات، حين أنشأ يوسف نادى القصة وكان توفيق الحكيم رئيسًا شرفيًا له، كما أنه استعان به حين أنشأ اتحاد الكتاب والذى رأسه توفيق الحكيم أيضًا.

كان يوسف مغرمًا بتوفيق الحكيم ويبادله الحكيم إعجابًا بإعجاب حتى أنه كتب عنه ذات يوم يقول «أشهد أن طول قصص يوسف السباعى لم تزده إلا حبًا له ولها، حتى أنى أقرأ كل قصة مرتين، ولا أستبعد أن أقرأها مرة ثالثة لما تتمع به من أسلوب سهل عذب باسم وساخر، فى اعتقادى فلقد تأثر بالقطبين وبكل ما قرأه من كنوز أدبية عالمية ومحلية وكل هذه المقومات خلقت منه أديبًا فريدًا وكاتبًا عميقًا.

● ألا تلاحظ أن أبناء الطبقة المتوسطة فى الأزمنة القديمة ومن بينهم يوسف السباعى هم الذين شكلوا المجتمع وأفرزوا الطاقات وتولوا القيادات؟

■■ الطبقة المتوسطة فى القرن العشرين كانت هى طبقة الإدارة فى مصر فى مختلف المجالات من الفكر والمحاماة والجيش، أما الطبقة الأرستقراطية فكانت هى الطبقة العليا من البشوات والأمراء والحكام، ومع ذلك كانت الطبقة المتوسطة هى العصب الحيوى للمجتمع، فهى التى تديره، وكان فيها كل عناصر إدارة المجتمع، أما الآن فقد اختلط كل شىء وأصبح هناك طبقتان لا ثالث لهما، طبقة الفقراء المعدمين وطبقة الأغنياء الذين لا يمتون للنبل القديم بصلة.

السنوات العجاف

● وصف بعض من المثقفين السنوات التى تلت رحيل السباعى بالعجاف.. هل فى التسمية بعض من المبالغة أم أنها الحقيقة الكاملة؟

■■ مع رحيل يوسف السباعى رحلت كثير من الأشياء التى كانت تميز هذا العصر، لقد جاء اغتيال يوسف السباعى نفسه لينذر بالكارثة التى ستحل بالمجموع البشرى، فقد تغيرت الأخلاق والقيم والمفاهيم، فكيف تمتد يد حمقاء إلى رجل فى مؤتمر عالمى يقوم بدور نبيل للتقارب بين الشعوب ونشر الوعى الثقافى وإشاعة السلام به... كيف تمتد إليه يد الاغتيال؟ المشكلة أننا لم نفتقد يوسف السباعى فقط، بل كل القيم النبيلة التى كانت سائدة فى هذه المرحلة والتى كانت حادث اغتياله إنذاراً بزوالها.

● أمعنى ذلك أن الحياة تغيرت من النقيض إلى النقيض؟

■■ طبعًا لقد تغير كل شىء، فاليد الحمقاء التى قتلته يد جاهلة لا تفهم، ولا تعرف ولا تقرأ، هى نفس ذات اليد الحمقاء التى تطاولت على مبدعنا نجيب محفوظ هذا انقلاب خلقى كامل حتى على القيم الدينية، انقلاب شامل يقطن بباطن مجتمعنا، وافتقاد يوسف السباعى ليس افتقاد شخص بل هو افتقاد عصر بأكمله وافتقاد الرمز الذى كان يمثله هذا الشخص بالنسبة لعصره.

إننا دائما نتحرر من شيء لنخضع لآخر

نحن لا نزرع الشوك..

ولكن ينبته القدر لنا فى الضلوع..

كما ينبت الزهر فى الحدائق..

أترى أحلامنا أكبر من قدرة الحياة؟

أنملك التنازل عنها وهى أجمل ما فى الحياة ونرضخ لواقع الأمر؟

إن حركة الحياة تعلمنا أننا دائمًا نتحرر من شيء لنخضع لآخر..

فقد نتحرر من مذلة الجسد..

ولكن لنظل عبدة المشاعر..

هذا قانون الحياة..

لا سيادة ولا حرية..

هكذا كان الحلم الأول والأخير لسيدة جابر بطلة رواية «نحن لا نزرع الشوك» فى رحلتها من أدنى السلم الاجتماعى إلى درجاته الأعلى، هو البحث عن حريتها وسيادتها حتى اكتشفت أن الحرية والسيادة ليست مطلقة.. فلابد من ثمن.. قصتها تشبه إلى حد بعيد قصص أبطال الأساطير الأغريقية الذين يحاولون عبثًا الإفلات مما أعدته لهم الآلهة من مصير، فيدخلون مع القدر فى صراع بطولى

يائس، لقد حاولت سيدة الثائرة أن تتمرد، لكن القدر كان أقوى من محاولاتها فانتهت من حيث بدأت.

ولئن كان القدر الإغريقى يعكس مدى سيطرة الطبيعة على الإنسان فى ذلك الوقت وغلبتها وعجزه أمامها برغم كل ما يبذله من جهد وكفاح فإن القدر فى رواية السباعى يعبر عن حدود حركة بعض الذين يتمردون على واقعهم ويحاولون جاهدين الإفلات منه، ومن بين هولاء سيدة جابر الثائرة على طبقتها، وعباس البرعى المتحايل على دنياه، وحمدى السمنودى الحائر بين الممكن والمستحيل.

ونخلص من هذا كله أن الرواية وما تحمله من مضامين وأبطال ثائرين هى ثمرة تضافر جهد وموهبة وخبرة روائية لا شك فيها، فقد أثبتت لنا أن السباعى خلال رحلته الأدبية أن كل عمل فنى له يشكل نوعًا من الجدلية بين الأعمال السابقة والجديد المضاف إليها، وهذا ما كان يميز وجوده الفنى ويمنحه المذاق والنكهة الخاصة، ومن هنا نشأت بذور العلاقة بين الناقد أحمد صالح وأديبنا يوسف السباعى، فقد بدأها قارئًا له ثم صديقًا ثم صحفيًا يعمل تحت رئاسته فى مجلة آخر ساعة.

وعن تطور العلاقة وتفاصيلها، يقول الناقد أحمد صالح:

بداية معرفتى به كانت كقارئ فكنت أهوى القراءة وتربيت وأنا طفل على كتابات أهم كاتب أطفال مصرى وهو المرحوم كامل كيلانى إلى أن وجدت كتابًا اسمه (أرض النفاق) كان موضوعًا فوق مكتب والدى فى البيت فلفت نظرى وقرأته ووجدته قصة رائعة، واكتشفت أن كاتبه يدعى يوسف السباعى، وكانت الصفحة الأخيرة منه تحمل قائمة بكل مؤلفاته فبدأت فى اقتناء أعماله، وغرقت فيها لدرجة العشق حتى أصدر رواية «السقامات»، وكان هو يصدر كتبه على ورق فاخر، وبخط عريض لحرصه على راحة عين القارئ، وكان الكتاب يغلف بغلاف من السوليفان وبصورة ذهبية بارزة، ولذلك فقد كانت القصة تصدر بثمن مرتفع «حوالى ٢٥ قرشًا»، ولكنى وجدت هذه المرة أن رواية «السقامات» كبيرة جدًا

وثمنها خمسون قرشًا، وأنا كنت تلميذًا صغيرًا، وكدت أن أموت على شرائها، لكنى لم أجرؤ على مفاتحة والدى فى هذا الأمر، وأذكر أن يوسف السباعى كان يكتب فى كتبه عناوينه لمن يرغب فى مراسلته، فخطر لى أن أكتب له وفعلاً كتبت رسالة وقلت له إنى قرأت كل كتبه وانتقدت بعض الأشياء فى قصصه القصيرة، وحاولت من خلال هذا العرض النقدى أن أقنعه بأن يرسل لى نسخة بدون مقابل من رواية «السقامات» لأنى لا أستطيع شراءها لارتفاع ثمنها، ودونت عنوانى ثم فوجئت فى يوم حار جداً من شهر أغسطس بيوسف السباعى شخصيًا بهيئته الرائعة وهو يرتدى زى الفرسان وفى يده نسخة من كتاب «السقامات»، ويسأل عن الأستاذ أحمد صالح، فكدت أن أسقط على الأرض وأنا بهيئتى المزرية أرتدى البيجاما التى يملأها العرق، نحيفًا مثل غاندى، ولكنى تمالكت نفسى وأخبرته أنى أنا الأستاذ أحمد صالح، حيث فوجئ بأنى طفل صغير، واستضفته لوقت طويل وأنا لا أصدق نفسى مما فعل.

وكانت هذه بداية قصة طويلة مع يوسف السباعى بدأت بالقراءة والإعجاب واستمرت بالعمل والجوار منه أكثر.

ويكمل: حينما تخرجت فى الجامعة كنت قد دخلت عالم الأدب كقارئ وكزائر دائم لنادى القصة الذى أتاح لى فرصة اللقاء بكبار الكتاب شخصيًا مساء كل ثلاثاء من كل أسبوع حيث كنت أحرص على حضور الندوة التى يتحدث فيها أغلب كتاب مصر، وكان يعقب هذه الندوة حفل عشاء يقيمه الراحل محمود تيمور على نفقته الشخصية، ومن بين الحضور كان توفيق الحكيم وطه حسين وغيرهما من العظماء، وطبعًا كنت أراه دومًا هناك، فاتخذت العلاقة بيننا طوراً أكبر وتجاوزت نطاق القراءة إلى الصداقة، وأذكر أننى عقب تخرجى اتصلت به هاتفيًا وأخبرته بأنى قد تخرجت، فخيرنى بين العمل فى المجلس الأعلى للفنون والآداب أو المؤتمر الأفريقى الآسيوى، فأخذت المجلس وعملت كسكرتير للجنة القصة وكان مقررها هو توفيق الحكيم، وكان الكتاب يجتمعون أسبوعيًا وأنا الذى أجهز أعمالهم وأستمع لمناقشاتهم.

آخر ساعة فى ٦٧

● إذن فلقد التقيت به على أكثر من مستوى أولها مرحلة القراءة المبكرة لأعماله، ثم الجوار الأدبى لناديه القصصى، ثم العمل تحت رئاسته الصحفية . . .

■■ الحقيقة أنا كنت أعمل بالفعل بنظام القطعة فى الصحافة خلال دراستى فى كلية الحقوق وقبل عملى فى المجلس الأعلى للفنون والآداب، فلقد بدأت فى العمل فى مجلة صباح الخير لمدة عام، ثم تركت صباح الخير وتفرغت تمامًا لسنة الليسانس، ثم التحقت بأخبار اليوم، وكان عملى فى المجلس الأعلى للفنون والآداب أثناء عملى بالقطعة فى أخبار اليوم، ثم التحقت بالجيل مع الأستاذ أنيس منصور، ثم تحولنا إلى آخر ساعة ثم تولى السباعى من بعدها رئاسة تحرير آخر ساعة، وأذكر أنه فور تسلمه لمنصبه طلب منى الذهاب لتقديم الاستقالة من المجلس ليعيننى كسكرتير لتحرير آخر ساعة، وطبعًا كانت مفاجأة لى لم أتوقعها، كما عين رؤساء للأقسام، فكان الكاتب وجدى قنديل رئيسًا لقسم السياسة الداخلية، والكاتب جميل عارف رئيسًا لقسم الرئاسة الخارجية، والكاتبة حُسن شاه رئيسًا لقسم التحقيقات، والكاتبة إيفيلين رياض رئيسًا لقسم المرأة، وأنا كما قلت سكرتيراً للتحرير، وكان عملى يوميًا من الصباح حتى المساء، وكان يتصل بى تليفونيًا كل يوم ثلاثاء يسألنى عن صدور العدد ويرسل من يأخذ له بعض النسخ، ولكن هذا لم يكن يمنعه من المتابعة وحضور الاجتماعات، وحقيقة فإن اعتماده علىّ فى هذه المرحلة هو الذى صنعنى كصحفى حيث كانت هذه الفترة من أصعب الفترات التى مرت بها مصر، وهى أعوام النكسة، فقد كانت الرقابة تحرص على قراءة ومراجعة كل ما ينشر، وقد ظل السباعى فى منصبه لمدة ثلاثة أعوام ومن بعدها تولى رئاسة مجلس إدارة دار الهلال مع رئاسة تحرير مجلة المصور .

● ألم يسأل أحدكم ما الذى أتى به إلى آخر ساعة؟

■■ بالطبع تساءلنا فيما بيننا وكنا مندهشين جداً وأذكر أنه فى أول اجتماع تحرير ذكر أن عبد الناصر أخبره بضرورة تولى تحرير آخر ساعة فى ذلك الوقت العصيب بالذات لأنه الوحيد الذى يستطيع السيطرة على هذه الغابة السياسية الثائرة،

وبالفعل كان كل واحد منا يدخل عنده وهو ثائر ويخرج من عنده وهو فى منتهى الهدوء، وحين سئل ما الذى أتى به إلى هنا أجاب بمنتهى العقل والاتزان، وقال: «أنا عسكرى ومعتاد على أن أنفذ أى أمر يصدر لى بدون نقاش»، وقتها كانت آخر ساعة مليئة بالتيارات المتعارضة، فكانت تضم الشيوعيين واليساريين واليمينيين والناصريين والمعارضين من كل نوع، وأيضًا من ليس له اتجاه، فضلاً عن أبناء مصطفى وعلى أمين ومعارضين لهم، بمعنى أنه كان فيها مجموعة غير متجانسة ولا متآلفة على الإطلاق، والعكس هو الصحيح فقد كانوا مجموعة متضادة جداً من الصحفيين والكتاب، واستطاع هو بمهارة السيطرة على كل هذا والجمع بين الفصائل المختلفة.

سجن الرومانسية الانفرادى

● أغلب النقاد قيدوا يوسف السباعى الروائى داخل سجن الرومانسية الانفرادى، فماذا لو أردنا تقييمه ككاتب مقال وتحت أى بند نضعه؟

■■ الحقيقة أنا أغضب جدًا حينما أسمع هذا الافتراء، فهؤلاء يعتقدون أنهم يعظمونه بذلك ولكن من يقل ذلك لم يقرأ أدب السباعى جيداً لأنه يعتبر أكثر كاتب فى تاريخ الكتابة الحديثة تنوعًا، فمثلاً إحسان عبد القدوس أو يوسف غراب أو حتى نجيب محفوظ وغيرهم من الكتاب لكل واحد منهم اتجاه واضح ومحدد، أما السباعى فمتنوع وغزير كتب فى كل اتجاهات الأدب، حتى الواقعية التى اعتبرها الشيوعيون جزءاً من أدبهم ولم يكتبوا إلا فيها، كتب هو فيها، وحينما تم تحويلها إلى فيلم سينمائى أنتجها يوسف شاهين وأخرجها صلاح أبو سيف فى مزيج مدهش، إذن من يطلع على إنتاجه الأدبى لا يمكن أن يضعه فى أى من الاتجاهات لأنه سلك كل الاتجاهات والسبل الرومانسية والواقعية والاجتماعية والسياسية.

ويضيف: أما علاقته بالمقال السياسى فقد كانت قائمة أساسًا على العسكرية وعلى حياته كضابط وعلى علاقته بضباط الثورة الذين يعرفهم جميعًا معرفة شخصية فأعطى لنفسه مسئولية أن يكتب من هذا المنطلق، فتبنى كل موقف سياسى

لمصر وكتب فيه مقالات، وقام بتأليف روايات تحكى عن الوحدة والخسارة وحرب فلسطين ونصر أكتوبر، كان كاتباً ومؤرخًا للوقائع السياسية والأحداث التى وقعت فى مصر، ومقالاته الافتتاحية بآخر ساعة تحت عنوان «أهلاً» كانت قيمتها الحقيقية فى تلك الفترة الحرجة أنه رجل قريب من السلطة فهم زملاء سلاح وثورة، وأيضًا قريب من الوقائع المصرية لذا كان القارئ يتأكد من صحة ما يكتبه، وأذكر أنه كتب يومًا مقالاً فى الرسالة الجديدة قال فيه إنه ذات يوم خلال عودته لمنزل فى منشية البكرى وجد خلال مروره ببيت الرئيس عبد الناصر أن حجرة مكتبه مضاءة فصعد له وكتب حواراً دار بينه وبين عبدالناصر بشكل واقعى لدرجة أن بعض المحيطين بعبد الناصر تضايقوا من النظرة التى كتب بها السباعى مقاله خاصة أنه ناداه باسمه مجردًا وطبعًا كانوا هم ينظرون لناصر كشخص مقدس لا ينادى بجمال بل بالريس ولكنه كتب الحوار بواقعية، إذن مقالاته كانت تنبع من قربه من الأحداث وعلاقاته الشخصية بالشخصيات التى كانت تصنع الأحداث.

السباعى يزرع الشوك ويحصد النجاح

● خاض السباعى ميادين المعالجة السينمائية أيضًا وله العديد من التجارب الفنية فقد سبق وعالج سيناريو فيلم «الناصر صلاح الدين» و«غرام الأسياد» و«شباب امرأة» وغيرها من الأفلام، فهل كان وراء وضع أقدامك على قاطرة الفن السابع بداية بمحطة «نحن لا نزرع الشوك»؟

■■ كتبت ثلاثة سيناريوهات لرواية «نحن لا نزرع الشوك» حيث عالجتها إذاعيًا وسينمائيًا وتليفزيونيًا، وبما أن السباعى كان رئيسًا لتحرير «آخر ساعة»، وكان مشغولاً جداً بعدة مناصب أخرى، ولكن المسيطرين على التوزيع فى أخبار اليوم أخبروه أن إحسان عبد القدوس يكتب قصصًا مسلسلة فى روزاليوسف، ترفع التوزيع إلى ثلاثة أضعاف، وطالبوه بكتابة قصة مماثلة ترفع التوزيع، وبالفعل كتب «نحن لا نزرع الشوك» ولكن بانتهائها هبط معدل التوزيع مرة أخرى فطلبوا منه كتابة قصة جديدة، ولكنه لم يكن يملك الوقت الكافى، وكانت لديه قصة اسمها «القيثارة الحزينة» كان دائمًا يقول لى عنها إنه يريد تحويلها إلى رواية طويلة ولكن

الوقت لم يساعده، وحكى لى الكثير عنها، واتفق معى على أن أكتب هذه الرواية بناء على الكلام الذى قصه لى، ولأنى تلميذه الخصب الذى ورث عنه أفكاراً كثيرة فقد فعلت، ونشرت الرواية مسلسلة فى آخر ساعة وكتب عليها قصة يوسف السباعى وأعدها لآخر ساعة أحمد صالح، وقصة «القيثارة» هذه كانت أول معالجة لعمل من أعمال يوسف السباعى.

ويضيف: بالنسبة لرواية «نحن لا نزرع الشوك»، ومعالجتى لها فقد كان من ضمن مهامى أن أكتب ملخصًا لما نشر منها حتى يتابعها القارئ بسهولة، وجذبتنى الرواية كما جذبت الجميع، وكان المخرج محمد علوان وقتها يخرج مسلسلات إذاعية رائعة تجذب المستمعين ومن بينها أخرج أحد أعمال يوسف السباعى وقامت بتمثيله نجاة مع نزار قبانى فى عهد رئيسة الإذاعة آمال فهمى، وأذكر أنى أخذت رواية «نحن لا نزرع الشوك»، وهى لا تزال تنشر مسلسلة فى آخر ساعة وأعطيتها لعلوان، وقلت له إنى أرغب فى كتابتها كمسلسل فى إذاعة الشرق الأوسط فوافق، ولكنه طلب منى أن أحصل أولاً على موافقة يوسف السباعى، فحصلت فعلاً على موافقته، وقال لى إنه سيطلب من شادية أن تمثلها لأنه يريد أن يرى الناس شادية بآذانهم، وبالفعل أذيع المسلسل فى شهر رمضان وكان يوسف السباعى لديه ثقة فى عملى فلم يحدث ذات يوم أن طلب مراجعة ما كتبت، وبالطبع كان هذا يقلقنى جداً على مصير تجربتى، ولكنه كان يستمع للرواية فى الإذاعة وكان سعيداً جداً بها، وكان دائمًا فى آخر كل حلقة يكلمنى ليهنئنى، وحتى الشوارع كانت تخلو وقت إذاعتها، بل إن السائر فى الشوارع كان يتابع المسلسل من خلال أصوات الراديو المندفعة من داخل كل بيت ومحل فى مصر خلال إذاعة المسلسل.

وبعدها فوجئت برمسيس نجيب أفضل منتج فى تاريخ السينما المصرية يحادثنى تليفونيًا ويستدعينى لمقابلته مع المخرج صلاح أبو سيف طالبًا منى كتابة سيناريو للرواية لكى تتحول إلى فيلم سينمائى ولم أكن قد رأيت سيناريو مكتوبًا أبداً من قبل، ولكنى وافقت رغم ذلك فطلب منى فى البداية عمل معالجة بسيطة للعمل، فجريت إلى أستاذى أحمد رجب وكان قد كتب عدة سيناريوهات، وطلبت منه أحد السيناريوهات التى كتبها، فأعطانى سيناريو فيلم «نصف ساعة زواج»، وطبعًا

تعلمت منه الكثير وكتبت المعالجة ونالت إعجاب صلاح أبو سيف جداً، لكن شادية اعترضت على صلاح أبو سيف، وطلبت منى اختيار أى مخرج آخر، فذهبت إلى يوسف السباعى لاستشارته فيما بدر من شادية، فطلب منى أن أتصل برمسيس نجيب تليفونيًا، فاتصلت به فأبدى يوسف السباعى له أيضًا اعتراضه على صلاح أبو سيف تأكيداً وتأييداً لكلام شادية، مقترحًا ترشيح اسم مخرج آخر، وكان هناك مخرج جديد أخرج ثلاثة أعمال أبهرت الجميع رغم عدم نجاحها تجاريًا وهو المخرج الشاب حسين كمال، وكانت تجاربه هى «المستحيل» لمصطفى محمود، و«البوسطجى» ليحيى حقى، و«شىء من الخوف» لثروت أباظة. فاقترحت على يوسف بك أن يخبر رمسيس نجيب باسم المخرج الشاب حسين كمال، فتعجب رمسيس نجيب وبعدها عدت إلى البيت لأفاجأ باتصال تليفونى من رمسيس نجيب يتعجب فيه من رفض يوسف السباعى لصلاح أبو سيف واختياره لهذا المخرج الجديد المسمى حسين كمال، ولكنى أكدت له أنه مخرج جيد، وبالفعل أخرج حسين كمال الرواية، وأتذكر أنه أشاد أثناء التصوير بالسيناريو وأبدى إعجابه باستطاعتى تقديم كل هذه الرواية الضخمة فى ساعتين فقط.

ويكمل: وبعد ربع قرن من هذا اليوم فوجئت بتليفون من حسين كمال يتصل بى ويخبرنى بأن الوقت قد حان لإعادة الرواية وعرضها كمسلسل تليفزيونى واسترداد ما اضطررنا وقت الفيلم لحذفه.

الناصر.. يوسف الدين

● إذن فقد كان كاتبًا للسيناريو ليس بالنسبة لأعماله فقط وإنما لأعمال الغير أيضًا. . .

■■ هذا حق فلقد كتب سيناريوهات لأعمال لم تكن روايات من الأساس، وتظهر براعته بشكل خاص فى فيلم «الناصر صلاح الدين»، حيث استطاع التحكم فى كل المجاميع التى ضمها الفيلم، ومعظم السيناريوهات التى كتبها لم تكن فى رواياته، ومثيله فى ذلك نجيب محفوظ الذى قال إنه أعطى كل ما لديه فى الرواية



وأن يترك الفرصة لعين أخرى لترى العمل، فمثلاً نجيب محفوظ قام بمعالجة قصة إحسان عبد القدوس «إمبراطورية ميم» سينمائيًا وهذه القصة كانت مكتوبة فى صفحتين فى روزاليوسف وكان قد كتبها فى معالجة لموضوع الانتخابات، وتصور الأم التى يصاب أطفالها بالملل منها، ويطالبون بانتخابات فى المنزل، وفى النهاية ينتخبونها، وكان السباعى يرفض أيضًا كتابة السيناريو لرواياته مثل محفوظ، ولكنه كان يقبل على كتابة الحوار لها، معتمداً فى ذلك على معايشته العميقة لأفكار وتعبيرات أفكاره.

سطوة الأدب فى الأوان اليوسفى

● يشاع أن فى عهد السباعى كان للأدب سطوته فقد كان يعبر عن الواقع السياسى والاجتماعى والثقافى والفنى وأن القصة والرواية كانت وحدها هى المسيطرة على الأدب أكثر من التحقيق والمقال. .

■■ عن طريق نادى القصة واتحاد الأدباء والمجالس الثقافية التى ساهم فى إنشائها يوسف السباعى لمع كتاب القصة، ولمعت أيضا القصة كفرع أدبى بعد أن

كانت الدراسات الأدبية والمقالات لها الاهتمام الأكبر ، لقد استطاع أن يجمع أقرانه وأصدقاءه من القصاصين ليقدمهم بشكل أكبر وأوسع من إصداره لسلسلتى الكتاب الذهبى والكتاب الفضى ، وأفسح لهم الطريق كل شهر إما برواية طويلة أو بمجموعة قصصية حسب النوع الذى يكتبه كل منهم ، وعرف الشعب المصرى والعربى فى ذلك الوقت نجيب محفوظ ويوسف إدريس وإحسان عبد القدوس وعلى أحمد باكثير ومحمود بدوى وسعد مكاوى ، فعلى يد يوسف السباعى أصبحت القصة هى المسيطرة على الأدب وهى الأكثر أهمية خصوصًا أن حضور الصحفيين فى هذه الندوات ساهم إعلاميًا فى نشر القصة والرواية وأعمال هؤلاء الكتاب ، هكذا كان ليوسف السباعى الدور فى إعطاء هذه الفرصة لجيله حتى يظهر ويتواجد على الساحة الأدبية .

● بصراحة . . هل أدرك الناس القيمة الحقيقية ليوسف السباعى فى الوقت الذى كان يحيا بينهم؟

■■ بكل أسف لا . . والسبب الرئيسى لذلك هو أن اليسار كان يمقت يوسف السباعى ، وكان مسيطرًا بشكل كبير لدرجة أن رئيس أخبار اليوم كان فى هذه الفترة يساريًا ، وكذلك رئيس الهيئة العامة للكتاب ، مع أن السباعى كان يلقى احترامًا غير عادى فى الاتحاد السوفييتى نفسه ، فحينما كان يسافر إلى موسكو باعتباره رئيسًا لمنظمة المؤتمر الأفريقى ـ الآسيوى كان يقابل مقابلة رؤساء الدول فى مطار موسكو قلب الشيوعية ، وقد كتب الراحل طه حسين مقالاً بهذا المعنى أكد فيه أن يوسف السباعى لم يحظ بحقه من النقد وهو نفسه كان يدرك أن ذلك بسبب سيطرة اليسار على النقد فى مصر ومع ذلك كان يعرف كيف ينفذ للجماهير والدليل على ذلك إعادة طبع رواياته لأكثر من عشرين مرة ، ومعنى هذا أن الشعب المصرى كان يعرف جيدًا مقدار قيمته .

ونسيمه العطر..

الحب..

هو ذلك الإحساس الذى يجعلنا نتوهم فى شفتيه ينبوعًا

لا ينضب من الهناء..

معينه مذيبًا للهموم..

مفتتًا للأحزان..

هو ذلك الشعور الذى يغمر أرواحنا بعبيره المنعش..

ونسيمه العطر..

جاء هذا الوصف الشاعرى للحب فى إحدى روايات يوسف السباعى وهى رواية طريق العودة على لسان بطل القصة وقد أثار هذا الوصف ثائرة النقاد وعلى رأسهم الدكتور محمد مندور الذى أعاب عليه هذا التعبير على اعتبار أنه من التعريفات المثيرة المزعجة للحب، ورد عليه السباعى فى صفحته الأخيرة بمجلة «آخر ساعة»، من مقاعد المتفرجين تحت عنوان «براڤو . . شيخ النقاد»، وكتب يقول: «لست أدرى كيف نسى الناقد الفاضل الدارس هذا البيت للبحترى:

ورق نسيم الصبح حتى حسبته يجىء بأنفاس الأحبة نعمًا

أظن أن مفهوم أن الشاعر عندما بحث عن خير ما يشبه به نسيم الصبح لم يجد سوى أنفاس الأحبة، وأظن أيضًا أن توهم المحب بأن أنفاس حبيبه أنفاس عطرة وناعمة شيء لا يمكن أن ينكره إنسان، وإن نكره فقد خلت ملامحه الإنسانية من الحواس الخمس».

لقد آمن يوسف السباعى بحرية الرأى إيمانًا مطلقًا مدفوعًا إلى ذلك بحق صاحب القلم فى أن يتنفس حريته، وكذلك بفاعلية الكلمة الصادقة وتأثيرها على جماهير القراء، رافضًا أية قيود تحاصر إبدع الكاتب، إلا مسئوليته وصدقه مع نفسه ومع الاخرين، وفارق كبير بين مسئولية الفنان النابعة من ذاته ومن داخله وبين أن يكون موجهًا من خارجه بقوة خارجة عن إرادته.

إن أحد المحاور الرئيسية التى كانت تدور حول مقالات السباعى الصحفية الباكرة هى معاركه المستمرة مع النقاد، فقد لاقى السباعى من النقاد الأيديولوجيين بوجه خاص تعنتًا شديدًا ومنذ البداية وقف هؤلاء فى وجه أدبه، بل فى وجهه هو شخصيًا، واتخذوا منه موقفًا عدائيًا غير مقبول، وغير مبرر على الإطلاق، وظل يوسف طوال حياته يحس إحساسًا حادًا ومريرًا بالظلم الواقع عليه وعلى أدبه من هؤلاء النقاد، ولذلك لم يقف مكتوف الأيدى بل كان يصد هجومهم بهجوم بالغ العنف والضراوة والقوة.

أدبه من النوع السلبى

فى كتابه «الأدب المصرى المعاصر» راح الناقد الدكتور عبد القادر القط يعدد ألوان السلبية فى الرواية المصرية المعاصرة، واختار القط رواية «إنى راحلة» ووصف بطلتها بالسلبية والاستسلام وانعدام روح المقاومة لأنها انتحرت فى النهاية تاركة حلبة الصراع بلا بطولة حقيقية.

● أسأل الكاتبة «حُسن شاه» باعتبارها أحد الذين أرادوا حلاً للأنثى على الأرض. . هل كانت المرأة فى أدب السباعى سلبية مسلوبة الإرادة؟ وهل صحيح أن أدب السباعى من النوع السلبى كما وصفه الدكتور عبد القادر القط؟

■■ تقول حُسن شاه: فى البداية كانت معظم رواياته روايات حب، وكان يقف بشكل صريح ومباشر فى صف المرأة سواء كانت أم أو أخت أو ابنه أو زوجة أو حبيبة، وليس فى أعماله الروائية فقط وإنما فى حياته أيضًا والدليل على ذلك أنه كان مؤيدًا لى تمامًا فى العمل بعد أن كنت مستبعدة، فحين جاء على رأس آخر ساعة أعاد لى حياتى وقيمتى وكيانى وعندما نفكر فى هذا الأمر ندرك أنه فى قرارة نفسه كان عنده اعتراف كامل بالمرأة وبقدرتها على الصمود والجلد والتحدى والنجاح وبأنها تستطيع أن تكون رئيس وقائدة وأن تتحمل المسئولية كاملة مثلها مثل الرجال.

وتضيف: يكفى أن أقول إنه كان يعطينى عددًا من أهم الأعداد وهو عدد الشهر الذى يجلب الإعلانات للمجلة والذى لا بد لمن يكلف به أن يكون على أعلى مستوى من الدراية والمسئولية، لأن هذا النوع من الأعداد تحديدًا يبذل فيه مجهودا كبيرا، والعمل فيه صعب جدًا لأنه يقوم بتغطية موضوع واحد فقط من كل زواياه، رغم أنه لم يكن ليتعب فى استبعادى لو أراد لأنه جاء ووجدنى مستبعدة أصلاً، هذا على مستوى العمل، أما بالنسبة لمن وصفوا أدبه بالسلبية، فمع احترامى الكامل للدكتور القط، ماذا يريد المجتمع من فتاة مثل تربية وظروف عايدة بطلة قصة «إنى راحلة» أكثر من أن تضرب بكل شىء عرض الحائط وتسافر وهى زوجة مع حبيبها مصرة على أن تقرر مصيرها بيديها رغم كل شىء، وتبيت معه وتعاشره ثائرة على التقاليد، حتى سلبه القدر منها فحطمت كل شىء وأحرقت الكوخ بيديها وهى فيه، فهل بعد كل هذا يقال عنها إنها سلبية؟ لا أظن فلو كانت كذلك لما كلفت نفسها عناء التجربة والمصير المعلق والنهاية المأساوية، لقد قررت عايدة أن تنهى حياتها بعد رحيل نصفها الآخر. فكيف تحيا بنصف واحد والآخر غائب عن الوجود؟ لو كانت سلبية بحق كانت سترضخ للمفاهيم والتقاليد الأسرية العقيمة التى طالبتها بنكران هذا الحب والتنازل عن أحلامها فى سبيل إرضاء من ليست لهم قلوب.

إن ما فعلته عايدة بطلة السباعى هو قمة الإرادة والتضحية معًا.

استبعدنى حافظ.. وأعادنى السباعى

● ذكرت فى حديثك أنه حينما جاء السباعى وجدك مستبعدة، معنى ذلك أن تجربتك مع يوسف السباعى اختلفت عن تجربتك مع الكاتب صلاح حافظ . . .

■■ تجيب: هذا صحيح، صلاح حافظ كان صحفيًا ممتازًا وكاتبًا رائعًا لكن علاقتى به فى النهاية كانت سيئة جداً، وحين كلف برئاسة التحرير كنت فى ذلك الوقت أشغل منصب نائب رئيس تحرير مؤسسة أخبار اليوم، ولم أكن من الشلة المحيطة به، وحاول أن يستبعدنى وقام بالفعل بتجميد نشاطى الصحفى ومنصبى، رغم أنى شغلت هذا المنصب منذ عام ١٩٦٤ وقد كلفنى به الأستاذ مصطفى أمين، ولم يكن صلاح حافظ يعطينى صلاحيات والعكس هو الصحيح، فقد كان يستعين بمجموعته المحيطة بدلاً منى، لذلك حدثت بينى وبينه مشكلة شبه شخصية إلى جانب أنه كان يساريًا وكنا مختلفين ومع ذلك كنت أعترف به اعترافًا كاملاً وحتى لا يلفت له الأنظار قام بحيلة ظريفة لاستبعادى وأعطانى مهمة عمل صفحتين «تابوليت» خارج آخر ساعة، وطبعًا هاتين الصفحتين لم تكونا مقروءتين لأنهما خارج المجلة، تنشران بورق الجرائد العادية «فوق البيعة»، ورغم ذلك فقد صنعت من هاتين الصفحتين أول مجلة نسائية جعلتهما كجريدة الأخبار، إلا أن بائعى الجرائد فى الستينيات كانوا غائبى الوعى غير مدركين لأهمية هاتين الصفحتين وبالتالى فلم يكونوا يوزعون هذا الملحق مع المجلة وإنما يبيعونه بالكيلو، وهذه كانت تجربتى المريرة مع صلاح حافظ.

وتضيف: لكن حينما جاء الأستاذ يوسف السباعى نشأ بيننا ود واحترام متبادل، لأنى فى الأساس كنت من رواد نادى القصة والمجلس الأعلى للفنون والآداب وسبق أن أجريت معه عدة حوارات، والذين أعتمد عليهم كنواب له كانوا الأستاذ وجدى قنديل والأستاذ جميل عارف وأنا، ولكن اعتماده الأكبر كان على الأستاذ وجدى قنديل، لأنه كان يقضى طول النهار والليل فى المجلة فى الفترة التى كنت قد تزوجت فيها، وحملت فى ابنتى وهذه الفترة كانت تسبب لى الكثير من القلق، ومع ذلك احتضننى يوسف بك وأعطانى صلاحياتى كرئيس قسم، وقسم العمل بينى وبين وجدى الذى كان يقوم بإصدار ثلاثة أعداد من المجلة لأقوم أنا بإصدار

العدد الرابع تمشيًا مع ظروفى العائلية، والتى لم تكن توفر لى التواجد المستمر إضافة إلى أنه قرر أن يكون العدد الرابع من كل شهر عددًا خاصًا، وبالطبع أعطانى هذا فرصة للتميز والتواجد على الساحة الصحفية، وأذكر أننا كنا والأستاذ وجيه أبو ذكرى نفكر طول الشهر فى تقديم عدد متفرد بموضوعاته ومادته ونظل نحضر له شهرًا كاملاً حتى ينشر على أحسن مستوى، وقد ترتب على هذه القفزة التى أحدثتها هذه الأعداد الخاصة زيادة فى التوزيع هائلة.

● هل كان يوسف السباعى يتدخل فيما تكتبون بحكم منصبه؟ أم كان يعطيكم مطلق الحرية واثقًا من التزام أقلامكم؟

■■ حقيقة، كان يشرف علينا من بعيد، إلا إذا ظهر شىء يتعارض من الناحية السياسية مع سياسة الدولة أو مع أفكاره الخاصة أو أيديولوجيته ولكن التدخل بمعناه الضيق لم يحدث نهائيًا لأن ـ رحمه الله ـ كان يقوم بمهام كثيرة جدًا، ولم يكن متفرغًا بالقدر الكبير لرئاسة آخر ساعة، صحيح أنه كان يأتى يوميًا فى ميعاد ثابت ويتصفح العدد قبل صدوره بساعات ولكن ليست بهدف المراقبة، وإنما بهدف التعديل ليتوافق مع الاتجاه العام وقتها.

● لكن المرحلة كانت حرجة جدًا، ولابد أن يكون قد انعكس صداها على المجلة وسياستها. . .

■■ صحيح، لقد تولى لواء قيادة التحرير فى عصر النكسة، ولكنه كان شخصًا ودودًا ومتفاهمًا إلى أبعد الحدود، ولأنه كان رجلاً عسكريًا فقد كانت له رؤيته الخاصة به فى الوقت الذى كنا فيه مهزومين داخليًا وتعمقت هذه الرؤية أكثر فأكثر نتيجة قربه المباشر من الرئيس عبد الناصر، إضافة إلى جواره من قيادات الجيش، ورغم كم التيارات التى كانت موجودة فى آخر ساعة فقد استطاع أن يعقد هدنة بينها، مدركًا فى قرارة نفسه أننا قادرين على تجاوز النكسة والانتصار فى النهاية، والدليل على ذلك أن جميع مقالاته الافتتاحية كانت توحى بذلك، سواء مقاله الأمامى تحت عنوان «أهلاً»، أو حتى الصفحة الأخيرة التى لم تكن تخرج عن نطاق النقد الفنى تحت عنوان «من مقاعد المتفرجين».

صحفية على خط النار

● جدير بالذكر أن يوسف السباعى سخر كلماته فى وقت من الأوقات من أجل تحرير جنوبنا اليمنى من الاستعمار، فمواقفه وآرائه السياسية كانت تعلوها نبرة الوضوح والصراحة، ومن هنا أسألك هل هو الذى دفعك للسفر مع الفدائيين فى الأردن فى أول تجربة تقوم بها صحفية فى العالم العربى؟

■■ يوسف السباعى كان عبارة عن تخصصات ومواهب ومصادر وعلاقات شتى، أعطى كل الفرص الممكنة وغير الممكنة، لجيل من الأدباء والكتاب والصحفيين ولم يبخل عليهم بشيء لأنه كان محققًا لذاته ومتوازنًا نفسيًا وعقليًا، ولكن الحقيقة لا أنا ولا يوسف بك كنا نعلم شيئًا عن موضوع السفر هذا، وما حدث أن الأستاذ عادل طاهر - رحمه الله - كان رجل سياحة مرموق ومسئول من المسئولين الكبار عن قطاع السياحة فى مصر، ودعانى للسفر كضيفة على السياحة العربية إلى الأردن، وهذه الفترة من عام ١٩٦٩ كانت تمثل أوج النشاط الفدائى فى الأردن حيث كانوا متمركزين فى أغواره ينزلون ويعبرون نهر الأردن كل فترة وقت احتلال الضفة الغربية ليضربوا ضرباتهم فى المستعمرات الإسرائيلية ثم يعودوا من حيث أتوا، وطبعًا كانت رحلة خطرة ومشكوك فى سلامتها، هذه الرحلة قام بها قبلى عدد بسيط جدًا من الصحفيين كان من بينهم المصور الصحفى الرائع فاروق إبراهيم، ولما جاءتنى الفرصة صممت على أن أغطى هذا العمل الفدائى المشرف خاصة فى أعقاب ضربة الملك حسين لهم فى أيلول الأسود فى هذا الوقت كانت كل منظمة من المنظمات الفلسطينية تضم مجموعة منتقاه من الفدائيين فقررت أن أفاتح فاروق الذى كان سيسافر معى على متن ذات الطائرة المتجهة إلى الأردن لتصوير الموضوعات السياحية للاتحاد العربى الذى كنا ضيوفه فى إمكانية أن نذهب معًا للفدائيين ولأن التجربة كانت قاسية جدًا عليه لأنه خاضها قبلى وخرج حيًا بصعوبة اعتذر مكتفيًا بما حققه من قبل من لقطات تاريخية.

وتكمل: ولحسن الحظ كان معى كاميرا خاصة بى كنت قد اشتريتها خلال إحدى رحلاتى الصحفية، وبدأت فى تصوير الرحلة وقضيت حوالى ثلاثة أيام فى الأردن

بين الآثار، كما أعطتنى الزميلة مريم روبن المتخصصة فى الشئون العربية والتى كانت مرافقة لى فى تحركاتى السياحية جميع تليفونات الملك حسين والأسرة المالكة، ولكنى عدت وفكرت، كيف يكون الفدائيون على بعد خطوات منى وأتركهم لأجرى حوارات مع ملوك ورؤساء؟ وفى النهاية عقدت العزم وفضلت الفدائيين فقد هزتنى بشدة فور نزولى فى مطار الأردن فى بداية الرحلة مشهد جنائزى لطبيب البعثة الطبية المصرية التى سافرت لعلاج الفدائيين وأذكر أن الطبيب كان يدعى الدكتور عبد القادر عودة، وقد استشهد وهو يؤدى عمله، وتحول المطار إلى ساحة ضمت كل الفدائيين الفلسطينيين جاءوا تحية وعرفانًا لما قدمه الطبيب لهم، كان هذا المشهد كفيل بوضع قدمى على أول طريق المغامرة.

وتضيف: أما الشخص الذى تولى عملية الاتصال بالفدائيين ليسمحوا لى بالإقامة عندهم فكان الزميل فاروق القاضى الصحفى بجريدة روزاليوسف هو الذى أستأذنهم وعليه اتصل بى أحد المقاتلين الفلسطينيين يخبرنى بموافقة جيش التحرير الفلسطينى على استضافتى والذهاب إلى القاعدة، وأثناء السير أكد لى المقاتل أنى منذ هذه اللحظة قد أصبحت عنصراً من عناصر جيش التحرير، وأن كل عنصر يحمل اسمًا حركيًا فاختار لى اسم أم العبد، وذهبنا بسيارة الفدائيين وكانت عبارة عن ميكروباص إلى الموقع ولا أستطيع أن أصف خطورة الرحلة التى قمنا بها فالطريق كله مكشوف للإسرائيليين الذين كانوا يعلمون أن هذه السيارات تصعد لقاعدة الفدائيين وبالطبع كل سيارة معرضة فى أى لحظة للضرب قبل الوصول للقواعد، وإذا كان السائق يسرع بشكل رهيب لأن المنطقة مرصودة دائمًا والرحلة مخيفة، إضافة إلى المناخ الجبلى الذى لم أعتده من قبل، وقضيت شهراً أنام فى العراء لأول مرة فى حياتى، وقتها كنت فى الثلاثينيات من عمرى، وكان معظم الفدائيين ممن تتراوح أعمارهم من ٢٥ إلى ٣٥ سنة ومع ذلك اقتربت منهم جميعًا وصرنا يداً واحدة فى مواجهة العدو الذى كانت مدفعيته تطلق النار طوال الليل كرد فعل لهجمات الفدائيين ضد المستعمرات الإسرائيلية.

وتضيف: هذا عن الليل الذى بالطبع لا مجال فيه للنوم لحظة، أما بالنسبة للنهار فالحركة خلاله كانت ممنوعة لأن الطائرات الإسرائيلية كانت دائمة الحركة

والاستطلاع، ولذلك كنا نختبئ تحت الأشجار حتى لايروننا وننظف الأسلحة ونجهز لعمليات الفجر ونحلم بالانتصار ولأنى واحدة منهم فقد فوجئت فى يوم من الأيام بالأمر الفدائى يحدد اسمى من بين الذين سيقومون بعملية استطلاع لجبهة العدو، وكانت مهمة خطرة جداً ولكنى فعلتها وكتبت عنها أروع ما كتبت فهى تجربة فريدة أعتز بها، صنعت لى اسمًا وحفرت لى مكانًا متميزاً فى عالم الصحافة.

لقاء ياسر عرفات

● وكيف استقبل يوسف السباعى تفاصيل هذه المغامرة الفدائية؟

■■ كان استقباله لى رائعًا وحافلاً باعتبارى أول سيدة فى مصر وفى الوطن العربى تخوض هذه التجربة، وتعيش مع الفدائيين الفلسطنيين وتحارب معهم يداً بيد، وأذكر أنى حينما عدت إلى مصر كتبت عن التجربة كاملة فى ١٢ عدداً من آخر ساعة على مدى ثلاثة أشهر، وكان يوسف بك سعيداً بالتجربة خاصة وأنى قابلت فى آخر الرحلة الرئيس ياسر عرفات عن طريق شاعر مجاهد صديق لى وهو كمال ناصر الذى دعانى بعد عودتى من قواعد الفدائيين لمقابلة عرفات، وظل الرئيس عرفات يذكرنى ويقدرنى لأنى فى وقت من الأوقات كنت واحدة من هؤلاء الفدائيين.

● بصراحة ما الذى افتقدته برحيل يوسف السباعى عن آخر ساعة؟

■■ يكفى أن أقول إنه حين تركت آخر ساعة رفضت استكمال طريقى فيها فلم يكن عندى استعداد لتحمل ما بعد عهده، فبعد الاحترام الذى لقيته منه لم أشأ أن أستمر، ولذا طلبت من الأستاذ إحسان عبد القدوس رئيس مجلس الإدارة، والأستاذ موسى صبرى رئيس تحرير الأخبار أن ينقلانى، وحقيقة كان هذا النقل فاتحة خير علىّ أن أعمل فى صحيفة يومية واسعة الانتشار توزع حوالى مليون نسخة يوميًا.

أخلاق الفارس

● أظن أنه قد جمعتك بيوسف السباعى مواقف إنسانية عديدة فهل يمكن أن تحكى بعضًا منها؟

■■ دائمًا ما يوصف يوسف السباعى بالفارس، وهذا الوصف ينطبق عليه تمامًا، وليست مجاملة وإنما حقيقة فهو فارس، بمعنى الكلمة إذا لجأ له أى شخص فى محنة يساعده على الفور حتى ولو كان على خصام معه، وبالنسبة لى فله مواقف عديدة أظهرت جزءًا بسيطًا من إنسانيته التى لا يمكن أن توصف بالكلمات أو تحدد بالمواقف، وأذكر منها موقفين من مجموعة مواقف شتى أولهما حينما أصيبت ابنتى البكر فى يديها خلال عملية ولادتى لها ففوجئت به يأتينى دون سابق موعد ويخبرنى أنه سأل أحد المتخصصين فأكد له أن الأمر بسيط للغاية، ولا داعى للقلق على طفلتى الصغيرة، أما ثانى موقف فكان وهو رئيس لتحرير آخر ساعة وقتها كان أخى قد سافر إلى بعثة فى النمسا وأحب فتاة نمساوية وأراد الزواج منها وكان والدها متعصبًا جدًا ضد العرب فرفض الزواج رفضًا باتًا من الأساس، وكان ذو نفوذ واسع فاستطاع بعلاقاته طرد أخى من النمسا، وبناء على ذلك طرد من البعثة وعاد إلى مصر، وكان هذا فى أعقاب رئاسة جمال عبد الناصر، وبالتالى وضع اسم أخى فى قوائم الممنوعين من السفر رغم أن المسألة لا تمت للسياسة بصلة، وحينما أراد أخى أن يهاجر من مصر بعد أن تزوج من فتاة من أمريكا اللاتينية هنا بالقاهرة لم يستطع السفر لأنه كان ممنوعًا منه، فلجأت إلى يوسف بك وكان شقيقه اللواء محمود السباعى - يرحمه الله - حكمدارًا للقاهرة، فأوصلنى له حيث بحث اللواء محمود السباعى سجل أخى وتأكد أنه ليس مدانًا بأى تهمة وعلم أنه هو المجنى عليه فيما حدث لأنه مصرى فتم حذف اسمه من قوائم الممنوعين من السفر فورًا، وسافر ونجح فى حياته بالخارج، بعد أن كان من الممكن أن تتحطم حياته كلها لولا تدخل يوسف السباعى، إن له أفضالاً علىّ على المستويين المهنى والشخصى وسأظل عمرى كله أتذكرها له.

كلفنى السادات بالدخول إلى قلب الأهرام بدبابة.. فاخترت العجلة

اعتمد الحكم الجمهورى أو بمعنى أدق العسكرى فى الستينيات فى مجال الثقافة على ثلاثة ضباط من رجاله هم الدكتور عبد القادر حاتم والدكتور ثروت عكاشة وأديبنا يوسف السباعى الذى كان أكثرهم عرضة للهجوم.

وما من شىء إلا لأنه تقلد عدة مناصب حيوية أعطت له صلاحيات كثيرة فى مختلف المجالات الثقافية والأدبية والإعلامية واليسارية، فلو استعرضنا سيرته الذاتية سنجد أنه حصل على دبلوم معهد الصحافة من جامعة القاهرة عام ١٩٥٢ وهو مدير للمتحف الحربى، ثم رأس تحرير مجلة الرسالة الجديدة التى كانت أوسع المجلات الأدبية انتشاراً فى العالم العربى عام ١٩٥٣، ثم عمل فى جريدة الجمهورية حتى عام ١٩٦٠، ثم رأس مجلس إدارة دار روزاليوسف من الفترة ما بين عامى ١٩٦١ حتى ١٩٦٦، ومن بعدها جاءت رئاسة تحرير مجلة «آخر ساعة» فى الفترة من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٠، إضافة إلى رئاسته للمجلس الأعلى للفنون والآداب ومنظمة تضامن الشعوب الآسيوية الأفريقية، واتحاد الإذاعة والتليفزيون وأيضًا رئاسة مجلس إدارة دار الهلال ومجلة المصور، ثم عين وزيراً للثقافة والإعلام عام ١٩٧٣، ورئيسًا لمجلس إدارة جريدة الأهرام ورئيسًا للتحرير عام ١٩٧٦، وأخيراً نقيبًا للصحفيين عام ١٩٧٧.

المقالات المنوعة

وفى هذه المحطة الصحفية تقابل الكاتب صلاح منتصر وأديبنا يوسف السباعى الذى كان مكلفًا من قبل السادات بتطهير صفحات الأهرام وفى مقدمتها صفحات الرأى من أسماء وأفكار اليسار، ولمنتصر قصة يرويها لنا عن أول احتكاك مباشر بينه وبين القيادة الجديدة بعد عصر هيكل.

يقول صلاح منتصر: حين تولى السباعى رئاسة مجلس إدارة جريدة الأهرام وبعدها بشهور قليلة رئاسة التحرير بالاشتراك مع المرحوم على حمدى الجمال أبلغنى الأستاذ يوسف بأن الزميل محمد سيد أحمد الذى كان يتولى مهمة الإشراف على صفحة الرأى فى الأهرام منذ سنوات طويلة يعتذر عن عدم الاستمرار، وأنه عهد إلىّ بتوليها وعليه كنت مسئولاً عن كل ما ينشر داخل الصفحة، ولم يسعد السباعى كثيرًا بما كنت أوافق على نشره، بل وأحيانًا كان يعترض رافضًا نشر مقال أو مجموعة مقالات.

ورغم أنى لم أقتنع يومًا بسلامة نظرية عدم نشر أى مقال أو فكرة مادامت جيدة حتى لو كان صاحبها يساريًا وهو ما حاولت بعد ذلك فى مجلة أكتوبر خلال رسالتى لها إعطاء كل الزهور حقها فى أن تتفتح وتعبر عن رأيها خصوصًا وأننا كنا فى ذلك الوقت قد بدأنا نتحدث عن المنابر والحريات.

اتفقنا أنا وهو حتى لا تتكرر الخلافات والاعتراضات بيننا بعد النشر على أن أعرض عليه الأسماء، ولكنه فاجأنى فى يوم بأنه يريد أن يطالع بنفسه أولاً مقالات عدد من كبار الكتاب الذين لا يمتون إلى الفكر اليسارى بصلة، وكانت المفاجأة أكبر حينما اعترض على عدد من المقالات التى كتبها أحمد بهاء الدين ويوسف إدريس وزكى نجيب محمود ونجيب محفوظ، وطبعًا كانت مهمتى الثقيلة هى إبلاغهم بالاعتذار عن عدم النشر.

ويكمل: ولم أكن سعيدًا ولا راضيًا عن هذه المهمة التى بالطبع لم يتقبلها أستاذنا أحمد بهاء الدين الذى امتنع عن الكتابة من بعدها لسنوات طويلة تعدت العشرين سنة، وظللت محتفظًا فى أرشيفى الخاص بعدد من هذه المقالات التى منع نشرها، ومن يقرأ هذه المقالات اليوم، كما قلت فى رسالة بعثت بها إلى الزميلة الكاتبة ثناء

البيسى رئيس تحرير مجلة نص الدنيا ، يعجب من عدم النشر لأن تفكيرها قبل عشرين سنة كان مختلفًا عن تفكيرنا اليوم .

لقد أخرجت هذه المقالات الممنوعة لبهاء وإدريس ومحفوظ وأرسلتها إلى سناء البيسى التى بدأت فى نشرها ، وأرحت ضميرى وأعطيت أصحابها كامل حقهم فى قراءة ما كتبوه بعد طول سنين كما أفسحت لها الطريق لتكون عنوانًا للباحثين والدارسين فى اقتفاء تاريخ النشر والحريات فى مصر .

● وماذا عن صدى نشر هذه المقالات الممنوعة؟

■■ طبعًا كان هناك استغراب واندهاش ولكنى أعتقد أنى أفدت بعض الصحفيين الذين بدأوا يفهمون جيداً قيمة الاحتفاظ بوثيقة وأن أى ورقة يمكن مع الزمن أن تمثل وثيقة خطيرة ، لذا كان يجب لفت نظرهم إلى قيمة أن يكون لكل واحد منهم أرشيفه الصحفى الخاص لأنه من المؤكد أنه سيحتاج إليه فى يوم من الأيام .

ويضيف : الأرشيف جزء من حياتى ، لم أعرف قيمته الحقيقية إلا حينما انتقلت إلى مرحلة من مراحل حياتى للعمل فى مجال البترول لمدة عشر سنوات من عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧٧ حيث بدأت أبحث عن أمل بعد النكسة فتخصصت فى البترول ووجدت فيه بابًا للأمل ، كما تعرفت على شخص يدعى محمود أمين ، رحمه الله ، وهو الذى ساعدنى على ذلك ، إضافة إلى أنى كنت قد قرأت فى الماضى كتابين أثرا علىّ عن الخليج العربى كتبهما «جان جاك دريك» فحول لى الخليج العربى ، بكل الأحجار الثقيلة الموجودة فيه من مغلطات إلى قصة أدبية ، فبدا لى البترول أنه خط درامى أدبى وعليه عملت فى مجال البترول وبدأت أدرس بترول مصر من الأرشيف وهذا قادنى إلى دراسة بترول العرب ثم بترول العالم ، ومن حسن حظى أنى استطعت فى خلال ست سنوات فقط إعداد أرشيف لا يمكن تخيله ، ثم عملت بعد ذلك فى جميع المجلات المتخصصة فى البترول ، وجاء عام ١٩٧٣ ، بحرب البترول وأصبح هو أهم شىء فى العالم وأصدرت من بعده كتاب حرب البترول الأولى .

ويضيف: الحقيقة لقد كان عندى هواية الاحتفاظ بالمعلومات، وذات مرة كتبت مقالا فى أخبار اليوم بعنوان «هيكل للتحدث.. مصطفى أمين»، وكانت حكايتها أنى وأنا أعمل فى أخبار اليوم سنة ١٩٥٤، لم نكن نحصل على مرتبات بل مصاريف انتقال، فكتبت لهيكل كشفًا بعدة موضوعات إلى جانب مصاريف الانتقال وكان مجموعها ٢٢٠ قرشًا، فوقع هيكل بالموافقة وكان مصطفى أمين هو المدير، فكتب على الورقة.. هيكل للتحدث.. مصطفى أمين، واحتفظت بالأصل عندى وحينما حدثت الأزمة بين هيكل ومصطفى أمين كتبت المقال بعنوان عبارة مصطفى أمين لأنه كان يعز علىّ وأنا تلميذ لهذين العملاقين أن أرى بينهما هذا التباعد الذى حدث ذات يوم.

تفاقم الأزمة بين السادات وهيكل

● جاء السباعى على رأس الأهرام بعد أن وصلت الخلافات بين الرئيس السادات والأستاذ هيكل إلى طريق مسدود، وعليه أعفاه من رئاسة التحرير فى فبراير ١٩٧٤، وبالتالى انقلب كثيرون على هيكل تماشيًا مع مصالحهم السباعية الجديدة، ولكنك لم تسايرهم فى توجهاتهم واحتفظت بموقعك فى قائمة هيكل رغم مهامك الجديدة، فهل استشعر السباعى هذه القيم الإنسانية بداخلك أثناء عملك معه؟

■■ بعد انتقال هيكل من الأهرام كان هناك احتمال حدوث الاتفاق بينه وبين السادات، ولكن مع الأسف سارت الأحداث بعد ذلك إلى قطع خط الوصال بينهما، فأصبح مؤكدًا لتفكير السادات أن هيكل الذى بنى الأهرام لابد أنه قد ترك وراءه داخل الأهرام شبكة يجب القضاء عليها، لذا بعد إعفاء الأستاذ هيكل جاء الدكتور عبد القادر حاتم لفترة مؤقتة ومعه على أمين كمدير للتحرير، وهذه الفترة كانت انتقالية من أول فبراير عام ١٩٧٤ إلى مارس ١٩٧٥، لأن الدكتور حاتم كان رئيسًا للوزراء فى ذلك الوقت وكان مكلفًا رسميًا من قبل السادات بإدارة الأهرام حتى يعين رئيسًا جديدًا لها، ومن سوء الحظ حدث خلاف بينهما فى أول اجتماع

لمجلس التحرير، وبخروج على أمين جاء أحمد بهاء الدين ثم إحسان عبد القدوس، واستمر إحسان من عام ١٩٧٥ إلى ١٩٧٧، فقد كان السادات يعتقد أن إحسان سيخلص الأهرام من شبكة هيكل، ولكن إحسان لم يفعل لأنه فى المقام الأول صحفى ولا يستطيع الضرب فى زملائه.

ولم ييأس السادات فأتى بيوسف السباعى لهدف محدد وهو تفكيك شبكة هيكل الموجودة فى الأهرام، وأنا لم أكن أعرفه عن قرب إلى جانب أنى كنت محسوبًا على هيكل الذى جاورته منذ أن بدأت عملى فى آخر ساعة عام ١٩٥٣ ثم الأهرام، فعلاقتى به تمتد إلى أكثر من ٢١ سنة، وبالطبع كان من المفترض أن تكون هناك علاقات سيئة بينى وبين السباعى، وظهر ذلك بوضوح حين تعمدت ألا أتعرف عليه عند دخوله الأهرام لأول مرة واكتفيت بأن أكون الأخير، ومع ذلك فقد نشأت بينى وبينه علاقة وثيقة جداً، وسألت نفسى ماذا كان سيفعل هيكل الصحفى لو كان مكانى، فأنا أمام صراع على أعلى مستوى، وحجمى لا يزال صغيراً ومازلت أشق طريقى، لذلك قررت الابتعاد عن هيكل لا الانقلاب عليه وحددت سياستى فى ذلك إلى أن وصلت فى عهد السباعى إلى منصب مساعد رئيس تحرير.

ويضيف الأستاذ صلاح منتصر: أعتقد أن يوسف السباعى استشعر هذا المنهج لأنى لم أسع يومًا لمرافقته على عكس الآخرين، ومع ذلك قربنى هو إليه عن عمد ليثبت للمتملقين خيبتهم، وحين اقتربت منه وجدته شخصية نقية جداً، فتح لى قلبه ببساطة، وفتحت له أنا الآخر قلبى، وأذكر أنه قال لى ذات يوم تعبيراً لا يمكن أن أنساه وهو أن السادات كلفه بأن يدخل الأهرام على دبابة فاختار هو أن يدخله بعجلة، ومع ذلك ورغم مرونته اقترب منه البعض وسببوا له متاعب نفسية شديدة جداً لحرصه عليهم وتصوره أنهم يوثق بهم.

من مجرد نصيحة.. إلى مجرد رأى

● وبدخوله الانسيابى المرن الذى اختاره لنفسه، هل نجح فى تحقيق الهدف المنشود الذى كلف به؟

■■ الحقيقة هو أراد أن يكون لنفسه مجموعة جديدة ليست لها خبرة فى الصحافة، فأخذ ذلك منه مجهوداً كبيراً وكنت فى ذلك الوقت سكرتير تحرير مركزى مسئولاً عن طبعات الأهرام. وهذا بالطبع عبء ثقيل فوجدته يناقشنى فى ضرورة تطوير الأهرام والبدء بالصفحة الثانية وعمل باب تحت اسم «مجرد نصيحة» فوافقت على رأيه، وكان هذا الباب على مساحة البطاقة عبارة عن كارت من أربعة أسطر على عمود هى نصيحة تكتب بطريقة ساخرة كطريقة أحمد رجب يكتبها يوسف بك بنفسه كنوع من التغيير عن فكرة المقالات التقليدية، وأنا بنظرة الصحفى اليقظ كنت أتربص الفرص وكان لدىّ إحساس دفين منذ البداية أن يوسف السباعى الذى يكتب هذا الباب لن يكمل فيه بسبب مشغولياته المتعددة التى حتمًا ستمنعه من الاستمرار وأن هذا اليوم سيأتى قريبًا جدًا، وعندما حدث ذلك بالفعل كنت أكتبها أنا فى حدود المعنى والهدف الذى يريده، واستمر هذا الوضع حتى ترك لى الباب تمامًا، وبعد فترة من الكتابة بدأت أضع توقيعى عليه «ص. م»، وكانت هذه إحدى الضرائب التى تفرض على الصحفى وهى أن يقدم سلعة لا يتقاضى ثمنها إلى أن يثبت وجوده فيتقدم، خاصة وأنه لم تكن كتابة باب فى الأهرام عملية سهلة، فبدأت كجندى مجهول ثم تسللت تحت اسم «ص. م» ثم أخذت موافقة على طبع اسمى عليه، واستغرق ذلك فترة طويلة حتى رحل السباعى ومن بعده استولى أحد الزملاء على الباب خلال وجودى خارج البلاد فقررت فور عودتى إيقاف الباب.

ويكمل: ولأن الأقدار دائمًا تلعب دوراً فى إعادة الحقوق إلى أصحابها قد تحولت مجرد نصيحة التى كانت لا تتعدى أربعة أسطر إلى «مجرد سياسة» الذى كان ينشر أسبوعيًا كل يوم أحد ثم من بعده «مجرد رأى» كعمود يومى فى جريدة الأهرام، ولذا فلابد أن أنسب إلى يوسف السباعى أنه هو الذى أعطى «مجرد نصيحة» الذى تحول إلى عدة أشكال حتى وصل إلى عمود «مجرد رأى» فى ٢٤ يونيو عام ١٩٧٨.

● دعنى أسألك من خلال جوارك الأهرامى ليوسف السباعى.. هل انتقلت له عدوى كراهية هيكل من الرئيس السادات؟

■■ العكس صحيح، كان السباعى يحب هيكل وقد طرد عددًا من الشيوعيين أكثر مما طرد من أنصار هيكل، فهو على المستوى الشخصى وبعيدًا عن تكليف السادات له كان معجبًا بهيكل الكاتب وجرأته وأسلوبه السهل الممتنع، ومشاعره فى النهاية هى التى تغلبت عليه لأنه كان إنسانًا من الدرجة الأولى وشعر منذ اللحظة الأولى أن الأهرام مؤسسة ضخمة وتحتاج إلى نوع من الإدراك والوعى واللجوء إلى الأساليب الأساسية لفنون التعامل، حيث إن الوضع كان مختلفًا عما سبق بالنسبة له حين كان وزيرًا للثقافة والإعلام فباستطاعته أن يعطى قرارًا فينفذ على الفور، كان يعلم أن العمل الصحفى مختلف كل الاختلاف، ولايكفى أن يعطى قرارًا بل لابد أن يكون هناك نوع من المرونة الذكية خصوصًا وأنه جاء كالغريب لا يعرف أحدًا، وفى نفس الوقت عليه أن يواجه خصوم وأعداء ورافضين ومنافقين ومتحالفين لم يرهم من قبل، وهذا بلا شك حمل ثقيل وعبء لا يوصف وخاصة وهو الأديب المرهف البعيد كل البعد عن هذه الصراعات غير الإنسانية.

اتهم السباعى بالقضاء على الفكر الاشتراكى

● اتهم يوسف السباعى حين تولى منصب نقيب الصحفيين بأنه قضى على الفكر الشيوعى فى مصر حين قلص من مساحات البوح له، بينما أطلق العنان لليمين يشطح كما يحلو له.. فما تعليقك على ذلك؟

■■ لقد رشح نفسه نقيبًا للصحفيين أثناء رئاسته لمجلس إدارة الأهرام، وكان على حمدى الجمال رئيسًا للتحرير، وأذكر أن السادات وجه له اللوم لأنه لم ينفذ أمر التكليف بالقضاء على شبكة هيكل كما كان يحلم الرئيس، فبرر السباعى هذا التقصير من جانبه بسبب أنه لا يملك السلطة كرئيس لمجلس الإدارة على التحرير، وهو ليس رئيسًا للتحرير حتى يوافق أو يعترض أو يعدل أو يحذف أى نشر، وعليه فقد عينه السادات كرئيس للتحرير لكى تكون له السلطة الكاملة والكلمة العليا المسموعة والمنفذة، وبالفعل كان يحذف فقرات ويعتمد على مقال بأكمله تمشيًا مع سياسة السادات واتجاهاته السياسية، وبالتالى قلص من مساحة اليسار فى الجريدة وأفسح الطريق لغيرهم من المحايدين.

● كان السباعى أحد الرافضين لأدب الشعارات الذى كان يطلق عليه الأدب الأسود أو الإرهاب الأدبى لما يحمل من أساليب مضللة لا أساس لها من الصحة، هل كان رومانسيًا بعض الشىء . . أم أن وجهة نظره الصحفية كانت صائبة؟

■■ مقاييس الحياة تختلف لدى البشر، فالحياة فى نظر البعض لقمة، وفى نظر البعض الآخر نسمة، وفى نظر آخرين نقمة، أما عند يوسف السباعى فالحياة فى نظره هى الحب والسلام والإيمان، لذا كان يهاجم أصحاب الأقلام المتعنتة محاولاً توجيههم إلى جمال الدنيا بعيداً عن نظرتهم القاتمة لها، مقتنعًا بأن أدب هؤلاء كاذب وأنهم يسيرون مع الموجة، ومن هنا جاءت كراهيته لهؤلاء المتشددين فى الأدب والكتابة عمومًا بحكم طبيعته الهادئة العاشقة للسلام.

● وما الاتجاه الذى كان يغلب على مقالاته؟

■■ الاتجاه الجماهيرى، فأغلب مقالاته نشرها بالأهرام ولا يمكن القول عنه إنه كان كاتبًا سياسيًا، وإنما كان بلا شك كاتبًا اجتماعيًا من الطراز الأول.

كشف حساب مهنى:

● بنظرتك المهنية الخالصة ليوسف السباعى ما الذى كان ينقصه ككاتب؟

■■ يوسف السباعى كان شخصية متناقضة فى شىء غريب جداً فهو كان شخصًا أنيقًا جداً فى ملبسه وسيئًا جداً فى نظام كتابته، بمعنى أنه ليس هناك صفحة يكتبها إلا ويملؤها بالشطب والتعديل والحذف والإضافة، والكاتب المتمكن من أدواته لابد أن تكون صفحته نظيفة، أنيقة ولا يتردد كثيراً فيما يكتبه، لأنه لابد أن يكون حاضر الذهن ومرتب ودقيق ومتدفق الكلمات والجمل، وأنا لا تزال عندى أوراق بخط يده تحمل هذا الكم الهائل من السطور المشطوبة والمحذوفة والمعدلة.

● وعلام يدل ذلك؟

■■ أنا أعتقد أن هذا يرجع إلى أنه فى الفترة التى كان يتولى فيها الأهرام كان مشغولاً بشدة وبالتالى لم تكن لديه الفرصة الكافية للاستقرار ككاتب، وعليه كان

يكتب المقال بسرعة وحينما يبدأ فى مراجعته يشطب، وأذكر جيداً أنه كان يطلب منى البروفة فأؤكد له أنى راجعتها بالحرف، فيعود ليقول لى إنه يريد أن يراها بنفسه مطبوعة لأن هذا سيسعده جداً.

الحقيقة كان شخصية عفوية جميلة ولطيفة جداً وليس من الصعب اكتسابه بشرط ألا تكونى شيوعية.

لقد جئت إلى الأهرام كى أمشى بين الناس وليس عليهم

نهال شكرى . . مساعد رئيس تحرير الأهرام وأول سيدة عربية فى الصحافة ترأس قسم الأحزاب ، وأيضًا من جيل الشباب الذى تم اكتشافه ورعايته على يد يوسف بك السباعى ، ترى أن خطوات هذا الفارس كانت مثمرة فى كل مجال وبناءة فى كل مكان وداعمة لكل فرد ، فهى لا تزال تذكر مقولته الشهيرة التى قالها فى أول يوم توليه رئاسة تحرير جريدة الأهرام : «لقد جئت إلى مبنى الأهرام لكى أمشى بين الناس وليس عليهم» .

وبدأ حوارى معها عن يوسف السباعى الأب الروحى الذى كان يمثل لها الدفعة الأولى لوضع أقدامها على سلم أرض مؤسسة الأهرام . .

تعود بذاكرتها إلى الوراء وتقول «كان ذلك فور تخرجى من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، ففى البداية كان أملى الوحيد يرتكز على الالتحاق بالخارجية وفى نفس ذات الوقت كنت أعشق الكتابة ، ولكنها كانت مجرد محاولات هاوية ، لا تحلم بالنشر . فقد كنت فقط أكتفى بعرض ملحوظاتى عن كل ما يدور حولى وكأنى ناقدة أكتب مقالة يومية ، أما الذى غير وجهة نظرى بل ومسار حياتى كلها كان قريبى الفريق كمال حسن على زميل عمر الأستاذ يوسف السباعى ، هو الذى نصحنى بتفريغ هذه الهواية وثقلها عن طريق التدريب والاحتكاك المباشر بالمجال الصحفى ، وبالطبع لم يكن هناك خير من جريدة الأهرام وخير من الأستاذ يوسف السباعى ، الأب الروحى لجيل من الشبان والشابات الموهوبين الذين أعطى هو لهم

الدفعة والثقة والعزيمة والفرصة الذهبية أيضًا وأنار أمامهم الدرب لكى يعبروا عن أنفسهم لقد أتاح لجيل كامل أن يعلو ويرتفع وكنت أنا من بين هؤلاء.

الصحيفة الدبلوماسية

● هل شعرت أنه كان الاختيار الأفضل والطريق الأسمى من ذلك الذى سيطرت معالمه أم أنه لا يزال هناك حنينًا للخارجية قابع فى داخلك؟

■■ طبعًا الله سبحانه وتعالى هو الذى يشاء فيكون ويرسم خطوط وأعتاب ونواصى كل فرد فى هذا الكون لماضيه الخير والصلاح.

والأهرام بالنسبة لى كان بوابة أمل من نوع جديد، فى البداية لم أشعر بقيمتها وإنما بمرور الوقت والأيام اتضح لى مكانة هذا الصرح وأنه أيضًا لم يبعدنى عما كنت أمارسه وأحلم به من قبل، العكس صحيح، لقد قربنى أكثر مما كنت أبغى بل وساهم إلى حد كبير فى تميزى وساندنى فى تدرجى الوظيفى إلى أن صرت الآن رئيس قسم الأحزاب، كما أن متعة السفر لم أحرم منها كما كنت أتخيل وقتها وإنما جاءتنى بالصورة التى تتوافق مع ظروفى، فلو كنت قد سلمت نفسى لحلم الخارجية، أعتقد أنى كنت سأحرم من الاستقرار نتيجة تنقلى من بلد إلى آخر، أما الآن فأنا أزور كل البلاد التى أُدعى لها وأرى ما إذا كان التوقيت يناسب ظروف عملى وبيتى وعليه أقرر المغادرة أو الاعتذار وهذا بالطبع لم يكن ليحدث فى الخارجية، والتى كنت سأرضخ لأوامرها ومقتضى قراراتها مثلى مثل أى موظف، لا يستطيع أن يرفض تمثيل بلده فى أى منطقة من المناطق على خريطة العالم. وإلا كيف أكون دبلوماسية.

الحقيقة أنا مارست الدبلوماسية وأنا فى جريدة الأهرام عن طريق الاشتراك فى مؤتمرات محلية ودولية وألبى العديد من الدعوات والتى تدعم بلدى من خلال انتمائى لجريدة مصرية قومية مثل جريدة الأهرام.

نهال شكرى المصرية لا العراقية

● حدثينى عن أول يوم لك فى مؤسسة الأهرام تحت لواء قيادة الفارس يوسف السباعى؟

■■ الحقيقة كنت قد عزمت على الالتحاق بمركز الدراسات لأنه أقرب ما يكون إلى دراستى السياسية، وأذكر وقتها أنه حُدد لى ميعاد لمقابلته وذهبت بالفعل فى الميعاد المحدد لى، واستقبلنى بابتسامته الشهيرة المحببة إلى كل القلوب والتى كانت كفيلة بإلغاء أى نوع من الحرج أو الخوف سيطر علىَّ وقتها وصارت المقابلة على خير، وسألنى لماذا اخترت جريدة الأهرام وأطلعته من البداية أنى منذ الصغر وأنا مُتيمة بالقراءة والكتابة وأعشق رواياته هو تحديداً ولم أكن أتخيل يومًا أن أجلس معه وجهًا لوجه.

وتكمل: المهم أننى أعلمته أنى أكتب فى مجال السياسة وهو مجال تخصصى ولدىَّ رغبة شديدة فى الالتحاق بمركز الدراسات السياسية، فقال لى أنه لا يجوز الآن فقد سبقنى ثلاثة ولا سبيل لأى زيادة وعرض علىَّ الالتحاق بقسم الشئون العربية بدلاً منه فوافقت وكان الأستاذ زكريا نبيل فى ذلك الوقت رئيسًا لقسم الشئون العربية. فذهبت بأوراقى له وفوجئت بالأستاذ زكريا يتعجب من تشابه اسمى مع اسم أخرى عراقية تحمل نفس ذات الاسم وسبق أن رفض تعيينها الأستاذ يوسف بحجة أنه يعزم على تعيين المصريين فقط فى هذا القسم، ولا لأى جنسيات أخرى.

وطبعًا اندهشت من المصادفة العجيبة وشكرت الله على أنه وفقنى لأنها جاءت فى مصلحتى.

الهبة السباعية

● هل استشعر جيلك كله هذه الهبة السباعية؟

■■ نعم، فكل من دخل جريدة الأهرام وقتها وبدأ العمل في عهد يوسف السباعى يستشعر بحق هذه المساندة الداعمة التى وهبها يوسف بك للشباب، وهو

للحق كان كذلك فى كل مكان وجد فيه، كان دائمًا يشع عطاء وحماس لكل من حوله وبخاصة الشباب الموهوب، سواء فى دار روزاليوسف، أو مجلة آخر ساعة أو وزارة الإعلام أو حتى فى المجالس المختلفة وأخيرًا الأهرام.

وتضيف: كنا جيل بأكمله، لو استعرضنا فى الأقسام المختلفة سنجد الأستاذة سلوى غنيم فى القسم الاقتصادى والأستاذ عبد العظيم درويش، رحمه الله، فى قسم الأخبار، والأستاذ شريف العبد والأستاذة مشيرة موسى، مجموعة كبيرة جدًا، تم توزيعها الآن فى الأقسام المختلفة.

والآن بعد مرور الزمن أصبحنا جميعًا بلا استثناء فى مواقع قيادية، لا أحد يستطيع أن ينكر دوره وتشجيعه لنا ولغيرنا، كانت سياسته تقوم على فتح الباب لكل شاكى أو معترض قبل الزائر، كان مفتوح الروح والمسام لكل طالب عون، كان صديق للكل، قريب من الكل، محتفظ بهيبته ومقامه واحترامه وتقديره من الجميع لم نشعر أبدًا أننا صغار فى السن، بالعكس كنا نشعر أننا فى مثل سنه، أو بالأحرى هو الذى فى نفس سننا، وذلك لطيبة قلبه وبساطته وتواضعه الشديد.

وتضيف: يوسف السباعى كان دائمًا أبانا الروحى وشقيقنا الأكبر وصديقنا اللدود واليد الحانية التى تُمد بالعون لكل منا بدون أى اعتبارات أو حسابات.

التيار الرافض له

● وكيف يكون يوسف بك بهذه الخصال الفريدة ثم يظهر من يعترض عليه ومعه، بل وفى وجهه، مَن كانوا يرفضونه بما أنك كنت من مريديه؟

■■ هؤلاء الذين كانوا يختلفون مع كائن بلطف وعذوبة ورقة قلب يوسف السباعى، هم أولئك المقاومون لأى تيار متطور ومتجدد، فحين جاء هو أحدث تغييرًا كبيرًا على جميع المستويات وبالطبع هذا أضاف للبعض وأخذ من البعض، لذلك كل من أُخذ منه منصب أو كرسى أو صلاحية، كان من بين الذين يعترضون على وجود يوسف السباعى، بل ويصدمون به فى كل مناسبة، لكن فى النهاية لم يشكلوا سوى أقلية.

وتضيف : وأذكر أنه كانت له عبارة شهيرة كان يقولها دائمًا بين الحنين والآخر وهى أنه جاء ليمشى بين الناس وليس عليهم، جاء ليكون معهم وليس ضدهم .

مكافأة الثلاثة أيام

● هل تذكرين له مواقف إنسانية خاصة جمعت بينك وبينه؟

■■ أذكر تمامًا وكأنها حدثت بالأمس، ففى ثالث يوم تعيين، أتذكر أنى قابلته بالصدفة فى أحد ممرات مؤسسة الأهرام وسألنى بلطف عن انطباعى المبدئى على سير العمل الذى نقلت له في الشئون العربية وما إذا كان ينقصنى أى شىء، فقلت له بمنتهى البراءة تصور يا أستاذ يوسف، أن لى ثلاثة أيام أعمل فى الأهرام، ولم يخصص لى أى مكافأة. فضحك على طفولتى وذهبت معه إلى المكتب وأعطانى ورقة مكتوبة بخط يده تتضمن جملة واحدة موجهة للأستاذ رائد لبيب، رحمه الله، وهى يرجو السماح بصرف مبلغ ٣٠ جنيهًا للأستاذة نهال شكرى المعينة بقسم الشئون العربية مكافأة على جهودها، وبالفعل ذهبت إلى الخزنة وصرفت الشيك وسعدت سعادة بالغة لأنى شعرت وقتها أنى كائن له كيان وهدف يعمل من أجله .

تضيف : هذا فضلاً عن بدل السفر الذى كنت أحصل عليه دومًا فى كل سفرة من أسفارى نتيجة مشاركتى فى المؤتمرات العربية أثناء عملى بجامعة الدول والذى دفعنى نحوها أيضًا يوسف بك، أتذكر أنه كان شديد العطاء، ولم يبخل على أحد لا بالدعم المادى ولا بالمعنوى، كان يعطى كل ذى حق حقه بمنتهى العدل، لدرجة أننا كنا نقدم الطلبات وننساها فيذكرنا هو ويستدعينا إلى مكتبه لأخذ إمضاءه وصرفه .

كان نبيلاً حتى مع معارضيه

● تكلمنا عن رافضيه وكيف كانوا يعترضونه، السؤال هنا، كيف كان رد فعله هو مع هؤلاء الرافضين، هل كان يبادلهم الرفض برفض؟

■■ إطلاقًا، كان لطيفا حتى مع أشد الناس رفضًا له وإذا شعر بأى تجاوز يكتفى بالتجاهل المطلق ويستمر فى سياسته الحكيمة ومسيرته البناءة. حين يقولون إن يوسف السباعى فارس الرومانسية مع احترامى البالغ لهذه التسمية، أعترض على الكلمة الثانية لأنها تحدده فى نطاق ضيق وأركز على اللفظ الأول وهو الفارس، يوسف بك كان فارسا فى كل مكان ومجال ومع كل شخص يعرفه ولا يعرفه، مؤيد له أو رافض، لم يفرق بين أحد، لم يتجاوز أحدا ولم يظلم أحدا. لذا جاء لقب الفارس اسم على مسمى، ويكفى أن أقول لك أن من كان يعترض على يوسف السباعى فى حياته بكاه فى مماته وانتقده بشدة وهذا أكبر دليل يثبت حسن تعامل وسير وسلوك هذا الفارس النبيل.

بصمات السباعى الأهرامية

● اسمحى لى أن نقيّم بصمات السباعى على جريدة الأهرام خلال عامين منذ أن تولى عام ١٩٧٦، وحتى اغتياله عام ١٩٧٨؟

■■ يرجع له الفضل الأول والأخير فى دخول جيل كامل نشأ على المحبة والثقة والعمل بدون خوف، بدون قلق، هذا الجيل نشأ على هذه المفاهيم الإنسانية رغم ذيوع وانتشار مناخ المنافسة الشديدة فى ذلك الوقت، كان يحتضن هذا الجيل بقوة وثبات ويبحث له عن متنفس ومشروعية، بفضله أصبح هذا الجيل له كيان ومن خلال هذا الكيان السباعى أصبحنا جميعًا قيادات مشرفة فى مؤسسة الأهرام، لقد تعلمنا كيف نتحلى بالمبادئ الإنسانية قبل أن يكون لنا مبادئنا المهنية تعلمنا على يده ميثاق الشرف الإنسانى قبل ميثاق الشرف الصحفى وأقسمنا جميعًا يمين العدل والإنصاف، قبل حلف يمين المشتغلين.

وجـــه

الوزيــر

الفنـان

وزارة الثقافة لا تصنع الثقافة

أعترف بأن مسئولية وزارة الثقافة، أثرت عليّ كأديب . . لكن روح الأديب، لا يمكن أن تموت بداخلى . . فهى حية تتنفس كالنبض فى العروق . . من الممكن أن يقلع الأديب عن الكتابة . . لمدة عام أو عامين ثم يعود كما كان . . بل قد يعود بمستوى أفضل مما كان عليه .

مثلما سطر أديبنا ومفكرنا السباعى بقلمه صفحة ناصعة من تاريخ الأدب الحديث . . كان مستقبل ثقافة مصر نصب عينيه فقد خط بجهده منهجًا يلتزمون به فى مسيرتهم الحياتية، أعطاهم القنديل ليوفر عليهم عناء البحث عن الهداية والطريق السليم .

فهل أخلص الأبناء لتراث الآباء وهضموا ما تلقوه أم تراهم أدخلوا تيارًا غريبًا مستوردًا إلى نهر الثقافة وبالتالى انقطع الحبل السرى وانقطعت معه جذور الأوصال؟ لا أعتقد، فقد يرحل المفكر الكبير أيًا كان اسمه . . طه حسين، عباس العقاد، توفيق الحكيم، زكى نجيب محفوظ، يوسف إدريس، عبد الرحمن الشرقاوى، أحمد بهاء الدين . . ولكن يبقى أثره الإبداعى ميراثًا تتلقفه الأجيال جيلاً بعد الآخر . .

فهى ليست كلمات فى الهواء قيلت ذات يوم أو خطوط أثرية على أوراق صفراء، وإنما ملامح عصر بأكمله هو الذى أعد شعبًا طيب الأعراق ستظل هذه الملامح ماكثة فى الأرض حتى وإن رحل فرسانها إلى السماء . . . دعونا الآن

نستمع لهنيهات مضيئة أشبه بومض البرق جاءت على لسان يوسفنا السباعى فى حديث إذاعى أجرته معه الإعلامية الراحلة آمال العمدة.

آمال: ما رأيك فى نظام التفرغ بالنسبة للكاتب؟

■■ يوسف السباعى: منذ أن وُضع نظام التفرغ وأنا لى فيه رأى خاص حيث كنت أريد أن يكون هذا النظام بمعنى التفرغ من العمل الذى يمنع الكاتب عن الإنتاج الفنى، وأنا كان يمكن أن أحتاج للتفرغ فى وقت ما من حياتى ولكن لم تتح لى الفرصة، وسواء أنا أو نجيب محفوظ أو إحسان عبد القدوس أو محمد عبد الحميد عبد الله أو كل جيلنا، فقد أنتجنا كل ما أنتجناه ونحن مغمورين فى وظائفنا التى لا علاقة لها بالأدب، فأنا كنت ضابطًا فى القوات المسلحة لمدة ٢٥ سنة، و«نجيب محفوظ» كان موظفًا فى وزارة الأوقاف، و«إحسان عبد القدوس» كان رئيسًا للتحرير ومنهمكًا فى العمل السياسى، و«عبد الحليم عبد الله» كان موظفًا بالمجمع اللغوى، و«عبد الحميد جودة السحار» كان موظفًا فى الطيران ثم شغل منصبًا قياديًا فى شركة الحراريات، وأنا رأيى أن إنتاج الأديب يمر بمرحلتين، أولاهما مرحلة الإبداع الداخلى التى يتكون فيها الأدب فى باطنه ويبدأ بشرارة الإلهام التى توحى له بكتابة القصة، ثم يأتى دور الانفعال والتأثر بشىء، ثم يبدأ تشكيل القصة بأبطالها وكل تفاصيلها فى ذهنه أو فى نقاط معينة على ورق حتى تنضج هذه الأفكار وتصبح جاهزة لكى تتحول من داخله إلى كتابة على الورق، وهذه المرحلة لا تحتاج إلى تفرغ بل العكس فهى تحتاج إلى عدم تفرغ، وأن يعيش الإنسان حياته الطبيعية بين الناس، فلابد أن ينفعل بالمجتمع ويشعر به ويلتصق بكل الأفراد الذين يشكلون هذا المجتمع، ويعيش معاناة المجتمع وآلامه وأحلامه وأحداثه، فيجب أن يتشبع بكل هذا، وطبعًا هذا لا يحتاج للتفرغ بل لأن يعيش حياته الطبيعية أيًا كان عمله سواء كان طبيبًا أو ضابطًا أو تلميذًا أو أى عمل آخر فيجب أن يعيش حياته التى يعكسها العمل الفنى، أما لو كان الكاتب يريد الخوض فى حياة غير حياته فقد يحتاج وقتئذ إلى تفرغ، كما يفعل بعض الكتاب الذين يكتبون عن النيل ويحتاجون للعيش فى النوبة أو لتنظيم رحلة فى النيل، وفى هذا الوقت قد تكون حياة هؤلاء الكتاب العادية قد استنفدت تجاربهم، وأصبح يحتاج

إلى الانتقال إلى حياة أخرى فهو يحتاج وقتها إلى التفرغ، أما المرحلة الثانية وهى مرحلة تنفيذ الأفكار وتحويلها إلى الكتابة فهى تحتاج فعلاً إلى التفرغ ويحتاج الكاتب فيها إلى إغلاق حجرة على نفسه ويفرغ كل ما فى باطنه مما اختزنه من أحداث، وهذه هى قاعدة التفرغ، ولكنى أرى أنها تحولت بمرور الوقت إلى نوع من المنح التى تمنحها وزارة الثقافة لأديب لا يجد رزقه، فيكون نوعًا من تفرغ المتفرغ، وإما أن يكون الكاتب أو الأديب فى مستهل حياته ولم يعمل بعد فتعطيه الوزارة مرتبًا للتفرغ لكى يعيش به، وتكون النتيجة أنه بعد أن ينهى فترة التفرغ يكون قد اعتاد على مستوى معين من الحياة فيطلب التفرغ ويرفض طلبه ويصبح عاطلاً، فأنا أجد أن هذه الحالة لا تحتاج إلى تفرغ بل تحتاج إلى العكس حيث يجب وضع هذا الأديب الشاب فى عمل ما ويكون هذا العمل قريبًا من مجال الأدب بقدر المستطاع، وهذا هو ما فعلته مع كل الحالات السابقة التى طلبت منى التفرغ، وهذا هو المفروض فيجب أن يعمل الأديب ويعيش الحياة التى أهّله الله لها أيًا كانت لأن التفرغ لا يمكن أن يدوم للأبد، وأنا أحاول بكل طاقتى أن أوجد لهؤلاء الأدباء عملاً سواء فى الصحافة أو فى الثقافة أو فى أى جهة يأمن فيها ويستقر ولا يقلق على مستقبله، وذلك حتى من قبل أن أصبح وزيراً للثقافة ومن ضمن هؤلاء الشاعر أمل دنقل ويحيى الطاهر عبد الله والكثير من جيل الشباب الذى أرى أن من حقه أن تؤمن حياته حتى لا يعانى من الفزع أو القلق خاصة حينما يكون لديه زوجة أو أولاد، لأن إحساسه بأنه مسئول عن أسرة تولد لديه شعوراً بالرغبة فى الاستقرار والحصول على مرتب ثابت يؤمن به حياته، فأنا أحذر من هذا التفرغ. وهناك نوع آخر من التفرغ وهو تفرغ أصحاب المعاشات وهو يمنح لطبقة من الأدباء الذين بلغوا سن المعاش ويعانى من قلة هذا المعاش فيطلب التفرغ، ولا يوجد معنى لأن أمنح التفرغ لأديب بلغ سن المعاش وأصبح متفرغًا بالفعل، ولكن الصواب هو تأمين حياة هؤلاء الأدباء من قبل الدولة، إذا لم تكن معاشاتهم تكفيهم، ويبقى التفرغ الحقيقى، وهو أن يكون الأديب عاملاً فى عمل يمنعه بالفعل من الإنتاج فأعطه ما يسمى بإجازة بمرتب وهى أن أمنحه ما يعادل مرتبه وأفرغه من عمله لمدة عام أو عامين ينتج فيهما ما يستطيعه من إنتاج ثم يعود إلى عمله مرة أخرى، فالتفرغ فى نظرى إجازة بمرتب.

آمال: هذا بالنسبة للأدب والأديب، ولكن ما رأيك فى التفرغ الذى يمنح للفنانين التشكيليين؟

■■ يوسف السباعى: الفنون التشكيلية لها وضع آخر لأن الفنان التشكيلى لا يستطيع أن يعيش من عمله الفنى إلا إذا كان يعمل كرسام كاريكاتير فى الصحافة. وأنا أرى أنه يجب توفير الوظيفة المريحة لهؤلاء الفنانين بحيث لا تبعده هذه الوظيفة عن جو الفن، فأنا أحاول استيعاب الكثير من هؤلاء الفنانين فى وظائف قريبة من إبداعهم، وأحاول عدم الإثقال عليه بعمل مرهق، وأيضًا تساعده الدولة سواء باقتناء بعض إنتاجه أو بمنحه مرتبًا، فإذا شعر فى فترة من الفترات بضغط العمل وبأنه يريد تفرغًا كاملاً لينهى أعماله، وقد يكون سبب هذا التفرغ أيضًا أنه يريد الانتقال إلى البيئة التى يريد أن ينفعل بها، فإذا وضع التفرغ بهذا الشكل الدقيق، فسيكون مفيداً أو مجديًا للفن والفنانين والأدباء، أما النوعين الأولين من التفرغ فأنا أحذر منهما لأن لهما آثاراً خطيرة جداً.

آمال: ما هى الخطوات الإيجابية التى قامت بها وزارة الثقافة بقيادتك لاحتضان المواهب الشابة؟

■■ يوسف السباعى: أنا على يقين أن المواهب الشابة ستفرض نفسها رغم أنف كل إنسان بحكم حركة الزمن، ويجب أن يعلم الجميع أن المواهب لا تبقى شابة طوال عمرها، فأنا كنت منذ عشرين عامًا شابًا أنادى بإتاحة الفرصة للأدباء الشباب لكى يثبتوا أنفسهم، وبعد عشرين عامًا مرت كالبرق وجدت نفسى فى وضع المطالب بمنح الفرصة للشباب وأنا أخذت هذا الوضع المقدر لى، رغم أنف كل المعوقات، فالمواهب والكفاءات ستأخذ وضعها بعد فترة من الزمان رغمًا عنا وعن الجميع، لذا فلا مجال للقلق من هذه النقطة، لكن المطلوب أن يكون هناك نوع من المعاونة وإزالة العراقيل، التى قد تصدمهم بطريقة غير طبيعية وأنا أسمى هذه المساعدة على النضج وليس محاولة تجديد، وهو ما يشبه مساعدة ثمرة الفاكهة على النضج بوضعها فى مكان مناسب لها، وليس وضعها فى مكان يعطل هذا النضج، فمحاولات إنضاج الشباب وإتاحة الفرصة لهم تتحقق أولاً بإعطائهم العلم الكافى

لأن هذا هو رصيدهم فى المستقبل، فلابد من إعطائهم التغذية العلمية الكافية ثم إعطائهم التجربة دون أن يواجهوا العمل المباشر بشكل مفاجىء، وهذا يشبه العمل الفنى حيث يبدأ المخرج الشاب العمل بطريقة «الأسطوات»، فيكون مساعداً لمخرج كبير يشبه «الأسطى وصبيه» ويرتقى درجة درجة حتى يصبح هو الأسطى الكبير ويتبنى صبيانًا يتدرجون أيضًا، وفى الأدب تزيد على ذلك الأساس العلمى ثم يمر بعد ذلك، بمرحلة التجربة مع أستاذ من الأساتذة لكى يتعلم، وحينما تتاح له هذه الفرصة، ولو كان موهوبًا بحق فسيفرض نفسه على أى ظروف تواجهه، وفى دنيا الفن هناك مثالان على ذلك هما المخرجان حسين كمال وشادى عبد السلام اللذان أصبحا من كبار مخرجينا بالعمل بالشكل الذى شرحته من قبل.

آمال: المخرج «شادى عبد السلام» قام بإخراج فيلم «المومياء» الذى نال الإعجاب الشديد خارج مصر، فما رأيك فى هذا الفيلم؟ وما رأيك فى عدم عرضه فى مصر إلا بعد فترة طويلة من عرضه فى الخارج؟

■■ يوسف السباعى: شادى عبد السلام تألق فى فيلم «المومياء» بشكل كبير وحصل على كل فرصة بهذا الفيلم الذى نجح هذا النجاح الباهر الذى تستحقه طبيعة الفيلم، ورغم نجاحه فى الخارج إلا أنه ظل خمس سنوات لا يعرض فى مصر لأن مخرجه رفض عرضه، وأنا رأيت هذا الفيلم فى اليابان ورأيت مدى إعجاب الناس به، وحينما عدت إلى مصر طلبت منهم عرض هذا الفيلم على الجماهير المصرية فتحججوا بسوء حالة النسخ الموجودة لدينا فطلبت منهم علاجها بسرعة لكى تعرض، ولكن مر عام كامل على هذا الطلب دون أن يوافق مخرجه حتى أمرت بعرضه رغمًا عن «شادى عبد السلام»، والحقيقة أننى أفهم مخرجه جيداً، فلقد عرض الفيلم فى السينما المصرية لمدة أسبوعين لم يلق فيهما النجاح المتوقع، لأن الفيلم غير ملائم للجماهير المصرية، ولا لوم فى ذلك على الفيلم أو على الجماهير لأنه لا يجوز أن يصلح كل شىء فى كل المواضع، بل كما يقال «إن كل فولة لها كيال»، فشعرت بقلق «شادى عبد السلام» على الفيلم بعد أن حقق نجاحه الخطير فى الخارج، ولكن هذا القلق ليس فى محله لأن الفيلم حقق ما صنع من أجله، وحصل على كل الألقاب والنياشين التى يستحقها لكن لابد من عرضه فى

مصر لأن هذا العرض أطلق الشائعات التى تتحول بعد فترة إلى حقائق، ونفس هذا الأمر اتبعته مع المخرج «محمد راضى» فلقد منحته الفرصة وأعطيناه قرضًا وصل إلى خمسين ألف جنيه لكى يقوم بإخراج فيلم «أبناء الصمت» واستطاع أن يخرج فيلمًا جيدًا، وأى مخرج مثل «شادى أو راضى» يجب أن يحصل على فرصته كاملة، وأيضًا نحن نشترط فى أى فيلم نساعد فيه أن يكون ٢٠٪ على الأقل من فريق العمل من المواهب الشابة.

آمال: أين الفنان «يوسف السباعى» وهل تقلص إنتاجه الفنى بعد أن شغل منصب وزير الثقافة؟

■■ يوسف السباعى: مسئولية الوزارة أثرت علىّ كأديب، وأنا أعتقد أن روح الأديب لا يمكن أن تموت بداخله، لكن يمكن أن يُقلع الأديب عن الكتابة لمدة عام أو عامين ثم يعود كما كان بل قد يعود بمستوى أفضل، ولا يعنى عدم ظهور فن مكتوب أنه لا يوجد أى فن، فأنا لدىّ داخل عقلى ثلاث روايات مختزنات وكأنها مكتوبة على الورق، وتحتاج التفرغ لكتابتها.

آمال: فى رأيك.. ما هى الطريقة المُثلى للتعامل مع الشباب؟

■■ يوسف السباعى: الشباب ما هو إلا مرحلة من العمر نمر بها جميعًا، فمن الخطأ تجسيد فترة الشباب، فالشباب ليس كائنًا حيًا ولكنه فترة زمنية، فالشخص خلال مروره بسن معينة أو مرحلة من تاريخ العمر يسمى شابًا ويتميز بأشياء مختلفة عن المراحل الأخرى من حياته، فالشاب يتميز بصفات أهمها القدرة الروحية والجسمانية التى تدفع الشاب لعمل الكثير، وتكون الآمال متفتحة ويغلب الإيقاع السريع والعنيف على حياته، وهذا النشاط هو أميز ما فى حياة الشباب، لكن الشباب يفتقد نوعًا من التعقل الذى لا يشعر به إلا بعد تخطى مرحلة الشباب ومراجعة تصرفاته فى هذه المرحلة، وهذا التعقل يستطيع الشباب أن يكسبه ويتنبه إليه من خبرة من سبقوه ممن مروا بنفس هذا الحدث تمامًا فيوجهون له النصيحة، وبهذه الطريقة يتجنب هؤلاء الشباب ما يسمى «طيش الشباب» وهذا الطيش هو الخطايا والحماقات التى تدفع إليها القوة والعنف والرغبة الشبابية فى إنجاز كل شىء

بسرعة، ويتميز الشباب أيضًا بأن أجيالهم تختلف فى كل فترة عن الأخرى، فأنا مثلاً فى العشرينات من عمرى كان لدىّ نفس الطاقة الشبابية التى يمتلكها ابنى، لكن جيلى له أوضاع وسمات معينة تختلف عن أوضاع وسمات جيل ابنى، وكانت تحكم تصرفات سمات جيلى غير سمات مرحلة الشباب التى كنت أعيشها، والمطلوب أنه مع التسليم للشباب بتجاربه الجديدة وقدرته التى يمتلكها بسبب مرحلته السنية والمرحلة المتميزة التى يعيشها بسبب تقدم العصر الذى يعيش فيه، فيجب أن يعلم الشاب أنه قد نبع من شىء قيم، ولا ينسى من كانوا قبله لأن هؤلاء منحوه الخبرة، فلابد أن يحترم هذا، ولابد أن يذكر أن والده وعمه والكُتّاب والفنانين السابقين عليه قد مروا بتجارب يمكن أن يستفيد هو بها، وأيضًا لابد أن يحب هؤلاء السابقين عليه لأنهم جزء منه، فهو يستطيع التمرد على وضع وليس على شخص، وأيضًا يجب على من تعدوا مرحلة الشباب ألا يتعاملوا مع هؤلاء الشباب وكأنهم فى نفس سنهم، بل يجب عليهم إدراك أن هؤلاء الشباب يعيشون فى مرحلة مختلفة لها مقومات وخصائص مميزة، ويجب أن نعاملهم حسب السن والظروف ونعطيهم حق التجربة الجديدة مع إعطائهم الخبرة والنصائح وإفهامهم مدى فوائد هذه النصائح والتجارب دون الضغط عليهم، بشرط أيضًا ألا تنكر عليه تجاربه الجديدة.

آمال: إذا طبقنا ما قلناه على سوق العمل مثل السينما والمسرح والنقد، فهل ينطبق عليه نفس الكلام؟

■■ يوسف السباعى: أعتقد أن هذا ينطبق على الحياة كلها وأن ٩٠٪ من شباب مصر يفعلون ما قلته، وهذا ألمسه من علاقتى بكل الشباب الذين يقرأون لى، فأنا أشعر بالحب الحقيقى والاحترام فى معاملتهم لى، وأنا أيضًا لدىّ نوع من الحب والتقدير لهم، فأنا أعتبر أن ما قلته واقع فى المجال التطبيقى إلا فى حالات شاذة، لكن كل من أتعامل معهم من الشباب، يحققون ما قلته، ويستمعون إلى نصائحى.

آمال: لكن أى من المجالات يضم شبابًا أكثر ممن يبشرون بالخير فى المستقبل؟

■■ يوسف السباعى: الشباب فى مصر بشكل عام يبشرون بالخير والأمل وهذا

ينطبق على المهندس والطبيب والمسرحى والسينمائى، فأنا أشعر بأنهم زهور تتفتح وأن نقوم بريها ورعايتها، ودائمًا أشعر بأن هؤلاء الشباب هم أولادى، وأنا أعتقد أن وجود الأبناء يساعد جدًا فى التعامل مع غيرهم من الشباب، فأنا دائمًا أرى فى كل شاب صورة إسماعيل ابنى، وفى كل بنت صورة ابنتى وفى كل طفل حفيدى، وأخشى على كل طفل صغير لأن إحساسى بابنى موجود فى كل الأطفال الآخرين وأعتقد أن كل أب لديه هذا الإحساس إلا فى حالات شاذة لا نقيس عليها.

آمال: بالنسبة للمعاهد الموسيقية هل تقوم بتخريج فنان أم موظف؟

■■ يوسف السباعى: أتمنى أن تقوم هذه المعاهد بتخريج الفنان، ويجب ألا تكون متنفسًا لأصحاب المجاميع الصغيرة الذين لا يستطيعون الالتحاق بكليات أخرى، بل لابد ألا تقبل سوى الموهوبين، وأن تقوم بتدريبهم فنيًا وعلميًا، وإلا فسيكون الوضع بمثابة كارثة لهم لأنهم إذا لم يأخذوا الموهوبين، فستضيع جهودهم فى تعليمهم هباء.

آمال: لكننى أرى أن الجيل الجديد يؤدى ما يتعلمه كما هو، دون وجود أى تطوير فى الأداء.. فهل هذا صحيح؟

■■ يوسف السباعى: هم فى بداية طريقهم، والشاب يبدأ طريقه بتقليد أساتذته ومع الوقت نفسه يفرض سماته هو على الفن، وإذا ضربت مثالاً على نفسى فأنا بدأت فى بدايتى بتقليد والدى، ولكن مع الوقت بدأت أشعر بأننى لا أستطيع الاستمرار فى ذلك، حتى وصلت بالتدريج إلى فصل شخصيتى عن شخصية والدى.

آمال: ما دور وزارة الثقافة فى تنمية الثقافة فى المجتمع؟

■■ يوسف السباعى: تنمية الثقافة فى المجتمع هى المهمة الرئيسية لوزارة الثقافة، فأنا أرى أن وزارة الثقافة لا تصنع الثقافة، بل تصنعها المواهب، والدارسون مثل مصطفى محمود وعبد الرحمن الشرقاوى وإحسان عبد القدوس ويوسف إدريس ونعمان عاشور وباقى الفنانين من الرسامين والموسيقيين، وأيضًا

كل مصادر الثقافة الأجنبية والعالمية التى تصب كلها فى روافد ثم تجرى إلى مستهلكى الثقافة، ودور وزارة الثقافة أن ترعى الموهوبين الذين أرى أنهم قد يعطوا للثقافة، وتتيح من الينابيع القديمة سواء المحلية أو الأجنبية ما يمكن أن يثرى هذه الروافد، فإذا قمت برعاية هؤلاء الشباب بالمنح والدراسة والمساعدة فى النشر وتجهيز القنوات الموصلة وهى السينما والمسرح والكتاب بأفضل السبل الممكنة لكى يمكن أن توصل هذه الثقافة إلى المتلقى بأفضل وجوهها، ثم يأتى بعد ذلك الاهتمام بطريق الثقافة، وكيف يمكن أن أوصل أكبر قدر من الثقافة لأكبر قدر من المواطنين بأفضل وجه؟ ففى بعض القرى لا توجد إلا مصادر ثقافة قديمة لا تتعدى ثقافة الموال والربابة وأبو زيد الهلالى والسفيرة عزيزة، فيجب أن أدفع بهذه الروافد الثقافية لكى تصل لهم بأكبر قدر ممكن، وأن أوصل لهم وسائل الثقافة من سينما ومسرح وكتاب إلى هذه القرى لكى تتساوى مع القاهرة والإسكندرية اللتين تحظيان بنصيب الأسد من مصادر الثقافة.

آمال: وهل ظهرت ثمار اهتماماتك فى هذا المجال؟

■■ يوسف السباعى: طبعًا، فلقد بدأنا العمل فى كل الأقاليم حتى أسوان.

آمال: وهل تقوم هذه الروافد على ثقافة مستوردة، أم على الثقافة المحلية؟

■■ يوسف السباعى: أنا آخذ كل ما يمكن أن يُفهم سواء محلى أو مستورد بالتدريج وأربط بين الطرفين.

آمال: هل يمكن أن توجه نصيحة للأدباء الشباب؟

■■ يوسف السباعى: أنصحهم بالقراءة، وألا يتأثروا بأى اتجاهات حاقدة، وأن يكونوا ميالين للحب فى كل المجالات وأن يستفيدوا من الأجيال القديمة، وأن ينفتحوا على كل التجارب الأدبية سواء الجديدة أو القديمة أو التراث.

يفوت على الصحرا تخضر

كثيرون عشقوا مصر...

عانقوها حبًا واعتنقوها دينًا..

ولكنى لم أعرف واحدًا جعلها..

نبض قلمه ووجد روحه..

وقضية عمره كيوسف السباعى..

فقد توزعت طاقات هذا الطائر المُحلق ذو الحركة البندولية لمصر على ثلاثة محاور، وكان فى كل محور منها رمزًا ونبراسًا للعطاء الخلاّق.

كان المحور الأول ما اعتصر فيه روحه وتجليات عبقريته أدبًا احتوى إنسانها وتاريخها ومكانها وأثرى به وجدانيات الملايين احتواء لها، وكان المحور الثانى وقوفه فوق أرضها مؤسسًا شامخًا لم يكتف بالإبداع الفردى فى حد ذاته بل أقام له القلاع التى ينطلق منها ويُعترف بها وهو المجلس الأعلى للفنون والآداب الذى تحول إلى المجلس الأعلى للثقافة، فضلاً عن تأسيسه جمعية الأدباء واتحاد الكتاب المصريين والعرب وغيرها من المنابر والمؤسسات الأدبية، أما المحور الثالث الذى تمددت فيه فروسيته فهو احتضان المواهب من كافة الأجيال والتيارات وإفساح الطريق لها مع تسخير كافة الإمكانيات لبلوغها حد التألق والنجاح والاستمرارية، وذلك حين تولى قاعدة الثقافة عام ١٩٧٣.



يوسف السباعى وعن يمنيه مرسى سعد الدين

عن هذه المرحلة الثرية من تاريخ مصر الثقافى، تحدث الكاتب الدكتور مرسى سعد الدين الذى كان يشغل منصب وكيل وزارة الثقافة للعلاقات الخارجية ثم رئيسًا للهيئة العامة للاستعلامات فى عهد السباعى الذهبى، وتأتى كلماته مُطَعّمة بالأسى وهو يقول «أشعر أن الحزن فى قلبى قد نضب وأنى اعتصرت من آخر قطراته . . فحين تأتى ذكرى يوسف السباعى لم أعد أشعر بالحزن لغيابه عنا وإنما أشعر بالحزن

لأن بعض ما حققه لم يستمر فهو بالنسبة لى ولأصدقائه والعاملين معه ليس مجرد ذكرى لعزيز رحل وإنما هى ذكريات عديدة لأيام وسنوات تمرح داخلنا وتملأنا فى كل خطوة من خطواتنا وفى كل ما هو حولنا لا فى مصر وحدها وإنما فى العالم. . يوسف السباعى ليس له شاهد على قبر مكتوب عليه اسمه وتاريخ ترك هذا العالم وإنما له شواهد حية نقابلها كلما تلفتنا حولنا. . . ولعل من أهم ما استطاع تحقيقه هو وضع الأدباء فى وسط الحياة فى مصر، كان ليوسف السباعى دور هام فى تقوية العلاقة بين الثورة والأدباء، ولا يعنى هذا أنه جعل من الأدباء أبواقا للثورة بل إنه نجح فى أن يؤكد أهمية الأدب وأدبائه فى حياة مصر، لقد كون ما يمكن أن نطلق عليه اسم سلطة الأدب وذلك ضمن السلطات المختلفة».

ويضيف: «كان أول ربط بين الثورة والأدب هو إنشاء المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب فى عام ١٩٥٦، كان يوسف السباعى هو السكرتير العام للمجلس وقد جمع السباعى فى المجلس قادة الفكر والأدب والفن فى مصر فكان من أعضائه طه حسين وتوفيق الحكيم ويحيى حقى وحسين فوزى وغيرهم».

وتكونت لجان المجلس المختلفة وتولى الأدباء والفنانون إدارتها ومن ثم أصبح الأدب والفن مسئولية رجال الأدب والفن، صحيح كانت هناك مجموعة من الموظفين ولكن مهمتهم كانت تنحصر فى تنفيذ قرارات أصحاب الشأن وهم الأدباء والفنانون.

كان المجلس بلجانه هو المسئول عن حياة مصر الثقافية وكان له إنجازات فى عهد يوسف السباعى وأهمها:

١ـ مشروع الكتاب الأول: فمن المعروف أن الأدباء الشبان لا يجدون الفرصة لنشر أعمالهم، إذ إن دور النشر تسعى إلى إصدار مؤلفات شباب الكُتّاب على نفقته ومعظم الكتاب المعروفين الآن ممن نشر لهم الكتاب الأول.

٢ـ إنشاء المعهد العالى للفنون المسرحية (١٩٥٨).

٣ـ إعفاء الأعمال الأدبية والمحاضرات من الحد الأقصى للمرتبات الإضافية (١٩٥٩).

٤ـ إنشاء الجوائز التقديرية والتشجيعية (١٩٥٨).

٥ـ تخصيص نسبة مئوية من تكاليف المبانى العامة للأعمال الفنية.

٦ـ إنشاء مركز الفنون الشعبية عام ١٩٥٨ بناء على توصية لجنة الفنون العامة.

٧ـ إصدار قانون بإعفاء الأعمال الأدبية والترجمة والأحاديث الإذاعية من الضرائب وتعد مصر الدولة الوحيدة فى العالم التى أصدرت مثل هذا الإعفاء.

٨ ـ إصدار قانون تفرغ الأدباء والفنانين.

٩ ـ مشروع ترجمة المؤلفات العربية الحديثة إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية، وقد تم اختيار وترجمة ١٧ كتابًا لطه حسين والعقاد وأحمد أمين ومحمود تيمور ونجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله وعبد الرحمن الشرقاوى ويحيى حقى والسباعى والمازنى وهيكل والقلماوى.

وبالإضافة إلى ذلك كان المجلس يقوم بشراء ١٠٠ نسخة من أى كتاب يصدر فى الخارج بالإنجليزية والفرنسية للأدب المصرى وكان أول كتاب هو «الرجل الذى فقد ظله» الذى ترجمه دزموند ستيوارت، وكانت ترجمة هذه الكتب هى نواة ترجمة الأدب المصرى الحديث الذى تقوم به هيئة الكتاب من هذه المشروعات لم يتحقق قرار تخيص نسبة ١٪ من المبانى العامة للفنون، كما لم يتحقق معجم الفنانين والأدباء الذى بدأ المجلس فى إعداده، فقد قام بإعداد فورمات أرسلها إلى الأدباء والفنانين وأرسل صورا لهم وفعلاً تم تجميع هذه البطاقات ولكن المشروع لم يتم بعد أن ترك يوسف السباعى المجلس.

مصير دار الأدباء الآن

● دار الأدباء.. شارع قصر العينى، ذلك المكان الذى كان مركزاً لتجمع الكتاب من جميع الأجيال والهيئات المختلفة مثل اتحاد كتاب مصر، فلسطين، آسيا، أفريقيا، تلك الهيئات التى تبناها السباعى فازدهرت وأصبحت مركز إشعاع لا فى مصر وحدها ولا فى العالم العربى، وإنما فى العالم كله.. ما مصير دار الأدباء الآن؟

■■ هى كانت ڤيلا لعبد الرحمن فهمى المناضل المصرى المعروف، وقد قام يوسف السباعى بتأجيرها وحولها من فيلا مهجورة إلى منارة ثقافية، كانت الدار مثل خلية النحل، كانت بها مكاتب لاتحاد الأدباء واتحاد أدباء فلسطين واتحاد الأدباء العرب والمكتب الدائم لكتاب آسيا وأفريقيا والذى كان ملتقى لكتاب القارتين، إلكس لاجوما من جنوب أفريقيا، فايز أحمد فايز من باكستان، أناتولى سافروندف من الاتحاد السوفييتى، ملك راج أناند من الهند وغيرهم الكثير جاءوا إلى مصر بدعوة من السباعى لحضور «اجتماعات المكتب الدائم، الذى أصبح مركزًا لكتاب آسيا وأفريقيا كانت الدار فى المساء شعلة من النور وقد أقام فيها السباعى مطعمًا يقدم أحلى الأطعمة وحجرة استقبال فخمة وقاعة محاضرات، كانت المحاضرات والندوات لا تنقطع كما كانت الدار تستقبل الكتاب الأجانب واستطاع هو أن يوقع اتفاقيات بين اتحاد الأدباء المصرى واتحادات الأدباء فى العديد من الدول فى أوروبا وأسيا وأمريكا، شاهدت فى الدار مقابلات بين كتابنا وكتاب اليابان والهند والصين وباكستان وألمانيا والمجر وبلغاريا وغيرها وكانت تلك اللقاءات وسيلة هامة لتبادل الآراء مع كتاب العالم وللتعرف على التيارات الفكرية فى العالم».

«هكذا كانت دار الأدباء، أما الآن وبعد رحيل السباعى عادت الدار إلى ما كانت عليه مظلمة وموحشة وبابها الحديدى مغلق بالقفل والمفتاح فقد كان ليوسف السباعى القدرة على التعمير والإنشاء والازدهار وينطبق عليه تمامًا أغنية عبد الحليم حافظ «يفوت على الصحرا تخضر».

نادى القلم السباعى

● وفكرة نادى القلم الدولى كيف بدأت وإلى أين انتهت؟

■■ «القلم الدولى هيئة دولية تكونت بعد الحرب العالمية الأولى بغرض تكاتف كتاب العالم من أجل السلام ولوقف الحروب وبعد الحدث المشهور حين أحرق هتلر الكتب حل القلم الدولى نفسه وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بدأ القلم الدولى نشاطه وكان مقره فى لندن، إذ إن فكرته ولدت فى لندن وكان ك. ج ويلز

أول رئيس لها ومن بعده جاء تشارلز مدرجان وآرثر ميللر والبرتو مورافيا، وحين بدأ نشاطه الفعلى كنت أنا فى ذلك الوقت ملحقًا ثقافيًا فى لندن فاتصلت بسكرتير النادى وكان الكاتب المسرحى البريطانى هرمون أولد وتناقشت معه فى إنشاء فرع فى مصر، إذ كان للقلم الدولى فروع فى العديد من الدول وقَبِل الفكرة فكتبت ليوسف السباعى وكانت لى به معرفة عائلية، فقد تربيت مع زوجته دولت وشقيقها إسماعيل السباعى ابنى طه باشا السباعى إذ كنا نسكن فى نفس المنزل بروض الفرج.

وأثناء عملى فى لندن قمت بنشر مجموعة من القصص المصرية الحديثة مترجمة إلى اللغة الإنجليزية ومن ضمنها إحدى قصص السباعى وأخبرته بذلك فوافق فى الحال وكون الفرع المصرى للقلم وكان رئيسه د. طه حسين ويوسف كان الأمين العام وطلب منى أيضًا أن أكون أمينا عاما، وهكذا بدأ الفرع المصرى نشاطه وشارك فى جميع مؤتمرات القلم الدولى وكانت تعقد كل عام فى بلد مختلف عدة ندوات ومحاضرات وقد حضرت أنا شخصيًا بعضا من تلك المؤتمرات فى المجر ولندن ونيويورك.

وبعد وفاة د. طه حسين تولى توفيق الحكيم رئاسة الفرع المصرى واستمر السباعى وأنا أمناء، وبعد وفاة الحكيم تولى أنيس منصور الرئاسة، وكان آخر مؤتمر حضرته مع أنيس فى ڤيينا، بعدها حدثت كالعادة مؤامرات وتم اختطاف الفرع المصرى.

● الوسط الثقافى فى عصر السباعى كان يتميز بالخصوبة والثراء، والسؤال أين ذهبت هذه اللقاءات الفكرية والمناقشات الثقافية والندوات الأدبية.. هل اغتيلت باغتيال السباعى فنحن لا نسمع عنها إلا فى معرض الكتاب السنوى فقط ونظل طول العام بلا مأوى ثقافى إلا فما ندر؟

■■ ماذا أقول لك؟! فعلاً كان الوسط الثقافى فى عصر السباعى يتميز بالخصوبة والثراء، كما رأيت، كانت هناك دار الأدباء مركز الإشعاع الثقافى، ونادى القصة، واتحاد الكتاب وغيرها من المجالس والهيئات الثقافية المتنوعة.

ولكن هناك أعمالا عديدة ترتبط بأشخاص، يؤدونها عن حب واقتناع وإذا ما ذهب هؤلاء ذهبت معهم تلك المشروعات، بالإضافة إلى ذلك كان عصر يوسف السباعى عصراً ذهبيًا بحكم تواجد وكثرة رجال الفكر والأدب والفن فيه طه حسين، الحكيم، صلاح طاهر، ناجى كان عصر العمالقة بحق، أما الآن الوضع اختلف، الصفوة تتقلص.

الوزير راعى الفنون والآداب

● عاصرت يوسف السباعى الوزير الفنان.. حدثنى عن وجه راعى الفنون والآداب.. وهل مهامه الوزارية جاءت على ملحماته الأدبية ومساندته للأدباء والشعراء؟ وهل أعطاها من الاهتمام والرعاية جانبا؟

■■ لا شك أنه حين تولى السباعى منصب الوزارة، أثر ذلك على إنتاجه الفنى ليس بمعنى انخفاض مستواه بل إنه توقف عن الإنتاج ونحن نعرف أنه بالإضافة إلى كتاباته، كان أيضًا كاتب سيناريو للأفلام وبعد توليه الوزارة تأثر دخله المادى كثيراً وأذكر أنى ناقشته فى ذلك فقال بصراحة إنه على الرغم من خسارته المادية، فإن منصب الوزير يُعد تكريمًا له، ومن بعده عاد السباعى إلى إنتاجه بعد أن ترك الوزارة.

ويضيف: أما فيما يختص بالأدباء والشعراء والفنانين فقد أعطاهم مكانتهم فى المجتمع كما فتح أمامهم المجال فى النطاق الدولى، وأذكر أنه فى مؤتمر السلام باستوكهولم الذى كان يرأسه السباعى، هو الذى اختار فى عضويته عبد الرحمن الشرقاوى وأنيس منصور وعبد الحليم حافظ وكمال الطويل.

إضافة إلى ذلك مساندته للأدباء والشعراء، فلم يبخل عليهم وقد سعى جاهداً لتعيينهم فى الوظائف المختلفة ليعينهم على متطلبات الحياة، ومنهم الشاعر حامد الأطمس ويحيى الطاهر عبد الله وأمل دنقل وأحمد فؤاد نجم، وغيرهم. بمعنى أنه كان يساندهم دون النظر إلى انتماءاتهم السياسية ولازلت أذكر حين تم اعتقال عدد من الكتاب الشيوعيين أثناء حكم عبد الناصر، كيف كان يرسل إلى عائلاتهم النقود

التى يحتاجون إليها للحياة وقد حفظ بعضهم الجميل! بينما استمر البعض الآخر فى الهجوم عليه بعد خروجهم من السجن!

إنجازاته الوزارية

● ما هى أهم الإنجازات التى حدثت فى عهده لو أننا نقيّم مسيرة الرجل الوزارية؟

■■ الذى أود أن أقوله إن يوسف السباعى كان له دور حيوى فى ثقافة مصر وليس لأنه وزير للثقافة والإعلام بل لأنه صاحب الطاقة التى لا تكل ولا تمل، فهو رياح لا تهدأ ونهر لا ينضب، كان نشاطه من أجل الآداب والفنون هو هدفه الأول والأساسى، وسواء كان أمينًا عامًا للمجلس الأعلى أو وزيراً أو رئيسًا لمجالس إدارة المؤسسات الصحفية فإن عمله الأساسى كان فى إطار الأدب والفن ولعل من أهم الأعمال التى قام بها السباعى حين كان وزيراً للثقافة هو إنقاذ صناعة السينما التى كانت قد وصلت إلى حالة مؤسفة.

● هل صحيح أن توفيق الحكيم أسماه رائد الأمن الثقافى والأدبى؟

■■ يوسف السباعى فى جميع المواضع التى وُضع بها والمراكز الثقافية والأدبية التى احتلها، كان دائمًا نصير الأدب والفن والمحقق للعدالة الاجتماعية، هل تتصورى أنه فكر فى مآل الأدباء والكتاب بعد موتهم فكان يخطط لمقبرة للمتوفين منهم تحفظ لهم كرامتهم بعد أن يصبحوا فى ذمة الله، وما كان أحد يظن أنه سيمضى قبل غيره من الأدباء.

الغائب الحاضر

● هل تذكر آخر مرة رأيته؟

■■ نعم.. ذكرى يوسف السباعى معى دائمًا وليست مرتبطة بتواريخ، فهى ذكرى دائمة لم تنقطع منذ آخر مرة رأيته، كان ذلك فى المستشفى العسكرى

بالمعادى حيث كنت تحت العلاج وجاء يوسف قبل سفره الأخير إلى قبرص لزيارتى.

لقد كانت هذه الرحلة، من بين الرحلات القليلة التى لم أرافقه فيها، فنحن سافرنا معًا كل رحلات التضامن الأفريقى الآسيوى وسافرنا إلى بلاد لم نحلم بزيارتها فى يوم ما، بلاد من الشرق إلى الغرب من الصين واليابان إلى غينيا عابرين بمنغوليا والاتحاد السوفييتى أو من الشمال إلى الجنوب، من السويد إلى تنزانيا ومن موسكو إلى هافانا، سافرنا معًا كثيراً عشرات بل مئات من السفريات حتى أصبح السفر هو المجمع بيننا.. كان رفقة جميلة.

بكل أسف افترقنا قبل أن نفترق..

وجاء هو لوداعى قبل أن أودعه أنا لآخر مرة.

وجه
المفكر
السياسى

لا محبة إلا بعد عداوة

كل الناس حمير..

لا فرق فى ذلك بين حقير وخطير..

ضع الفقير مكان الثرى.. يصبح خطيراً..

وضع الثرى مكان الفقير.. تجده حقيراً..

آه من هؤلاء البشر..

وآه من خبايا صدورهم..

لو استطعنا أن نخترق حجبها..

لوليّنا منها فراراً..

ولملئنا منها رعبًا.

منذ بدأ يوسف السباعى يفكر ويكتب لم يشغله شيء كعجز البشر عن استخراج أفضل ما فى نفوسهم، شيء خطأ فى تركيبهم يجعلهم ينكرون الحق ويلتحفون بالباطل، ولا يدركون أن أرضهم أصبحت تضيق بهم إلى حد التنافر، فالجهد الذى يبذل لانتزاع الرزق من أفواه بعضهم البعض، يكفى جداً ليملأ كل الأفواه بالرزق، فعلام التناحر من أجل العيش؟!

«هل حياة جزء من العالم لا تتحقق إلا بالقضاء على الجزء الآخر، أحقيقة



يوسف السباعى وأنيس منصور

لا تستقر حياة الأمريكيين إلا إذا قضوا على العرب ، ولا تستقر حياة اليهود إلا إذا قضوا على حياة الاثنين معًا الأمريكيين والعرب ، لقد خلقنا الله أحرارًا» . . . هكذا كتب السباعى فى رائعته «رد قلبى» وهكذا آمن بالنعمة التى وهبها لنا الخالق ، وعاب على الخلق جهلهم ، إذ قال : «هل تعلمون ياسادة ياكرام أن أقدر الناس فى هذا العالم وأعظمهم شأنا أولئك الذين يترأسون الدول ويتحكمون فى مصائر البشر

هم أشد الناس جهلاً بحقائق الأمور، وهل هناك أكثر جهلاً من أولئك الذين يلقون بأنفسهم وبلادهم إلى التهلكة بزعمهم أن ذلك سيقودهم إلى سلام دائم وعالم أفضل، ألا يدرك هؤلاء الحمقى أنهم عندما يصلون فعلاً إلى ذلك العالم الأفضل الذى يبغون تحقيقه بطريقتهم لن يكون قد بقى من البشر من يعيش فيه؟».

وهكذا لازمته روح الساخر فاستطاع من خلالها أن يمزج الفلسفة بالسخرية فى الواقع المر، وقد التقى يوسف السباعى وأنيس منصور على نفس ذات الدرب من السخرية الممزوجة بالفلسفة وإن كان اللقاء الأول بينهما قد شهد تراشقًا بالمقالات، إذ كتب أنيس منصور ذات يوم مقالاً عن أحسن القصص القصيرة فى ذلك العام ولم يذكر أى قصة ليوسف السباعى، فهاجمه السباعى بعنف ورد عليه أنيس بمقالة أعنف كان عنوانها «عرايا ومرايا وقصص» وصف فيها أديبنا السباعى بأنه أديب «عريان.. ملط، ولابد أن يتغطى بورقتين من التوت على أن تكون إحداهما على فمه».

ويكمل الكاتب أنيس منصور: لا محبة ليوسف السباعى إلا بعد عدواة، يبدو أن هذا المثل الشعبى صحيح، لقد كتبت هذا المقال فى أخبار الأدب، وحين عاد وهاجمنى مرة ثالثة كتبت فى الأسبوع التالى وقلت «إنى نصحت كاتبًا كبيراً فى الأسبوع الماضى بأن يتغطى بورقتين من التوت، وأنصحه الآن بأن يتغطى بشجرة توت»، واستمر الخلاف سنوات حتى جاءت لحظة تصالحنا فيها، وأصبح السباعى من أعز أصدقائى وأشجعهم.

وبالضرورة لابد أن أذكر إحسان عبد القدوس أيضًا فهو الذى قدمنى إلى عالم الأدب، وكتب مقالاً فى مجلة الاثنين قال فيه إنه يتوقع أن أكون كاتب المستقبل، فكان يرى فىَّ العقاد والحكيم وطه حسين وسارتر، وهو صاحب الفضل الحقيقى علىَّ رغم أنى أدين بالفضل لكثيرين غيره، وإحسان كان الصديق الصدوق للسباعى من وقت نادى القصة ومن بعدها، وأذكر أنه حين جمعنا إحسان قال لى السباعى أثناء جلسة الصلح إنه كان لابد أن أهاجمه لكى نصبح أصدقاء.

مشروع أدبى بين منصور والسباعى لم يتم

● هل صحيح أنكما اتفقتما على مشاريع أدبية وفكرية تقومان بها معًا؟

■■ اتفقنا على سبيل الدراسة ولكن لم يتم شىء من هذا، فأنا لست من المؤمنين بأن الأعمال الأدبية يمكن أن تكون مشتركة، فيمكن أن نتشارك فى عمل تجارى، ولكن لا شراكة فى العمل الأدبى، مرة واحدة حدثت حين دعانى إحسان عبد القدوس لأكون معه نائب رئيس تحرير مجلة صباح الخير، وكنا وقتها فى بيروت ولكنى رفضت أن أترك أخبار اليوم رغم أننى كنت أعمل فى روزاليوسف أثناء عملى فى الأهرام، وكنت أحصل على ثلاثة جنيهات أسبوعيًا، وأنفرد بأخبار الملك فاروق، لأنه كانت لى صديقة فى باريس ترسل لى بأخبار الصحف، وأذكر أنى ذات يوم كلمت يوسف السباعى وطلبت منه أن يتحدث مع إحسان ليكلم والدته لتزيد مرتبى فى روزاليوسف، وبالفعل وافقت السيدة روز اليوسف على زيادة مرتبى ليصبح أربعة جنيهات.

ويكمل: واستمرت صداقتى بيوسف السباعى بعد ذلك على نحو من المحبة والود والألفة والحقيقة كان شخصية فذة، طيبًا، شفافًا، يمتلك سماحة غريبة، كانت علاقته جيدة بكل المختلفين معه، لم يكن لديه أى إحساس بفوارق أو تعصب وحين خلفته فى رئاسة تحرير آخر ساعة، واشتركنا فى كل المؤتمرات الأدبية وسافرنا معًا إلى الاتحاد السوفييتى وكوبا، ثم أصدرنا معًا مجلة الرسالة الجديدة، أذكر أن أصدرت أنا عددًا خاصًا من الرسالة عن الوجودية، وطبع هذا العدد أربع مرات فى أسبوع واحد - حوالى ٨٠ ألف نسخة - الأمر الذى لم يحدث فى تاريخ الكتب، وحين صدر هذا العدد بالتحديد كنت أسكن فى منزل أمام مسجد أبو العلا، وأثناء صلاة الجمعة صحوت من نومى على صوت إمام المسجد وهو يدعو على شخص يدعى أنيس منصور ويهاجمه ويتهمه بالكفر بسبب كلامه عن الوجودية، فنزلت مسرعًا فقابلت أحد المصلين، وسألته من الذى كان يدعو عليه إمام المسجد، فقال: إنه كان يدعو على رجل يدعى أنيس منصور، سألته إن كان يعرف أنيس منصور هذا، فأجاب بالنفى، فقلت له: «وكيف تقول آمين وراء دعاء الإمام وأنت

لا تعـرف على من تدعـو؟»، وكـان كل هذا بسـبب كـتـاب الـوجـودية الـذى أدين ليـوسف السبـاعى لأنه سـاعدنى على نشره بـالرسالة الجـديدة وذلك لإيمانه المطلق بحرية الرأى.

ويضيف: الفكرة التى عرضت بالفعل على السباعى، ولكن لم يتسع وقته ولا وقتى لكى ننفذها كانت هى أن نختار معًا عشر شخصيات بحيث اختار أنا عشرة من الفلاسفة، ويختار هو عشرة من الأدباء ونصدر كتابًا عنهم، ولكن المشكلة التى واجهتها هى أنى كنت أريد أن أكتب عنه وعن إحسان عبد القدوس من ضمن قائمة الأدباء لأن إحسان كان روائيًا عظيما وفى نفس الوقت أفضل المحللين السياسيين فى الصحافة المصرية، أما يوسف السباعى فهو فى الكتابة عمومًا يشبه سيدة جميلة جدًا لكن نظرها ضعيف، كل الناس يرون جمالها إلا هى، وفسرت موقفى الدفاعى فى الكتابة عن يوسف تحديدًا بأن أحدًا فى روزاليوسف لا يستطيع الكتابة عنه، وإلا سيقال بأنه ينافقه، كما لا يستطيع أحد من أخبار اليوم التطوع بالكتابة عنه، لأنهم فى الدار لا يحبونه، وكثيرون يحقدون عليه، وبالتالى سيعيش طوال عمره لا يرى حلاوته لذا قررت الكتابة عن الاثنين معًا.

الله يخرب بيتك ياأنيس.. بقلم يوسف السباعى

● صداقة الأسفار بينك وبين يوسف السباعى بدأت بمؤتمر الأدباء فى سوريا، حدثنى عن أطرف المواقف التى حدثت أثناء الرحلة؟!

■■ كان هذا الموقف فور عودتنا من لبنان، فوجئت صباح اليوم التالى وأنا أقرأ الجرائد بعنوان فى الصفحة الأولى من مجلة التحرير: «الله يخرب بيتك ياأنيس يامنصور.. بقلم يوسف السباعى» فاندهشت فبيتنا لا يقوى على مثل هذه الدعوة الفظيعة، فليس بيتنا هو بيت عبود باشا ولا سراج الدين باشا، إنه بيت بسيط يطير إن نفخت فيه، وقرأت مقال السباعى الذى تحدث فيه عن أيام كنا فيها فى «بلودان» أثناء انعقاد مؤتمر الأدباء، وكنا ننام فى غرفة واحدة وكلانا يصحو مبكرًا جدًا، وفى أحد الأيام سبقته إلى الحمام وأخذت دشًا، وعدت إلى الفراش، فسألنى يوسف:

هل ماء الدش ساخن؟ فقلت له : «نار جهنم»، فقفز يوسف إلى البانيو وما هى إلا لحظات حتى بدأ يصرخ ويقول «الله يخرب بيتك ياأنيس» ومعه حق فلا توجد مياه ساخنة فى الفندق وقد كنا على قمة الجبل .

المجلس الأعلى لرعاع الفنون والآداب

● حين تم إنشاء المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، كنت أنت سكرتيراً للجنة العلاقات العامة التى كان من أعضائها الصحفيان الكبيران فكرى أباظة وأحمد قاسم جودة إضافة إلى الأديب يحيى حقى، ماذا عن ذكريات هذه الرحلة؟

■■ أذكر أنه فى أحد الأيام عقدنا جلسة الصباح كالعادة، وفى المساء ذهبنا لتناول العشاء عند يوسف السباعى، وكان معنا إحسان عبد القدوس ويوسف وهبى وصالح جودت وكامل الشناوى، وسألنا يوسف عما فعلناه فى اللجنة، فقلت له : «تعيش إنت . . اللجنة اتحلت»، فقد كانت اللجنة مكونة من نقيب الصحفيين أحمد قاسم جودت وفكرى أباظة ويحيى حقى مدير مصلحة الآثار وأنا، فتناقشنا فى بعض الموضوعات وسألنى، هل ما يقرره المجلس حينما يرسل للصحف هل تلتزم بنشره، فأجبتهم بالنفى، وعندئذ قررت اللجنة حل نفسها بعد جلسة واحدة .

● هل غضب عليك حين أطلقت عليه اسم المجلس الأعلى لرعاع الآداب والفنون؟

■■ إطلاقًا لأننا كنا نمزح كثيراً، فلقد كان المجلس يضم أدباء ورعاعا مثل أمين يوسف غراب وآخرين ممن كان دمهم «خفيف جدًا»، وبعضا من «صيَّع» الفنانين، فاقترحت عليه ذات يوم أن نعدل الاسم ليصبح المجلس الأعلى لرعاع الآداب والفنون تمشيًا مع مستويات أعضائه .

ويضيف : من طرائف الأشياء التى حدثت بيننا هو أنى ذات مرة كنت ذاهبًا لتسلم جائزة الدولة التشجيعية من الرئيس جمال عبد الناصر ووقتها كنت مفصولاً قبلها بسنتين وعدت للعمل، فذهبت لتسلم جائزتى، وكان السباعى يقف بجوار عبد الناصر على المنصة، ففوجئت به يسأل يوسف عنى ويقول له : هل هذا هو

الشيوعى؟ فرد السباعى قائلاً: «لا ياريس الآخر اسمه عبد العظيم أنيس، وهذا اسمه أنيس منصور اللى سيادتك فصلته من سنتين، ورجع عايز حضرتك تفصله تانى».

سيكولوجية مقال السباعى

● قيل عن مقالات العقاد وأسلوبه إنه كان أكبر من أن يفهمه أى متلق أو قارئ، أما طه حسين فكان ينزل بأسلوبه للبسطاء لأنهم يشكلون النسيج الحقيقى للمجتمع، إذن العقاد كان يرتقى بهم وطه حسين كان يطوع نفسه لهم، ماذا عن يوسف السباعى، وأى منهج منهما احترف وهو تلميذ للأستاذين؟

■■ يوسف السباعى له كتابات رومانسية رقيقة جداً، وهو فى تكوينه بنَّاء ومعمارى، فحينما كنا نذهب لموقعة فى الجيش كنا نجده قد بنى بناء وزرع حوله حديقة، بمعنى أن أى مكان يعمل فيه كان يحب وضع لمسة جمالية فيه، وأنا أرى أنه شخص بسيط وغير معقد ومريح جداً، وأيضًا مدرب تدريبًا جيداً.

● أستاذ أنيس هذه سمات تخص النواحى الإنسانية، ولكن سؤالى محدد عن منهجه فى كتابة المقال السياسى تحديداً، هل كان يكتب فى السياسة من منظور أدبى أم كان يكتب الأدب الواقعى من مفهوم سياسى؟

■■ تجاربه السياسية محدودة، وما كتبه فى آخر ساعة أو دار الهلال يعتبر متوسط القيمة، بصراحة شديدة هو متميز كفنان وأديب ولكن كمفكر سياسى يصنف من الدرجة الثانية.

● هناك دراسة أجريت عن سيكولوچية أدب المقال عند السباعى من خلال مسودات أعماله قبل نشرها، وخرجت الدراسة بنتيجة أن القلب والنفس يسودان على أدبه، فهو ابن الاندفاع النفسانى فالقلب عنده مرجع التأمل والتعليل ودرس كليات الأمور، إلى أى مدى صحة هذه الاستنتاجات؟

■■ الحقيقة يجب عدم إغفال تأثير والد يوسف السباعى عليه، فقد كان هذا

الرجل أديبًا ينتمى إلى عصر التنوير وإن غلب عليه الجانب العاطفى أكثر ، وبالتالى تغلب هذا الجانب على يوسف رغم شعبيته وواقعيته نتيجة ولعه بكتابات والده وتعلقه بها ، وهذا على عكس إحسان عبد القدوس لو عقدنا مقارنة بين أدبهما ، فإحسان مفكر أكثر منه أديبا ، ويوسف أديب أكثر منه مفكرا ، ومظاهر التفكير عند إحسان هى الاستيعاب السياسى ، وقدرته على التحليل المنطقى ، لذلك فإحسان يعتبر أديب الطبقة الوسطى ، ويعرف كيف يتعامل معها رجالاً ونساءً، كان عقله أكبر من قبله ، أما يوسف فكان قلبه أكبر من عقله .

ويضيف : إحسان لم يكن رومانسيًا بل كان ينتسب إلى المدرسة الواقعية ، وكانت كل قصصه مبنية على التحليل النفسى لأناس يراهم ويحللهم ، ويضعهم فى إطارهم الاجتماعى بلا رحمة ، فقد كانت لديه كل صفات الجراح الشاطر ، والجراح الحقيقى محايدا لا يبكى على من يجرحهم ، كان مشرط إحسان حادا جداً يشرح شخصيات أبطاله ببراعة ، فهو ونجيب محفوظ أحد بناة صناعة السينما فى مصر ، هما الركيزتين الأساسيتين اللتين قامت عليهما صناعة السينما فى مصر ، أما يوسف فكان يبكى عليهما وقد يلتمس لهم الأعذار إضافة إلى محاولة للتخفيف عن آلامهم وترميم جراحهم .

مؤتمرات التضامن والوجاهة السياسة

● مؤتمر التضامن الأفريقى - الآسيوى الذى بدأ فيه كسكرتير عام حين كلفه جمال عبد الناصر عام ١٩٥٨ بإقامته إلى أن وصل إلى منصب رئاسته ، هل كان نوعًا من الوجاهة السياسية الرسمية؟

■■ حين وقع اختيار الرئيس جمال عبد الناصر على الفارس يوسف السباعى كان فى قرارة نفسه يبحث عن شخصية مهيبة لتولى هذه المهمة صحيح أن السباعى لم يكن مفكراً سياسيًا بالدرجة الأولى ، ولكن كانت لديه قدرة تنظيمية فذة ، وموهبة فطرية على التوفيق بين مختلف التيارات ويظهر ذلك بوضوح فى تجاربه الإدارية السابقة للمجالس والهيئات حين أنشأ مجلسًا منظمًا أتى فيه بعدد كبير من

المفكرين والأدباء والفنانين واستطاع أن يتعاون مع أكثر الناس تطرفًا، لم يكن أحد قادرًا على ذلك إلا يوسف السباعى، هذه المقدرة الفائقة على التنظيم والتنسيق والانسجام هى التى أنجحته فى ذلك الدور الحيوى الذى استطاع من خلاله أن يجمع بين كل المتناثرين فى المجتمع المصرى، وعن طريقه التقى خليط سياسى لا يمكن أن يلتقى أبدًا، وقد امتد به الدور من الجمع بين الأفراد إلى الجمع بين الدول.

عين السادات اليمنى!!

• هل صحيح كما قيل إن السباعى كان عين السادات اليمنى؟ أسألك من واقع اقترابك المباشر من السادات، وإن كان صحيحًا ففى اعتقادك ما هى عناصر الجذب فى شخصية السباعى والتى بهرت السادات؟

■■ أولاً يوسف السباعى بطبيعته كان شخصية جذابة جدًا، كان من الصعب على من يحتك به ألا يحبه ويحترمه ويقدره، الإفلات من جاذبيته كان من الأمور الصعبة للغاية، ولا أظن أن أحدًا استطاع أن يشغل نفسه مكانته، لقد كنت مع الرئيس السادات حين تلقى خبر استشهاد يوسف السباعى، وكنت أتبادل معه الحديث حول بعض الموضوعات السياسية إذ كان يكلفنى ببعض الأعمال وبعض القراءات، ثم دخل شخص وهمس فى أذنه بكلمات فتغيرت ملامح وجهه بشكل مفاجىء وأصيب بالذهول وجلس فى حالة حزن شديد بدون كلام، وتلقيت أنا أيضًا الخبر بصدمة هائلة، وكنت أود وقتها أن أنفجر فى البكاء ولكنى تحملت وخجلت من الرئيس، وجلسنا معًا صامتين لساعات لم نتبادل خلالها أى كلمة، ومع الأسف لم أفلح فى أن أمنع نفسى من الانخراط فى بكاء صامت حتى لا يلاحظ الرئيس، وأثناء انصرافى لم أقو على الوصول إلى سيارتى وتوجهت مباشرة إلى منزلى وجلست فى حجرة خالية واطلقت العنان لدموعى، وفى اليوم التالى أكد لى السادات أنه عانى كثيرًا خلال الليلة الماضية بسبب خبر استشهاد يوسف السباعى المشئوم.

• هل حدث ذلك بسبب زيارة القدس؟

■■ بالطبع . .

● ولكن كثيرين ذهبوا مع السادات . . فلماذا يوسف السباعى بالتحديد؟

■■ لأنه كان أقربهم إلى قلب الرئيس السادات .

● وكيف ذهب فى الرحلة الأخيرة إلى قبرص وهو على علم بوجود هذه العناصر الإرهابية هناك؟

■■ حقيقة لا أعلم لماذا؟ ولكن يوسف كان لديه إحساس بأنه ليس عدواً لأحد، كما أنه لم يكن يكره أحداً حتى معارضيه، كان يعمل مع أكثر الناس تنافراً، ولا أنسى يوم أن أصدرت مجلة أكتوبر وسألت يوسف وكان وقتها رئيساً لمجلس إدارة الأهرام فاقترح علىَّ أسماء لتعمل معى، فأصبت بدهشة شديدة لأنه اقترح أسماء تختلف معى فكريًا ولم أكن أطقها، ولكن بالنسبة ليوسف لم يكن الأمر يعنى له شيئًا، لأنه كان متسامحًا بطبعه ومرنًا فى تكوينه .

لولا السباعى ما كانت أكتوبر

● هل تسمح لى بمعرفة فضل يوسف السباعى على مجلة أكتوبر حين كلفت أنت برئاستها؟

■■ حين كلفنى السادات بإصدار مجلسة أكتوبر لم يقل لى أى شىء عن مكان صدورها، ولا ميزانيتها ولا اسمها، ومن سيعملون بها، وكان الاسم المقترح لها هو ٦ أكتوبر وتحتها ١٠ رمضان، وطبعًا لم يكن هذا الاسم يصلح لها، إضافة إلى أنه لم يكن لها مكان، فخصص لى يوسف السباعى مكتبًا بالأهرام، ولم يكن هناك إدارة أو محررين أو مطبعة، وسألته ما الذى سأفعله إزاء هذا الموقف، فوعدنى بأنه سيساعدنى، وبالفعل قرر أن يقوم بالطباعة لى فى الأهرام كما وفر لى الإعلانات من خلال الأهرام أيضًا، ولولا هذه المساعدة لكان من الصعب أن تصدر مجلة أكتوبر رغم أن أحداً لا يذكر ليوسف السباعى هذا الدور إلا أنه فعل لى كل شىء، وحينما تناقشنا مع السادات نصحنى بأن أعد له عدة نماذج لكى يبدى رأيه فيها لأبدأ على الفور، وهكذا لولا يوسف السباعى لكان من الصعب علينا إصدار المجلة كما

قلت، وأتذكر أنه ذات مرة رأى السادات مطبعة فى المعرض تطبع صوراً جميلة فسأل عنها وقالوا له إنها خاصة بقناة السويس، فطلب منى أن آخذها، فكلمت المشير الجمسى، ولم يكن مشيراً وقتها فوافق على الفور، فذهبت ونقلت المطبعة من قناة السويس إلى دار المعارف، ولم يكن هناك أى شىء يثبت أنى أخذتها وأرسل لى يوسف السباعى من يقوم بتشغيلها، وبعد وفاة الرئيس السادات، وجدت رئيس هيئة قناة السويس يحادثنى هاتفيًا ويخبرنى بأن ديوان المحاسبات يسأله عن هذه المطبعة، وطلب منى أن أعيدها له، فرفضت وقلت له إنى سأكتب مقالاً أشكره فيه وأقول إن الرئيس السادات أمر أن آخذها فوافق فوراً وانتهت القصة.

جرنالجى لا.. إدارجى نعم

● أنت أيضًا خلفته فى رئاسة تحرير آخر ساعة، فما تقييمك لهذه المرحلة التى شغل فيها منصب رئيس التحرير.. هل أجاد؟

■■ بالنسبة لعملية التحرير نفسها لم يكن لديه خبرة طويلة فيها، لكن بالنسبة للتنظيم كان ذا خبرة ودراية واسعة، لأنه صاحب عقلية منظمة وتقييمى الأمين له هو فى الأصل أديب وكاتب قصص وروائى، أما حرفية أو صناعة الأدب الصحفى فلم تكن من اختصاصه، كما أنه لم يكن من أحلامه، ورغم ذلك استطاع بعقليته التنظيمية أن يتكيف مع العمل ومشاكله مع أن تجربته الأصلية كانت فى الإدارة وليست فى التحرير.

● وجوه يوسف السباعى عديدة.. ترى ما هو الوجه الذى يشكل ملامحه الأساسية؟

■■ كل الوجوه هى يوسف السباعى، فهو أديب أولاً، وصحفى ثانيًا، ومفكر سياسى ثالثًا، وشهيد الكلمة رابعًا، وأخيراً هو الفارس النبيل.

لم يكن يمينيا ولا يساريا

ياحضرات القضاة..

هذا المخلوق الذى يدعى الإنسان

قد طغى وبغى وتجبر وتكبر دون أى سبب ولا داعى

لقد خاب عقله.. بدليل أنه حتى الآن لم يعرف

كيف ينظم عالمه أو يؤمّن حياته؟!

ألا ترون تلك الحروب التى أفسد بها دنياه

وأقلق بها راحته؟

«وهل هناك أشد دلالة على الفساد والغباء والجهل المركب من تلك الطريقة التى حاولت بها أمريكا صد خطر الشيوعية وهى تعلم علم اليقين أن الوقود الذى تشعل فيه نيران الشيوعية هو الفقر والجهل والحرمان، وتعلم أيضًا أنه أول طُعم لتلك النيران.. إن الكثير الذى تملكه سيذهب كله هباء ومع ذلك فهى لا تحاول أن تضحى ببعضه حتى لا تجد ما يهيىء لها السريان».

هذه بعض من سطور السباعى الذى أُتهم ظلمًا وبهتانًا بأنه عميل لأمريكا وإسرائيل ومحطم قلوب العذارى الشيوعيين على أرض مصر الستينات والسبعينات، وهو الرجل الذى كان يؤمن أن العزلة التى فرضتها أمريكا على نفسها

منذ أوائل القرن العشرين للمشاركة فى تقرير مصير العالم والدفاع عن نفسها قد تحولت إلى شيء مضاد، هو السبب الحقيقى فيما يعانيه العالم من مشاكل، فهى ـ دفاعًا عن حريتها ـ سلبت حقوق شعوب أخرى، ومن بين الشعوب كانت فيتنام التى دكتها بالقنابل من أجل ضمان عدم اختيار الشعب الفيتنامى للشيوعية كنظام للحكم وهو الذى كان ينوى اختيارها بالفعل وكان من قناعته أيضًا أن الحزام الأمريكى لحصار الشيوعية أدى إلى خروجها للهجوم كرد فعل، خاصة بعد أن بات دفاع أمريكا عن نفسها ضد الشيوعية عادة مزمنة وعملاً إراديًا أكثر منه إجراء مبنى على دراسة وتفكير. .

لم يكن يمينيًا ولا يساريًا

أبعد كل هذا يقال عنه أنه من أنصار أمريكا وضد الشيوعية قلبًا وقالبًا وهو الذى كان يرى أنها فى تطورها الجديد وانتهائها من المرحلة الإستالينية يمكن أن تلتقى فى تفاهم مع بقية النظم الاشتراكية النابعة من الشعوب حسب اختلاف تقاليدها وعاداتها. . تفاهمًا مبنيا على احترام وليس تكتلا مبنيا على سيطرة. . والتساؤل موجه لزعيم اليسار خالد محيى الدين باعتباره شاهدًا أمينًا ومحايدًا على عصر السباعى.

«يوسف السباعى رغم مخاصمته للأحزاب الشيوعية، كان يحظى باحترام شديد ومحبة مدهشة من القيادات الشيوعية، هذا الرجل كان يُستقبل استقبالاً حافلاً حينما يذهب للصين مثلاً ويُقدر كقائد وطنى، رغم أنه لم يكن محسوبًا عليهم وفى أحيان كثيرة كان يقف ضدهم، ومع ذلك كانوا يحتفون به احتفاءً عظيمًا، لأنه يؤدى واجبًا وطنيًا ضد الاستعمار».

● لكن ماذا كان توجهه هو الشخصى فى تلك الفترة تحديدًا؟

■■ فى رأيى أن الإنسان يتطور دائمًا، فيوسف السباعى الذى بدأ العمل فى منظمة التضامن كان غير يوسف السباعى قبل موته، فحين بدأ فى التضامن، كان رجلاً مصريًا وطنيًا خبرته السياسية ليست كبيرة، وشغل منصبًا أراد أن ينجح فيه،

كانت وظيفته أن يجمع كل الناس لكى يكونوا معه ولا يثير لهم مشكلات ويقوم بكل الترتيبات اللازمة، ومن هنا نجح فى العمل فى منظمة التضامن الأفريقى ـ الآسيوى.

ومن بين أهم ميزاته الطيبة أنه كان على علاقة حسنة مع الجبهات المختلفة، كما أنه كان حريصًا على أن تكون الحكومة المصرية راضية عنه، فقد كان يقول دائمًا إن كل الدعم يأتى من الحكومة وإن وزارة الخارجية هى التى تدفع لمنظمة التضامن الأفريقى ـ الآسيوى.

ويضيف: أما فى نهاية حياته فلم يكن يمينيًا ولا يساريًا، بل كان يبتعد دائمًا عن قضية الخلافات الاجتماعية، لأن المنظمة كان فيها اليسار واليمين والوسط، وهو لم يكن يضع نفسه فى اتجاه محدد، ورأيى أنه ابتعد بنفسه أن يختار اتجاهًا سياسيًا محددًا، لأنه كان يريد النجاح لمنظمته. لكن فى نفسه ـ كما سبق وقلت ـ أنه كان يهاجم أيضًا السياسة الأمريكية فى تقرير مصير العالم، وكان يرفض طريقتها فى أن تسلب حريات شعوب أخرى دفاعًا عن حريتها.

وأمريكا فى هذا الوقت كانت تقف ضد مصر وذلك خلال فترة طويلة من حكم جمال عبد الناصر، وبالطبع كان يوسف السباعى مع السياسة المصرية وبالتالى يصطدم مع السياسة الأمريكية.. ولكن حينما تولى السادات الرئاسة تغير الوضع.. ولم يكن باختياره وتحديدًا عندما اصطحبه معه إلى إسرائيل، الحقيقة أن يوسف السباعى ظُلم فى ذلك جدًا، لأنه لم يكن يريد السفر إلى إسرائيل، لكنه أيضًا لم يكن يمكنه أن يرفض أمر رئيس الدولة، إذن من هذا كله نستخلص أن السباعى كان رجلا مصريا وطنيا يحب الناس أن تأخذ حقوقها وأن يحترم كل شخص الآخر، حتى وإن اختلفا سياسيًا.

● وهل تغيرت طبائعه السلمية حين تولى إدارة جريدة الأهرام، فالتاريخ يذكر له أنه قطع الأوصال اليسارية بينما أطلق العنان لليمين؟

■■ هذه كانت توجهات عليا، لأن السباعى كان يُحترم ويُقدر من اليساريين المصريين والعالميين، أيضًا كانوا يتفاهمون معه ولم يكن أبدًا معاديًا لهم، أما أفكاره

الاجتماعية، فلها قصة أخرى وهى تظهر بوضوح فى رواياته، ويكفى أن تشعر من خلال قراءتها أو مشاهدتنا لها أن كاتبها. . كاتب مصرى أصيل يعبر عن الشعور المصرى الأصيل.

مبادرة جمال عبد الناصر

● منذ الاجتماع الأول الذى ضم قواد أفريقيا لأول مرة فى التاريخ، أكثر من ثلاثين بلدًا أفريقيا يجلسون على مائدة واحدة ويتخذون قرارات موحدة وينشئون منظمة للوحدة الأفريقية تتحدث لغة واحدة هى لغة السلام إلى آخر مؤتمر بقبرص، شهد رحيل السباعى. . تاريخ طويل من القرارات والتوصيات والخطوات فى صالح الوحدة. . حدثنى عنها.

■■ أنا حضرت المؤتمر الأفريقى ـ الآسيوى قبل أن يتجول فى البلاد، جاء إلى مصر مندوبون من الصين واليابان والاتحاد السوفييتى والهند لزيارة مصر، قالوا إنهم يريدون إنشاء حركة للتضامن الآسيوى الأفريقى مع الحركات المناهضة للاستعمار فى أفريقيا وأسيا بحيث تنعقد فى مصر، كان ذلك فى أواخر سنة ١٩٥٧ وأوائل سنة ١٩٥٨، وفى هذه الفترة كانت هناك تهديدات بعدوان على سوريا فقد تجمع الأسطول الأمريكى أمام سواحل سوريا لتهديدها.

● إذن الفكرة كانت خارجية والمبادرة كانت من الرئيس عبد الناصر؟

■■ نعم فقد كنا نريد إنشاء لجان للتضامن فى بلدان آسيا وأفريقيا لكى نتضامن معًا فى نضال الشعوب وخلال اجتماعنا فى القاهرة، حدث التهديد فسافرنا إلى سوريا وأعلنا تضامنا معها كتجربة، ثم اجتمعنا مع القادة السوريين، وعدنا نستعد للمؤتمر الذى عقد فى أواخر ٥٧ وأوائل ٥٨ وقد حضرت هذه الاجتماعات.

كما حضرت تكليف الرئيس جمال عبد الناصر للسباعى برئاسة المجلس وجاء تكليف للسادات بإدارة اللجنة، فكان هو رئيس لجنة التضامن بينما يوسف السباعى هو السكرتير العام للحركة، واللجنة المصرية، كان يرأسها أنور السادات وأنا كنت نائب الرئيس ومتواجدا معهم دائما وحضرت استقبال الوفود وسفرها، كان المؤتمر

يشترط فى أعضائه تأييد التحرير أيا كان اتجاهه السياسى، واستغرق هذا وقتًا طويلاً حتى استقرت المفاهيم، وقد كان مؤتمر التضامن يلقى تأييدًا كبيرًا من الحكومات، لأن الفكرة ولدت فى آسيا وأفريقيا من بطن حركات التحرر التى أصبحت هى الحكومات الوطنية، لذلك فهى إلى حد كبير كانت متأثرة بالوضع الحكومى، وحينما أتى جمال عبد الناصر بيوسف السباعى كان يريد أن يدفع أحد هذا العبء عن كتفيه لأن الأمر كان يحتاج لمجهود كبير، وقد قال للسباعى صراحة إنه لا يريد لهذه الحركة أن تكون مكانًا لليساريين والمتطرفين السياسيين.

● ولكن الحركة كانت تضم يساريين بالفعل!

■■ حين أنشئت المنظمة جاء كل اليساريين للسباعى وعرضوا أن يعملوا معه لكنه كان حريصا على إبعادهم وقال لى إن الرئيس عبد الناصر استثنانى من هذا الموضوع لأنى كنت يساريًا.

● نعود مرة أخرى لأقطاب المنظمة، قلت لى إن الرئيس السادات كان رئيسًا للجنة المصرية للتضامن وأنت كنت نائبًا للرئيس ود. طه حسين أيضًا، من الذى شكل هذه التوليفة؟

■■ حقيقة لا أعلم ولكن كان من المفترض أن تمثل هذه التوليفة كافة المجالات لأنها تتحدث باسم مصر السياسية والفن والثقافة.

المهم حينما بدأنا الاجتماع الأول، قلت لهم إن أول شىء ستفعله اللجنة هو استقبال الوفود وأكدت أنه لابد من حسن استقبالهم لأنهم حينما يرحلون لن يتذكروا إلا هذا الاستقبال، وصممت على أن تستقبل الوفود بأحسن شكل وبالفعل علمنا بمواعيد وصول البعثات وجمعنا آلاف الناس فى المطار لاستقبالهم، وأثار هذا المؤتمر الذى استضافته مصر صدى رائعًا وأصبح معروفًا أن مصر هى بلد مؤسسة التضامن، حتى بعد توقيع اتفاقية السلام أغلب المنظمات تركت مصر إلا التضامن، وعليه ظلت علاقة آسيا بأفريقيا قائمة من خلال المنظمة.

عشنا أنا والسباعى فى الغابة

● جمعتكما رحلات خارج الحدود باعتبارك كنت رئيس الوفد المصرى بالمنظمة وهذه الرحلات جاءت بعد فترة توقف لمدة ٦ سنوات ابتعدت خلالها عن الحياة السياسية ثم عدت لممارسة نشاطك عام ١٩٦٤ فى العمل العام ومجلس الشعب والتضامن أيضا . . . ما هى أهم تلك التجولات التضامنية الدولية؟

■■ أهم التجولات التى خاضتها المنظمة، أولها كان فى ونبا عاصمة غانا، وأذكر أننا ذهبنا إلى بلدة فيها مدرسة حزبية لحزب نكروما، وقتها لم يكن أعضاء لجنة التضامن يعرفوننى، ولكنهم عرفونى حينما رأست الاجتماع، كان الكثيرون منهم يخافون منى لأنى من مجلس قيادة الثورة، وقد أتعالى على الجميع وأصمم على تنفيذ كلامى، لكن فيما بعد ارتاحوا جدًا للتعامل معى بعد أن رأوا مدى بساطتى أيضًا كانوا يحبون أن أسافر معهم فى كل مؤتمر للتضامن.

● يشاع أن رحلة ونبا كانت لها ظروف خاصة منها تكريم الرئيس نكروما أيضًا ظروف قاسية تحملها الوفد من أجل عيون التضامن الأفريقى الآسيوى. . . هل نتذكرها مع بعضنا البعض؟

■■ ونبا كانت بلدا وسط الغابات ومتواضعة للغاية والحياة فيها متقشفة ونحن عشناها بكل تفاصيلها الصعبة والقاسية، يكفى أن أقول لك كان هناك مشكلة فى مياه الشرب ومياه الاستحمام فى المياه عمومًا وأدى ذلك إلى أنه من شدة حرارة الجو، كنا نذهب لنطفئ نار أجسادنا الملتهبة من حرارة الشمس الاستوائية فى مياه المحيط، وهذه كانت المرة الأولى التى نعرف فيها حياة الأفارقة وتقاليدهم وعاداتهم بكل قسوتها.

● هل تذكر أهم الأحداث السياسية التى تمت خلال هذه الفترة؟

■■ أهم حدث فى هذه الفترة هو مؤتمر القارات الثلاثة، فقد ذهب مؤتمر التضامن إلى كوبا ونظمنا مؤتمر القارات الثلاث، وأصبح هناك أزمة لأن مؤتمر التضامن الآسيوى باقٍ والقارات الثلاث لم يبق وكانت القارات الثلاث هى آسيا

وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التى أنشأوا لها تنظيمًا فى كوبا، ولأن كوبا بلد مغلق فلم تصلح، لذا نقلوه إلى مصر، وحينما حدث ذلك فشلوا وضعفت القارات الثلاث أما مؤتمر التضامن، فقد ظل يسير على حاله لأنها كانت منظمة وطنية تعمل من أجل الاستقلال والتضامن، وكان من مصلحة مصر رعايتها وأيضًا كان هناك فى رئاسة الجمهورية مكتب أفريقى، كل قيادات أفريقيا كانت فى هذا المكتب مع محمد فايق الذى كان له دور أفريقى ضخم وكل حركات التحرر فى أفريقيا خرجت من تحت يديه.

● وماذا عن بقية تحركات المؤتمر، هل جاءت بنتائج إيجابية فى صالح المنظمة؟

■■ أنا سافرت مع السباعى أيضًا إلى الاتحاد السوفييتى والهند وكوبا حيث كنت أعمل رئيسا للوفد المصرى، كما سبق وقلت وكان السباعى سكرتير المنظمة، وكان هو يقدم كل التسهيلات الممكنة لإنجاح هذه السفريات لتخرج القرارات إيجابية ولا تتعارض مع خط مصر أو الاتجاه العام للمنظمة، هذا الرجل كان نشيطًا للغاية ويستعد لكل الاحتمالات ويعد كل شىء للاجتماعات قبل بدايتها بفترة وخصوصًا فيما يتعلق بالبيانات التى تصدر بعد الاجتماعات.

طائر بين محيطين

● وكيف استطاع أن يذيب التنافر بين التكتلات السياسية داخل أفريقيا كتلة الدول الناطقة بالفرنسية وكتلة الكومنولث الناطقة بالإنجليزية وينسق تعاونها ويدعم جهودها فى النهاية؟ هل جاء اختيار الرئيس عبد الناصر به فى محله، بمعنى هل كان الرجل المناسب فى المكان المناسب؟

■■ وظيفة يوسف السباعى أو مهمته الرئيسية كانت حل المشكلات ثم إن وجوده حما التضامن الآسيوى الأفريقى من أن يستقطب لجهة، وكان عبد الناصر حريصًا على ذلك، والسباعى كان من ذلك النوع المصرى الوطنى، يقيس الاحتياجات بما يفيد مصر، ويفعل ما فى صالح مصر، كما أنه كان حريصًا على ألا يغضب الحكومة المصرية، وألا يستقطب لا داخليًا ولا خارجيًا التضامن لأى جهة وقد نجح

فى ذلك نجاحًا كبيراً ، لذا جاء اختياره إيجابيًا لأنه استطاع أن ينفذ كل ما تم تعيينه من أجله وساعده على ذلك أنه كما قلت كان سكرتيراً للمنظمة ، إذن كان بعيداً فى هذا الشأن عن الصراعات السياسية .

● هل تشرح لى الفرق بين عمل سكرتير المنظمة وعمل سكرتير اللجنة المصرية؟

■■ كنت أتولى رئاسة الوفد خلال السفريات وكنت أيضًا عضواً فى مجلس الأمة ونائب رئيس حركة السلم العالمية وكلها أسباب كانت تستدعى وجودى لأكون رئيسًا للوفد المصرى فى أى مؤتمر لما كنت أحمله من خبرة وباع طويل فى السياسة ، وأذكر أن أهم شىء قمت به خلال أحد السفريات ، وتحديداً إلى ونبا هو أنى وجدت خلافًا شديداً بين الاتحاد السوفييتى والصين ونجح المؤتمر فى أن ينظم المؤتمر التالى للتضامن فى الصين ، وكان الكثيرون لا يريدون الذهاب إلى الصين ، لأن الصين وقتها كانت بادئة فى التطرف مع اللجان الشعبية ، ولم يكن الاتحاد السوفييتى يريد الذهاب ، وحينما أقيم مؤتمر القارات الثلاث دارت فيه معركة شرسة بين كوبا والاتحاد السوفييتى والصين ، مما أدى إلى انقسام المؤتمر إلى ثلاث جبهات وكنت أنا رئيسًا للجنة السياسية للمؤتمر وعقدت اللجنة السياسية للمؤتمر ثلاثة أيام متواصلة بلياليها وكان بجوارى دائمًا يوسف السباعى الذى كان مُصراً على فض هذا الاشتباك وحل المشكلة ، وأذكر أن كان معنا أيضًا الكاتب أنيس منصور ، وقد سافرنا بعدها إلى تنزانيا ثم السودان ثم سافرنا إلى الاتحاد السوفييتى فى مؤتمر السلام ، ولكن منظمة التضامن لم تعقد أى مؤتمر فى الاتحاد السوفييتى .

● فى كتابه «طائر بين محيطين» ، الكتاب الوحيد فى أدب الرحلات الذى سطره إلى جانب أعماله الروائية والمقالات ، وصف فيه كيف يمارس مهامه فى المؤتمر بشخصيتين مختلفتين ، الأولى ظاهرة أمام الناس ، تعمل وتناقش ، والثانية باطنة ترقب فى صمت كل شىء ، كل الناس ترقبه حتى هو نفسه هل استشعرت ذلك من خلال قربك له؟

■■ طبعًا هذه قدرة ، ليس باستطاعة أحد المران عليها ، فهناك الكثير من الأمور

لم يكن يوافق عليها لكن الظروف أمام تغيرات القوى والتصويت الذى من خلاله تتخذ التوصيات، الأمر كان يتغير، فهو دائمًا كانت عينه على الحكومة المصرية وعينه على ألا تضر هذه القرارات المصلحة المصرية والعربية عمومًا ومصلحة المنظمة التى يرأسها، فهو كان يواجه أشياء لا يستطيع تصورها تفرض عليه وميزته أنه كان يتقبل هذا حتى ينتهى من الأمر، ثم يستخدم وسائل أخرى عن طريق حصافته المصرية، فمثلاً لو فرض عليه بيان لا يطبع منه كثيراً فاستطاع أن يساير الأمور.

زمالة سلاح الفرسان:

● يوسف السباعى وخالد محيى الدين وزمالة سلاح الفرسان، ماذا تقول عن هذه المرحلة الثورية من تاريخ مصر؟!

■■ تعرفت على يوسف السباعى عن طريق شقيقه أحمد الذى كان أيضًا فى سلاح الفرسان، كان أحمد شقيقه الصغير دفعتى، كان له مشاكل كثيرة فى السلاح وأذكر أن يوسف كان يحضر من حين إلى آخر لإذابة هذه المشكلات ومن هنا التقينا وكان لطيفًا ودودًا ومتعاونًا، وأشهد أن السياسة التى سار عليها، لم تكن من اختياره بل فرضت عليه، حتى عندما دخل مجال الكتابة الصحفية، فرضت عليه توجهات معينة بحكم منصبه الرسمى، وخلال هذه الفترة كانت الدراسات الحرة منتشرة بعد مرحلة التخرج من الكلية الحربية وأنا فى هذه المرحلة كنت قد قررت أن أدرس التجارة لكى أحصل على شهادة أعمل بها لو خرجت من الحركة السياسية، فكنت وقتها أخشى أن أسجن وأخرج منها دون أن أؤمن مستقبلى الوظيفى، لذلك درست التجارة وحصلت على المحاسبة والمراجعة لتكون لى مهنة واضحة ومستقرة إذا تطورت الأمور وصارت فى اتجاه مغاير، وبينما كنت أدرس التجارة كان يوسف السباعى وثروت عكاشة يدرسون الصحافة دراسة عليا لمدة سنتين فوقتها لم تكن للصحافة كلية، وبعد ذلك تقابلنا فى مجلس قيادة الثورة، لم يكن هو من الضباط الأحرار ولكن كان من الكتاب الأحرار الذين يساندون الثورة وضباطها، وثالث لقاء جمعنا كان منظمة التضامن.

اليوجا لعبة السياسيين

● أنت من أنصار رياضة اليوجا وحاولت كثيراً أن تعلمها لأديبنا السباعى، فهل تذوقها كما تذوقتها أنت؟

■■ أنا تعلمت اليوجا عن طريق شخص يدعى عريان سعد، هذا الرجل كان سجينًا فى جريمة قتل، وأثناء فترة سجنه درس اليوجا وعلمها لنا بعد أن أنهى فترة العقوبة جاءنا فى نادى الجزيرة وأعطانا دروسًا مكثفة فى هذه الرياضة لمدة ستة أشهر متواصلة وهذه الدروس كنت منتظما فيها جدًا، لأنى عشقت هذه اللعبة وهى فعلاً رياضة إيجابية عبارة عن تمرينات رياضية من يمارسها يشعر بفائدتها الكبيرة وتتحسن صحته بسببها، فهى تعلم الصبر والنظام وترفع من معنويات الإنسان.

ويضيف: اليوجا فلسفة مادية فهى تعطى الجسم القوة وبالتالى تقوى روحه وليس العكس الجسم هو الذى يقوى الروح وليست الروح هى التى تقوى الجسم واليوجا تهتم بالجسم اهتمامًا كليًا، وتبدأ فى التركيز على الإيجابيات لتطرد السلبيات. ولقد لفتت هذه الرياضة نظر يوسف السباعى من أول لحظة وأراد أن يتعلمها فى إحدى السفريات، وأذكر أنى كنت دائمًا أحرص على تخصيص وقت لها وتحديداً فى الصباح الباكر، فوجدت يوسف يسألنى عنها ويصر على أن يتعلمها وهو الحقيقة كان عنده استعداد طبيعى للإتقان فيها لأنه يحمل فى طباعه الصبر والنظام والمرونة.

السباعى ظلم فى قتله

● لن أقول لك ما الذى تفتقده من عصر السباعى، ولكنى أريد أن أحصل منك على شهادة تاريخية فى حق هذا الرجل..

■■ يوسف السباعى ظُلم فى قتله، لأنه لو كان ترك له حرية الرأى لما ذهب إلى

إسرائيل فقد ذهب إلى إسرائيل مرغمًا وأنا متأكد من ذلك ومع الأسف المبرر فى قتله كان أنه ذهب إلى إسرائيل هم أرادوا أن يستهدفوا شخصية مصرية هامة وهو كان سكرتيراً لمنظمة التضامن الأفريقية الآسيوية، إضافة إلى ذلك كان شخصية معروفة عالميًا، وتصوروا أنهم بذلك يستطيعون ضرب مصر فى شخصه.

يضيف: حقيقةً يوسف السباعى كان شخصية ظريفة ومتعلمة وذات أخلاقيات عالية وعاش حياته وأخذ حقه بالكامل، هو أب حنون وزميل طيب، ولا يمكن أن تشعر أنه سيأتى لك منه شر، أنا حضرت الجنازة وحزنت عليه جداً وشعرت بالظلم البين الذى تعرض له.

ولاء للوطن وليس للأشخاص

فى مقدمة مجموعته القصصية الثانية «الشيخ زعرب وآخرون» كتب يقول: «معجزات هذا البلد فى عصرنا ثلاث . . أم كلثوم وعبد الوهاب والريحانى، وقد سبق أن أهديت كتابى «الأغنيات» إلى المعجزتين الأولى والثانية، ويبدو أن المعجزتين إما أنهما تجهلان القراءة أو تجهلان الذوق، فلم أشعر بأنهما أحستا بالإهداء، وأشعر رغم ذلك أنه من واجبى أن أهدى كتابى هذا إلى المعجزة الثالثة، ويشجعنى على ذلك أنها خرجت من نطاق البشر، وأصبحت فى عداد الأرواح، وأنها بذلك ستجنبنى لا محالة مشقة جحود الأحياء . . إلى روح الريحانى أهدى كتابى هذا فهو أحق من سواه بالشيخ زعرب وآخرون».

بكثير من الإدراك وكثير من التسامح وكثير من المرح استطاع يوسف السباعى أن ينجو من اليأس ليريح نفسه على ظهر هذا الكوكب فقد ملأ الدنيا وشغل الناس بنفحاته وهمساته ولطماته ولثماته وأيامه ولياليه حتى جفت دموعه وصار أقوى من الزمن، واستطاع أن يصمد أمام وجوه من نقدوه ونكروه واتخذوا منه موقف الخصومة سواء الأدبية أو الفنية أو السياسية أو الإنسانية، بابتسامة على شفتيه.

لقد خلا مكان يوسف السباعى بعد أن ملأ الدنيا بأعماله وإنتاجه وإنشاءاته الثقافية، خلا مكانه من الحركة الأدبية وهو الذى كان أكبر محرك فيها، ولى هنا وقفة تأملية تكسوها علامات استفهام، أدلى بها للكاتب الأستاذ كامل الزهيرى، أولها من عصر كبار الأدباء الذى ولى، ومدى تأثير الحركة الفكرية فى مصر برحيل هؤلاء ومن بينهم أديبنا يوسف السباعى . .

يجيب كامل الزهيرى : مصر تشبه نهر النيل ، سطح هادئ وباطن صاخب هو الذى يحمل التيار ويدفع بالمياه إلى سبعة آلاف كيلو متر ، صحيح أنه لا يظهر وهذا سر بأسنا فى بعض الأحيان ، ولكن تأتى لحظة يرتفع المنسوب ويعلن الباطن عن نفسه وقد يحدث فيضان ، وهنا أتذكر قول يحيى حقى لى حين ماتت منيرة المهدية ظن الجميع أن الفن انتهى ، فإذا بأم كلثوم تندفع بقوة لتملأ عالم الغناء ، إذن هذا اليأس والتشاؤم فى غير محله ، لأن مصر ولادة ومتدفقة وتمتلئ بالإمكانيات ، وأقول بصراحة إن الجيل الذى ظلم فى الأدب والرسم والسينما والحياة كان تعبيراً عن مرحلة معينة مليئة بالأحداث ، نسعى فيها للاستقلال والتحرر من الاستعمار القديم الفرنسى والإنجليزى ، والجديد الأمريكى والصهيونى ، كانت مصر فى حالة غليان ترسل معونات لثورة الجزائر وأسلحة للثوار الأفارقة واليمن ، وبالتالى كان الأدب والسينما يتسمان بالغزارة والتدفق أما الآن فالمزاج الاستهلاكى تغير ، وتغير معه كل شىء ، فى الأزمنة القديمة كان هناك نوع من التبنى بين العمال ، والتبنى فى الصحافة فلم يكن مصطفى أمين يرى أى موهبة إلا ويضمها إليه سواء داخل أخبار اليوم أو خارجها ، وكان حب العمل هو السبيل الأوحد للترابط والتفوق ، لازلت أؤمن بهذا المبدأ حتى اليوم ، ولن أتغير بديل أنه عرض علىّ عدة عروض إلى صحف أخرى ، ولكنى كنت أرفض بشدة وأقول إن روزاليوسف هى نفق ضيق إلى المجد أو إلى المعتقل .

كامل الأوصاف يسبق السباعى فى التجربة

● نعلم أنك سبقت يوسف السباعى فى قيادة روز اليوسف فما تقييمك لتجربته خاصة وأنه تقلد مهمة قيادة ثلاث مؤسسات صحفية عريقة فى فترات حرجة من تاريخ مصر ، وكأنه قد كتب عليه أن يكون رجل المهمات الصعبة فى الأوقات الخطرة؟

■■ بالنسبة لروزاليوسف فقد تميزت هذه المرحلة بأنه كان هناك علاقات وثيقة بين إحسان والسباعى ، وكان يوسف على علاقة جيدة بالثورة وبالرئيس جمال عبد

الناصر أيضًا، وكان هناك اتفاق بين إحسان ويوسف وتوفيق الحكيم على إنشاء نادى القصة، وأن تصدر الصحافة مطبوعات رخيصة تصل للشعب وتنشر للأدباء الجدد، أيضًا كان إنشاء المجلس الأعلى للفنون والآداب من منطلق أن يكون للأدباء كيانًا قانونيًا، وكان الثلاثى إحسان والسباعى والحكيم يدافعون عن الأدباء دفاعًا مستميتًا، كما أن الموضة الجديدة فى ذلك الوقت كانت التجديد فى الفن والأدب والمسرح، بداية من توفيق الحكيم إلى إحسان والسباعى، وبالطبع كان هناك مدارس صحفية عديدة، مثلاً مدرسة فكرى أباظة ومدرسة مصطفى أمين فى أخبار اليوم ومدرسة إحسان عبد القدس فى روزاليوسف وهى كانت مدرسة الرأى سواء فى النقد أو فى الأدب أو فى الفنون، أما مدرسة الخبر فكانت فى أخبار اليوم، وقد لاحظت فى هذه الفترة أن رءوس هذه المدارس يتحدثون معًا تليفونيًا بشكل يكاد يكون يوميًا، رغم أنهم كانوا يختلفون فى الكتابة، كما أنهم كانوا يؤمنون بمهمة اكتشاف المواهب الجديدة ورعايتها لتغذية الصحافة.

يضيف: المهم بعد تنظيم الصحافة عام ١٩٦٠ كان إحسان هو رئيس مجلس الإدارة، ويوسف السباعى هو العضو المنتدب، وفى رأيى أنه كان لهذا مغزى، والدليل على ذلك أنه حين دعا إحسان إلى تنظيم الصحافة وتمصير الصحف أعتقد أنه كانت هنا لجنة تتشكل من عبد الحكيم عامر وكمال حلمى وكان إحسان يظن أن ملكية هذه الصحف ستنقل للدولة وأنهم سيستثنون روزاليوسف ولكن ما حدث أن جمال عبد الناصر أصدر قرارًا بتنظيم الصحافة وليس تأميمها أى تنقل إلى الاتحاد الاشتراكى وليس للدولة، وحينما نفذ القرار لوحظ أن الملاك السابقين لم تعد لهم أى علاقة بالمؤسسات، ولكن المالك الوحيد الذى عين رئيسًا لمجلس إدارة المؤسسة هو إحسان عبد القدوس ووضع مع يوسف السباعى، وبالنظر إلى طبيعة العلاقة الخاصة بينهما سنجد أن عبد الناصر لم يكن يريد أن يجرح إحسان، وخاصة أنه كان صاحب فكرة التنظيم أصلاً، لذا فقد وضع يوسف السباعى كعضو منتدب فى المؤسسة.

كان عسكريًا فى إدارته

● لو عقدنا مقارنة بين منهج إحسان والسباعى، فلمن ترجح كفة القيادة التحريرية؟

■■ مسألة الإدارة كانت من أقل اهتمامات إحسان عبد القدوس، ثم إنه نقل اهتمامه فى فترة من الفترات من السياسة إلى الأدب، أما يوسف السباعى فكان عسكريًا فى إدارته، ولديه مسئولية تنفيذية، فكان يملك استصدار القرارات من عبد الناصر شخصيًا، كانت لديه القدرة على إنجاز الأفكار والمقترحات وتنفيذها، فصلة الوصل مع السلطة لم تنقطع منذ عهد عبد الناصر ثم السادات، وهذا بالطبع أتاح له فرصة ترجمة هذه المقترحات والأفكار من جانبه ووضعها فى حيز التنفيذ، ولاشك أن ثقة عبد الناصر واعتماده عليه فى كثير من الأمور وفر له الكثير من الوقت والجهد، كما أزاح من طريقه الكثير من العقبات التى اعترضت طريق الكثير غيره.

● عاصر يوسف السباعى مرحلتين رئاسيتين لعهدين مختلفين عهد ناصر الثورى وعهد السادات الانفتاحى، واستطاع بمهارة أن يتواءم مع مستجدات كل عصر على حده، والسؤال كيف ونحن نعلم أن الشخصيات تلك تحولت بمرور الوقت إلى مذاهب أى أن أصحاب المذهب الناصرى لم يقبلوا السادات، وأصحاب المذهب الساداتى كانوا رافضن لعبد الناصر؟

■■ السباعى لم يشعر بالغربة أبدًا بين عهد الرئيس عبد الناصر وعهد الرئيس السادات، لأنه فى الأصل ضابط يؤيد الثورة وهؤلاء كانوا زملاء وضباط وأصدقاء له، ورغم أنه كان صديقًا لعبد الناصر إلا أنه لم يكن يساريًا، وإنما كان وطنيًا، وفى نفس الوقت رغم الثقة التى وضعها فيه السادات لم يكن من أنصاره المؤيدين طوال الوقت، فهو فى المقام الأول ومع كل العهد كان مصريًا وطنيًا، رغم أنه التقى مع السادات على نفس ذات المنهج الرافض لليسار، وشعر أن ثورة التصحيح هى بالفعل تصحيحًا للوضع، وأنه لا يجب أن تكون الثورة يسارية.

فى النهاية أقول كخلاصة إن يوسف السباعى كان يتميز بأخلاقيات الضابط الذى يحمل ولاءً لوطنه ومصريته وليس للأشخاص، وقد ورث هذا الفكر من

والده محمد السباعى الذى ترجم أعمالاً تحدثت عن الحريات فى وقت مبكر جداً فى العشرينيات، ويحسب لمحمد السباعى أنه كان من الطليعة.

● إذا كان والده يحسب من طليعة المدافعين عن الحريات فعلى من يحسب يوسف السباعى.. على الأدباء أم على المفكرين السياسيين أم على الكتاب الصحفيين؟

■■ هو بدأ بموهبة عالية الجودة فى الأدب، وهذه المنطقة الفنية بالعوالم والتفاصيل، تلك التى أنبتت يوسف السباعى وهى أبو الريش خرج منها أيضًا توفيق الحكيم وكتب «عودة الروح» عن شارع «سبايان» كما خرج منها يحيى حقى وكتب «قنديل أم هاشم» عن حارة الميضة، وأيضًا فتحى رضوان وكتب «الخليج العاشق»، وكان كل هؤلاء يسكنون فى نفس المنطقة المحيطة بالسيدة زينب، وهى نفس المنطقة التى ولد فيها على الجارم والرافعى وبيرم التونسى، هذه الأحياء الشعبية كانت مليئة بالأحداث الدرامية الشخصية والقومية، وقد اتحدت فيها المشاعر الدينية مع المشاعر الوطنية.

ويضيف: ثم قرر يوسف أن يكون ذلك المؤرخ الوجدانى للثورة فكتب «رد قلبى» وغيرها، وكانت الثورة فى ذلك الوقت تحتاج إلى من يغنيها مثل عبد الحليم حافظ، ولمن يلحنها مثل كمال الطويل، ولمن يحللها مثل إحسان عبد القدوس، ولمن ينتقدها مثل نجيب محفوظ، كانت الأحداث تربة خصبة للإبداع، والتغيرات كبيرة ومتلاحقة، من احتلال إلى عدوان إلى اشتراكية ثم استقلال تام، يوسف هو كل هؤلاء، هو الأديب الذى روى، والمفكر الذى أرخ، والكاتب الذى نقل الأحداث.

السباعى غير مدروس بالقدر الكافى

● لأستاذنا توفيق الحكيم رأى يقول إن أى نوع من الفكر سواء كان سياسيًا أو أدبيًا يجب أن يتناول قضايا لها صفة الشمول لكى يصبح عالميًا، هل ينطبق هذا القول على فكر يوسف السباعى؟

■■ بكل أسف لا يزال يوسف السباعى غير مدروس بالقدر الكافى، النقاد كان لهم موقف متعنت منه، إما بسبب مقاييس جامدة فى النقد أو نوع من التحيز الأعمى فى المذهب، وأذكر أنه كان دائم الشكوى من ظلم النقاد له وتقسيماتهم النقدية، وكيف أنهم كانوا يصنفون البشر على أساس أن هذا يمينى وهذا يسارى، وبالتالى حرموا أنفسهم متعة اكتشاف محمد تيمور أو عزيز أباظة على سبيل المثال لمجرد أنهم على خلاف مذهب مع هذا أو ذاك؟

ورغم أنه قدم أعمالاً أدبية فى بداياته، وهذه الأعمال كانت لافتة للنظر بحق خاصة الأعمال ذات الحس الشعبى إلا أنه لم يأخذ حقه من التقدير كما ينبغى.

ويتابع: إضافة إلى أنه كما قلت قدم تاريخ الوجدان المصرى من وجهة نظر الثورة مثلما قدم نجيب محفوظ ثورة ١٩١٩ ومثلما توقف إحسان عند حادث اغتيال أمين عثمان وقدم «فى بيتنا رجل» وبظهور هذا النوع من الأدب أعيد اكتشاف شخصية مصر وعاداتها وتقاليدها وشخصياتها.

السباعى من ثقب باب الزهيرى

● ماذا لو نظرنا من ثقب باب الأستاذ كامل زهيرى على مقالات السباعى والتى بدأها فى جريدة الجمهورية، مروراً بآخر ساعة والمصور ونهاية بالأهرام... تقييمك لها؟

■■ لا نستطيع أن نقول إنه مفكر سياسى، فقد كان يكتب السياسة بمنظور ومشاعر الأديب، أو باعتباره مسئولاً حكومياً أى بحكم منصبه كرئيس تحرير، هذا المنصب الحكومى كان يفرض عليه العديد من الالتزامات بمعنى أنه حين كان يعترض كان يطرح أفكاراً جديدة، وحين كان يوافق كان يؤيد بل ويدعم الموجود، ومع ذلك لا يمكن أن نصنفه فى فئة الكتاب السياسيين، فلا نستطيع أن نحتسبه ضمن كتيبة هيكل ولا حتى نستطيع أن نجلسه على مقهى إحسان السياسى، فالكاتب السياسى لابد وأن يزعج السلطات ولم يكن هو يفعل ذلك إطلاقاً، فهناك من كانوا يتعاملون مع السلطات من خلال كتاباتهم من منطلق أن سلطان الكلمة

أقوى من كلمة السلطان، أى من منطق أنه كان يؤمن بأنه أقوى من السلطة بكلمته، تمامًا مثل العلاقة التى كانت بين الرئيس الفرنسى الأسبق شارول ديجول ورئيس تحرير جريدة الليموند، فكان ديجول يحترم رئيس تحرير الليموند ولا يعطى له التعليمات بالتليفون بل يرسل له خطابًا ليعبر بذلك عن احترامه وتقديره كصاحب سلطة لصاحب الفكر.

ويضيف: لذلك الذى نستطيع أن نقوله إنه كان لديه موهبة إدارية تفوق بكثير كتاباته السياسية المتخصصة، كان يأخذ المسألة على اعتبار أنها مهمة وليست وظيفة كما أنه كان شخصية بناءة يهوى أن يشيد الأبنية ويقيم الصروح وينظم حركة المرور حتى لا يصطدم أحد بأحد على المستوى الإنسانى، حقيقة هو كان شخصية نظامية فى حد ذاته، وكتاباته أو افتتاحياته السياسية كانت نظامية أيضًا تتمشى مع مهام منصبه.

الخلاصة أنه لا يمكن أن نعتبر مقالات السباعى السياسية تتشابه أو حتى تحمل نفس مستواه الأدبى، هو كان يتكلم فى السياسة دون أن يناقش النظام فى سياساته، أى كان يتكلم فى السياسة دون أن يغير فى السياسة أو حتى يهدف لتغييرها.

المطالبة بعزله من اتحاد الكتاب

● من الواضح أن المعارضة فى عهد السباعى لم تكن مستنيرة هادفة، وإنما كانت مشوبة بالتعصب أحادى البعد، والدليل على ذلك مطالبة الحزب الشيوعى بعزله من اتحاد الكتاب، ثم مرة أخرى فى أعقاب توليه منصب نقيب الصحفيين...

■■ لاشك أنه كانت هناك خصومة وصراع دائمين وكان هو واضح العداوة للشيوعيين، وأذكر أنى ذات مرة قلت له إنه لو طلب منه فصل صحفيين من النقابة وفعل ذلك سيكون إهانة لتاريخه، وإنه لو دخل تاريخ الصحافة بالاستجابة لأوامر الحكومة فلن يكون شيئًا جيداً.

وبعد ذلك أذكر أنه كان هناك طلب منه بتطهير الجدول، فشعرت بأن شخصية الفارس ومقوماته وأخلاقياته سوف تطغى على كل شىء حتى على الأوامر التى

يعتنقها كعسكرى، فقد كان من الممكن أن يطيع الدولة ولكن تسلح بفروسيته حتى فى أشد أوقات المعارك.

● حدثنى.. هل كان يلجأ إليك باعتبارك نقيبًا سابقًا ولك دراية بهذا العالم؟

■■ هو طبعًا كان أكبر منى سنًا ومركزًا ولكن كانت لدىّ الخبرة الكافية لأفيده بحكم أنى كنت قريبًا أكثر من هذا العالم، والحقيقة قد أكون مختلفًا معه فى موضوعات معينة كموضوع «كامب ديفيد» مثلاً، ولكن واقعة اغتياله كانت كارثة شخصية لى، ولذلك فقد كتبت مقالاً رائعًا له رغم أنى كنت مختلفًا معه، فذات مرة حينما كان وزيرًا للثقافة اختلفت معه لأن الدولة قررت أن تستبعد اليساريين من مجلة الكاتب التى كانت تصدر من الجمهورية فجاء هو بالصديق «صلاح عبد الصبور» وعينه رئيسًا للتحرير فكتبت مقالاً فيه عنف ولكن بحب وقلت له «لا تدخل التاريخ بعصا الوزير، لكن أدخلها بقلم الكاتب، لأن ما من شخص أغلق جريدة أو اعتدى على حرية الصحافة إلا وأصابه شؤم هذا الفعل». وقلت له إن «أندريه مارو» حينما كان وزيرًا رفض أن يخرجوا رواياته وأن الوزير ليس من المفروض أن كل ما يتبعه من إدارات ومجلات تتبع آراءه، ورد يوسف السباعى على هذا المقال فأرسل لى خطابًا، لكن من صدى مقالى أن هاجمه الكثيرون، فشعرت أنه لم يغضب منى لأنى قلت رأيى بلغة عالية، ولم أهبط أو أهاجم بعنف.

وكانت مشكلته ـ كما قلت ـ هى قوة ذاكرته وهذا لا يتعلق بالنسيان، بل بمدة العقوبة، والخصام فلم يكن يحدد مدة تنتهى فيها هذه الصراعات.

زلزال الاغتيال وتوابعه

● وماذا كان رد فعل المثقفين إزاء عملية اغتيال السباعى؟

■■ الحقيقة كانت متنوعة، كنت أيامها نقيبًا للصحفيين ورئيس اتحاد كتاب الصحفيين العرب، وطبعًا كتبت مقالاً استنكرت فيه هذا، وأقمنا سرادق عزاء أمام النقابة، وحضره الكثيرون وأنا أقول دائمًا إن السلاح الرئيسى فى يد إسرائيل هو أمريكا، والسلاح الأقوى هو الخلافات العربية التى من خلالها كانوا ينشرون فى

صحيفتهم أخباراً ملفقة لتوسيع الفجوة بين مصر والبلاد العربية، فمثلاً يتم نشر أنه قد تم الاتفاق على أن يكون الانتقال بين مصر وإسرائيل مقابل خمسة جنيهات وهذا حتى يزداد السخط على السادات وعلى أتباعه وأعوانه وأنصاره.

● هل يمكن القول إن مقتل يوسف السباعى أحدث زلزالاً وكانت له توابعه فيما بعد؟

■■ طبعًا فقد استمر تأثيرها حتى اغتيال السادات.

بورتريه السباعى

● كامل الزهيرى الكاتب والفنان الذى يرسم بريشته صحافة الألوان لو قدر لك أن ترسم بورتريه بريشتك ليوسف السباعى، فما هى الملامح الرئيسية التى ستحددها لتعبر عن شخصيته؟

■■ هنا يحضرنى شيء ولابد أن أعترف به وهو أنى كنت دائمًا أضع فى ذهنى أن الرجل الجميل غبى وكذلك المرأة الجميلة، كما أتوقع أن الشخص الذى يحمل ملامح الوسامة يضار من ذلك جداً، ويوسف السباعى كان وسيمًا جداً، كان يمكن أن يعمل بالتمثيل أو يكون باشا، ومع ذلك لم يشعر هو بهذه الوسامة، لذا فأهم ملامح يوسف السباعى هى الجمال الشفاف الذى له روح وحضور.

نصير المرأة

«وقف الإخوة الأعزاء رفاق الأمس

يطلبون رءوسنا ويهدرون دمنا

لقد تعودنا منهم إهدار الدم بعد القبلات

والمطالبة بالرأس بعد الأحضان

وإذا حفظ الله رءوسنا من الإطاحة

فإنها مازالت تنتظر القبلات

وإذا صان الله دمنا من الإهدار

فأذرعنا مفتوحة لعناقهم

حفظهم الله ممن أراد أن يطيح برءوسهم

ومن عزم على أن يهدر دمهم

وفتح الله عيونهم على الحق

لأنها قضية وطن وليست لعبة شطرنج

إنها قضية أولئك الذين أبصرناهم

فى الأرض المقدسة يهتفون

للرجل الشجاع لأنه أسمع العالم صوتهم

إن الشعب المصرى كجزء من الأمة العربية

يتحرك بكل الثقة والإصرار

وهو واضح فى حركته فى طريق السلام العادل

ملتزم بالحق العربى فى أرضه المقدسة

وبحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره».

كانت هذه الكلمات هى آخر ما نطق به السباعى فى مؤتمر السلام ردًا على أولئك الذين اعترضوا على مبادرة السلام، وتوعدوا يوم كتب عن السلام. . كان يعيب موقف الذين يقفون ضد السلام كان يؤمن بأن الأدب بطبعه يدعو إلى السلام وبالتالى فللأديب دور بارز فى خدمة السلام وشاءت الأقدار أن يكون هو نفسه أول ضحايا السلام، هذا الرجل الذى بدأ حياته مقاتلاً بسلاح الفرسان ثم فدائيًا بقلم الكتاب. . مات قتيلاً. . مات شهيدًا. . فداءً للمحبوب الوطن.

فمنذ أن وافق الرئيس جمال عبد الناصر على عقد المؤتمر الأول للتضامن الأفريقى الأسيوى بالقاهرة فى ديسمبر ١٩٥٧ وكلف السباعى بإعداده ثم ارتبط اسمه بعد ذلك بحركة التضامن الأفريقية الآسيوية، إلى أن وصل لأن يكون رئيس مجلس تضامن الشعوب الأفروآسيوية، وهو يسعى لتجميع القوى فى سبيل خدمة القضايا الأفروآسيوية.

وتحكى الصحفية خديجة قاسم باعتبارها القاسم المشترك ليوسف السباعى فى أغلب رحلاته التضامنية عن بذور اللقاء الأول الذى جمع بينهما وتحول بمرور الوقت إلى لقاء دائم وعمل متواصل وأسفار لا تنتهى كأحد أفراد كتيبة المنظمة تحت لواء قيادة السباعى.

تقول خديجة قاسم: «كنت وقتها أعمل بروزاليوسف وكُلفت بأن أجرى تحقيقا عن المؤتمر الأفريقى الآسيوى الذى عقد فى سميراميس وبالفعل ذهبت لمقابلة الوفود



مؤتمراته الأفروآسيوية كان لها صدى عالمى ومحلى هائل وخديجة يوسف عن يسار يوسف السباعى
وبالصورة مرسى سعد الدين (الثانى عن يمينه)

ورؤسائها، وبينما كنت أتحدث مع وفد فيتنام فوجئت بالفنان صلاح ذو الفقار وكان يعمل بالمؤتمر أيضًا يسألنى من أى صحيفة جئت، فقلت له من روزاليوسف ومازلت تحت التمرين لأنى طالبة فى كلية الآداب قسم صحافة، فطلب منى أن أعمل بالمؤتمر وأتولى عملية الترجمة من الفرنسية إلى العربية وحدث ودخلت الامتحان بعد أسبوع ونجحت وترتب على ذلك تحديد موعد لى لمقابلة يوسف السباعى شخصيًا وذهبت وأخبرته أنى مازلت طالبة وأعمل فى روزاليوسف ونجحت فى اختبار التعيين بالمؤتمر واستشرته فيما يمكن أن أفعله بعد ذلك، فقال لى إنه لابد أن أواصل دراستى حتى لا تتأثر بعملى مع السماح لى بالمغادرة فى مواعيد محاضراتى».

وتكمل: «الحقيقة هو كان يتميز بصفات عديدة طيبة أهمها تشجيعة للشباب وإعطاؤهم كل الفرص التى تتيح لهم النجاح بل والتفوق فيما يكلفون به من مهام، وأذكر أنه ذات مرة كنا فى مؤتمر بتنزانيا وكان هناك چومو كينيا رئيس حكومة كينيا الذى سجن لسنوات طويلة وكان قد خرج من سجنه منذ يومين فقط، ففكرت أن

هذه فرصة عظيمة متاحة أمامى لأن أسبق زملائى الصحفيين فى إجراء حوار معه، وبالفعل طلبت من وزير خارجيتنا تحديد موعد معه وكان اللقاء فى نيروبى وذهبت كعادتى لأستشير الأستاذ يوسف فى مدى صحة ما فعلته وكنت أظن أنه سيغضب لتجاوزى الصحفى، ولكنه على العكس تمامًا سعد جدًا لحماستى ودأبى وأشاد بى معلنًا أن جيلنا من الصحفيين الشباب لابد وأن يتمتع بهذه الفطنة، وقد ساعدنى فى استخراج تصريح لأسافر إلى مكان اللقاء وتحدث مع وزير الداخلية الذى كان معنا فى المؤتمر عن إمكانية توفير سيارة بسائق مع ضرورة وجود مرافق، وبفضل السباعى تم الحوار على أكمل وجه وأرسلته لمكتب مصر للطيران كما أعطيتهم رقم تليفون الأستاذ إحسان عبد القدوس حتى أطمئن على وصول الموضوع بسلام حيث كان يومها . . يوم جمعة ويندر وجود أحد، ولكن كان لدىّ حرص شديد على أسبقية النشر ثم عدت بعدها إلى المؤتمر بتنزانيا وعلمت أن الموضوع نشر بشكل جيد جدًا ولاقى اهتمامًا كبيرًا فى البى. بى. سى، وحين عدت إلى مصر عرفت أن الأستاذ إحسان أصر على أن يحذف موضوعه الافتتاحى السياسى حتى ينشر موضوعى أنا دون حذف أو تعديل، هكذا كان جيل الرواد إحسان عبد القدوس ويوسف السباعى.

السندباد المصرى

● أعلم أنك رافقتى أديبنا السباعى فى أغلب رحلاته بدول أفريقيا وآسيا وأوروبا وأمريكا الخاصة بالمؤتمر، ولكن الشىء الذى أود معرفته بشكل محدد هو أهداف المؤتمر، وهل نجحت تلك الأهداف فى اتخاذ القرارات الجادة المطالبة بتأييد حقوق الشعوب والدول فى الحصول على الحرية والاستقلال؟

■■ كان هدف المؤتمر الأساسى هو أن تكون مصر داخل الشعوب والدول الأفريقية والآسيوية، وعليه عقدنا مؤتمرا للشعوب السياسية ومؤتمرا للشباب وآخر للمرأة، ثم مؤتمرا للمفكرين والأدباء وأذكر أننا أحضرنا فيه كبار مفكرى العالم كله، ففى مؤتمر الكتاب جاء مولكراج آن أكبر كاتب فى الهند وأفتيشنكو الشاعر السوفييتى الكبير إضافة إلى مولود معمرى وناظم حكمت من تركيا والطيب

الصـالح من السـودان وغيـرهم كـثيـرون، وكـانت هذه المؤتمرات تغطى صـحفيًـا وإعلاميًـا على أعلى مستـوى بمساعدة الأستـاذ يوسف، الذى كان يهتـم ويسمح بحرية تنقل الصحفيين لنقل أخبار المؤتمرات أولا بأول إلى جانب تذليل كل العقبات التى قد تعترض طريقهم المهنى مع حل كافة المشكلات التى تواجهم رغبة فى إنجاز العـمل بشكل مسـتـمـر وفى أسرع وقت ممكن، حـقـيـقـةً يعـود له الفـضـل فى كل القـرارات التى اتخـذها المؤتمر لتـأييـد كفـاحنا من أجل الحـرية والاستـقلال وإعـادة الحقوق لأصحابها.

روح الأدب والفن تسيطر على جسد السياسة

● أغلب مؤتمرات السلام كان يمثلها كبار الأدباء والفنانين أكثر من السياسيين فما من مؤتمر إلا وظهر فيه الأسماء التالية إحسان عبد القدوس، أحمد بهاء الدين، عبدالرحـمن الشـرقـاوى، عبـد الحليـم حـافظ، كـمـال الطويل، بمعنى أن واجهـة السباعى فى مؤتمرات التضامن كانت أدبية فنيـة أكثر منها سياسية... ترى ما هو منطقه فى ذلك؟

■■ منطقـه فى ذلك كـان ينبع من احتـرامـه الكامل لمقـدرة الفنون والآداب على التعبير عن أهداف السياسة، وهذا ليس بغريب عليه لأنه كان الراعى الأول للفنون والآداب فى مصر، خاصة فى هذه الفترة الثرية التى شهدت سيطرة الفنون والآداب على الحركة الثقافية فى مصر، فكانت هى الخطبة والمقال والندوة وكل منابر الرأى، هذا إلى جانب احترامه وتقديره لدور المرأة باعتبارها نصف المجتمع، كان السباعى نصير النسـاء على الأرض والدليل على ذلك أن أول مؤتمر آسيوى، أفريقى كـانت اللجنة النسائية فيه مكونة من السيدة أم كلثوم وفاتن حمامة وماجدة والدكتورة سهير القلمـاوى وأمينة السعيد، ومن الرجـال د. زكى الشافعى وعبـد المنعم القيسونى، عـمـومًا هو كـان يسعى لاختيار الرموز الفكرية من كل المجالات إضافة إلى أساتذة الجامعات وعمدائها والحقيقة اختياره كان موفقًا فى كل مرة.

أصداء مؤتمرات السباعى للسلام

● وهل كان لهذه المؤتمرات صدى فى مصر يتناسب مع حجمها دوليًا؟

■■ بالطبع الأمر كان له صدى كبير جداً وفى كل الأوساط ليست الثقافية فحسب، مثلاً أول مؤتمر أفريقى آسيوى كان يحضره رؤساء الدول الأفريقية مثل سوكارنو وكروما وغيرهما، وكان من المرافقين لهما اثنان أحدهما دبلوماسى فى الخارجية والآخر طيار، كل شىء كان مدروسا ويسير بمنتهى النظام، وكان اختيار الشخصيات المشاركة يتم بمنتهى الدقة.

● وماذا عنك كيف تم نقلك من روزاليوسف إلى الأهرام تحت قيادة السباعى؟

■■ نقلت إلى الأهرام فى عام ١٩٧٦ تقريبًا، وكنت قد تركت العمل فى التضامن وتفرغت تمامًا لروزاليوسف، وطلبت ذلك تحديداً من الأستاذ يوسف وقال لى إنه سيستشير القيادة السياسية وبعد أيام فوجئت به يقول إنه سيعيننى بالأهرام، فسألت عن السبب فأجاب أنه كتب على نفسه تعهداً بذلك لأنهم لم يعودوا ينظرون لى على أنى صحفية خريجة الآداب والصحافة بل شطبوا كل ذلك ولم يعد يذكر لى إلا إنى حرم كامل الزهيرى الكاتب الصحفى المعارض للنظام، ثم عاد فقال إنه أخبر القيادة السياسية إنه المسئول عنى فتم إصدار أمر بتعيينى فى الأهرام ولكن زوجى رفض ذلك بشدة.

وبعد يومين تقابل الأستاذ يوسف مع زوجى كامل الزهيرى، وقال له إنه يريدنى فى مكتبه، فذهبت إليه وسألنى عن عرض الأهرام، فبررت موقفى وقلت له إنى أعمل فى مجلة أسبوعية، وسأتعب كثيراً من العمل فى جريدة يومية، فأكد أن قدراتى وتحملى للمسئولية يؤهلانى لتحمل مهام العمل الجديد حتى لو كان يوميًا، ومن هنا بدأت العمل فى الأهرام.

● كيف كان يتعامل السباعى مع العاملين تحت قيادته؟

■■ كان مثالاً للنظام والانضباط والاحترام والتقدير للصغير قبل الكبير، فإذا أتى له زميل يشكو زميلاً آخر يستدعى على الفور الاثنين معًا لتحدث مواجهة فلا

يتطاول أحدهما على الآخر وتنتهى الأزمة على الفور، بمعنى أنه لم يكن يجرؤ أى شخص على أن يقدم شكوى كيدية فى زميل آخر طوال عهد يوسف السباعى، هذه كانت إحدى سمات عصره الأهرامى.

ناصر القضية وشهيدها

● كان يوسف السباعى من أشد المدافعين عن الشعب الفلسطينى وحقه فى إقامة دولته، كان يقول إن «الشعب الذى ينتهى كفاحه وعمله الشاق المضنى إلى الصمت والحزن والكآبة لا يمكن أن يكون قد نجح فى عمله، بل لا يمكن أن يجد فى نفسه من الحماسة ما يدفعه إلى الحرص على كيانه ومجتمعه ووطنه». . . كيف يقتل قائل هذه العبارات على يد من يؤمن بقضيتهم؟ وهل توقع أحدكم عملية اغتياله؟

■■ على الإطلاق فقبل أن يسافر بيوم كنت فى طريقى للخروج من مبنى الأهرام وقابلته مصادفة وفوجئت به يسألنى عن المدة التى قضيتها فى العمل والسفر معه فقلت: «١٨ سنة يايوسف بك»، فعاد وسألنى إن كنت قد رأيته من قبل متشائمًا من السفر إلى أحد هذه المؤتمرات، وبالطبع نفيت ذلك، فقال ولكنى غدًا سأسافر إلى مؤتمر بقبرص، وأنا متشائم وغير مستقر بشكل لم يحدث لى طول عمرى، فعرضت عليه أن يرفض السفر أو يعتذر بأى حجة، فقال: «أنا عسكرى ولا يمكن أن أعتذر عن أداء واجبى نحو وطنى حتى لو كان الثمن عمرى»، وبعدها بيومين علمت بخبر استشهاده.

من أجل الحرية والمساواة والسلام

«كان أكثر ما يخذلنى فى حركة التضامن هو أن أجد تياراً ما جذبها وطواها، ليجعل منها مطية لقدرة معينة، كنت أشعر بأن واجبى الحقيقى هو أن أصون هذه الحركة لكى تبقى فى وضعها الأصيل وهو التضامن بين الشعوب الآسيوية ـ الأفريقية من أجل تحقيق الحرية والمساواة والسلام فلا تتحرك عن واجبها أو تضل طريقها».

لا تزال كلمات يوسف السباعى ترن فى أذن الكاتب إدوار الخراط ساعده الأيمن فى حركة التضامن وظله فى أسفاره العديدة، من وينبا إلى غانو ومن غانا إلى أديس أبابا ومن كليمنجارو إلى كوبا، ومن طشقند إلى سمرقند، أصبحت كثرة أسفاره أمرا حتميا واستقباله للزوار مثل الحركة اللاإرادية التى يفعلها المرء تعوداً أوتوماتيكيًا، فتجده يحيى كاسترو فى كوبا، ويضم جمبلاط فى لبنان، ويقبل عدنان الصلح فى اليمن، ويكرم نكروما فى غانا.

وهكذا فرضت عليه مهامه الرسمية أن يكون محترفًا، محترف سلامات وابتسامات وتحيات وأحاديث صحفية وتعليقات وبيانات وتصوير فوتوغرافى مع الأعضاء وضيوف الشرف، يتأمل ويفكر ويصمت ويضحك ويدلى بتصريحات فى آن واحد، كانت ردوده تنساب من فمه وكأنها قطعة محفوظات الكل متوقع منه المزيد، الكل معتمد عليه اعتماداً كليًا، الكل يطلب ويرغب ويريد وعليه التنفيذ، الكل يسأله منذ لحظة الوصول الأولى أين سنبيت؟ هل هناك سيارات تنقلنا إلى مقر

الضيافة؟ وكم ليلة سنقضيها؟ وكيف نتصل بأقاربنا؟ وما هى فروق التوقيت بيننا وبين مصر؟ وهو يجيب ويطمئن ويؤكد ويمتص ثورات البعض ويهدئ أجواء البعض الآخر هذا غير برنامجه اليومى أو لنقل برامجه اليومية المشحونة بالزيارات، زيارة صباحية للجنة التضامن ثم لقاء ظهرى مع لجنة السلام يليه حفل استقبال مسائى يعقبه مؤتمر صحفى يختمه عادة بعشاء عمل. كانت راحته الوحيدة الفريدة يقضيها فى النوم تلك الإغفاءة القصيرة المكبرة التى يلتقطها ما بين سفر ووصول، وكان يتصور فى كل مرة أنها رحلة اللاعودة، رحلة من أسفل إلى أعلى حيث الطريق إلى الله ليس بعيدا.

عن عمر الصداقة والعمل والسفر مع يوسف السباعى بدأ الكاتب إدوار الخراط حديثه فقال: «جئت من الإسكندرية بناءً على دعوة للعمل فى سفارة رومانيا وكان راعيا هذه العملية هما عبد الرحمن الشرقاوى وألفريد فرج، وكان ذلك فى عام ١٩٥٦، كنت قبلها مقيمًا بالإسكندرية وسكنت فى نفس العمارة التى كان يسكنها يوسف إدريس مع ألفريد فرج المهم فى هذا أنى بدأت فى إخراج مجلة السفارة الرومانية وكنت أقوم بعملية الترجمة وخلال هذه الفترة كانت هناك حركة على وشك الظهور لتكوين جمعيات الصداقة بين مصر والدول الأخرى ففكرنا فى تكوين جمعية الصداقة الرومانية، واقترحت عليهم أن يكون رئيسها السكرتير العام للمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون وهو يوسف السباعى، وبالفعل تكونت الجمعية وكان سكرتيرها «صبرى أبو المجد» وكان من بين أعضائها دكتور محمد مندور وعلى أحمد باكثير وسعيد العريان وصلاح السجينى ويحيى حقى وغيرهم من رموز تلك الفترة وبدأنا نشاط الجمعية من لقاءات وندوات، وبهذا الشكل تعرفت على يوسف السباعى كرئيس لى فى العمل».

ويضيف: «وحينما تركت السفارة الرومانية ذهبت إلى يوسف السباعى لكى أعمل فى منظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية، وبالصدفة البحتة كان الفنان العظيم رمسيس يونان على وشك أن يترك منصبه فى المنظمة كمدير للشئون الفنية فعملت مكانه وكان ذلك فى عام ١٩٥٩».

عشرون عامًا من التضامن

● حركة التضامن الأفريقى الآسيوى بدأت من عام ١٩٥٧ إلى عام ١٩٧٨ ، كيف تطورت خلال عشرون عامًا فى حياة يوسف السباعى؟

■■ بدأ المؤتمر فى شهر ديسمبر عام ١٩٥٨ ولم أحضره وقتها لإنى لم أكن قد عملت به بعد، وقد عقد الاتفاق على أن يكون السكرتير العام لهذا المؤتمر من اليوم الأول لتكوينه هو يوسف السباعى ثم أصبح رئيسًا له فيما بعد، وكانت هذه الفترة هى فترة مؤتمر باندونج وصعود حركة التحرر الأفريقى الآسيوى من قبضة الاستعمار الأوروبى، كانت هذه هى عاصفة الحرية التى هبطت على أفريقيا وآسيا وقتها، وباندونج كان المؤتمر الرسمى على مستوى الحكومات وظهرت فكرة أن نعقد باندونج على مستوى الشعوب والأحزاب السياسية والجماعات المدنية، وهكذا كان المؤتمر هو باندونج ولكن على مستوى الشعوب وليس الحكومات، وكانت أهدافه هى الأهداف السائدة فى تلك الفترة وهى الاستقلال الوطنى والتحرر من التبعية إلى آخر هذه الأهداف، لقد كانت الغالبية العظمى من دول أفريقيا وآسيا تعانى من الاستعمار فى تلك الفترة فكان التحرر الوطنى والتخلص من التبعية هما الهدف الرئيسى من هذا المؤتمر.

● وهل جاء المؤتمر بالثمار المنتظرة؟

■■ طبعًا كانت هناك ثمار فلقد عملت فى هذا المؤتمر منذ عام ١٩٥٩ حتى عام ١٩٨٦، وأعطيته زهرة العمر وتابعته، والحقيقة كان له نفوذ واحترام كبير ومصداقية لأن معظم حركات التحرر الوطنى وإن لم تكن مندرجة أو منضمة إليه انضمامًا مباشرًا كانت تحظى بتأييد وترويج هذه المنظمة التى كانت تضم نخبة من الرموز المصرية والهندية والجزائرية المناضلة، خلال هذه الفترة تعرفت على شخصيات أفريقية أصبحت الآن رموزًا فى بلادها مثل باتريس ليبومبا وسيكو تورى وغيرهما، لقد كانت مؤتمرات التضامن الأفريقية الآسيوية قوية جدًا ولها شقًا دعائيًا وترويجيًا وشقًا للدعم المادى غير منظور لإمداد ما تحتاجه حركات التحرر الوطنى المختلفة.

● هـل تُطلعنى على أهـم القـرارات التى اتخـذت فى فـتـرة رئاسـة يوسف السباعى له؟

■■ كان تأييد القضـية الفلسطينية والدفاع عنها بكل الوسائل وتأييد التحرر الأفريقى من أول جنوب أفريقيا مروراً بكينيا والجزائر وغينيا وغيرها من الدول من أهم واجباتها، فكانت فعلاً ساحة لتجمع المناضلين، وكان الكثير من المناضلين يأتون للقاهرة بعد مشاق وصعاب لا تتصور فلم تكن هناك طائرات مباشرة، فقد كانوا يقضون أسابيع فى الطريق للوصول للقاهرة للمؤتمر الأول، وعُقد الثانى فى كوناكرى فى سنة ١٩٦٠، والثالث فى غانا، والرابع فى لوساكا، وكانت هذه المؤتمرات تمثل علامات فى تاريخ النضال الوطنى وبالفعل كانت تموج بالعمل والحماس والنشاط، ويوسف السباعى كان هو الدينامو الحقيقى فى هذه المؤتمرات ومحركها الأصلى فكان يجمع بين التأييد الكامل لقضايا التحرر والحكمة والحنكة فى تيسير العلاقات المعقدة التى كان من الضرورى أن تنشأ وتتطور بين كل هذه القوى المختلفة، ولكن هذا كله كان بتوجيه واضح جداً من الرئيس جمال عبد الناصر شخصيًا حيث كان يرعى بنفسه ويتتبع هذه الحركة كلها.

● هل تباطأت القوى التضامنية التحررية فى مرحلة السادات أم سارت على نفس ذات الدرب من الحماسة والإيمان؟

■■ لا بل تواصل النشاط ولكن الاتجاه تحول بشكل كبير للتنمية الاقتصادية، فقد تحقق الاستعمار على الأقل رسميًا واستقلت الدول وأصبح لها أعلام ومقاعد فى الأمم المتحدة إلى آخر مظاهر الاستقلال، ولكن المشكلة كانت مشكلة الاستعمار الجديد، فبعد رحيل الاستعمار العسكرى أصبح هناك استعمار اقتصادى ورأسمالى وتبعية، وكان هذا هو الاتجاه الذى بدأت المنظمة تعمل فيه فى عصر السادات، لكن الخط العام إلى أن قُتل يوسف السباعى سنة ١٩٧٨ ظل كما هو.

السباعى كان يساريًا فى المنظمة

● هل أثر توجه المنظمة اليسارى على يوسف السباعى فى ذلك الوقت؟

■■ يمكن أن نقول إن يوسف السباعى فى هذه المنظمة كان يساريًا لأن توجه المنظمة كان يساريًا فى الأساس، ويمكن أن نسميه توجه الجناح اليسارى من النظام الناصرى لأن النظام الناصرى كان فيه هذين الشقين، فالاتحاد السوفييتى كان الحليف الأساسى لعبد الناصر وللنظام الناصرى وطوال هذه الفترة كان له دور فعال فى منظمة التضامن الأفريقى الآسيوى بناءً على تشجيع جمال عبد الناصر شخصيًا.

قناعات السباعى السياسية

● تقول إنه كان يساريًا فى المنظمة على عكس ما عُرف عنه من خلال قربك له .. ما هى قناعات يوسف السباعى السياسية؟

■■ كان رجلاً وطنيًا محبًا للناس والعدالة ولم يكن ماركسيًا، لكنه كان يقبل ويساهم فى التوجهات اليسارية الوطنية العريضة الشاملة التى كانت تعمل تحت مظلتها هذه المنظمة.

● فى الفترة من عام ١٩٧٨ أى بعد استشهاد يوسف السباعى حتى عام ١٩٩٧ وهو تاريخ تركك للمنظمة، كيف سار الحال بعد اختفاء المحرك الرئيسى والوقود الأصلى لشعلة المنظمة؟

■■ لقد حل محل يوسف السباعى شخصية هامة وبارزة وهو عبد الرحمن الشرقاوى والذى تم تعيينه سكرتيراً عامًا للمنظمة حتى وفاته، وبالتالى فقد ظل التوجه العام للمنظمة كما هو إن لم يكن قد ازداد انحيازاً لليسار، ولكن فى تلك الفترة بدأ الاهتمام يتزايد ويتصاعد من المشكلة الأساسية التى قابلت كل شعوب أسيا وأفريقيا وهى مشكلة التنمية الاقتصادية والاستقلال الاقتصادى، فلم تعد هناك دول مستعمرة، وأصبح الهم الأساسى هو التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وعليه بدأ اهتمام المنظمة يتركز فى هذه المسألة.

ويضيف: وكانت هناك منظمة هامة جداً وقريبة من منظمة التضامن الأفريقى الآسيوى وهى منظمة اتحاد الكتاب الأفريقيين والآسيويين والتى كان سكرتيرها

العام أيضا يوسف السباعى وسكرتيرها العام المساعد هو إدوار الخراط، وكان هذا الاتحاد نشيطًا للغاية، وعقد مؤتمرات فى منتهى الأهمية لكن أهل الموسيقى والفن كانوا يحضرون كمساندين وضيوف شرف وليس أقطابًا لهذه المنظمة، فقد كان يوسف السباعى يتميز بتنوع اهتماماتها الفنية والأدبية والسياسية والاجتماعية.

● بصراحة.. ما سر كراهيته الشديدة لليسار المثقف؟

■■ لا أعرف بالضبط ماذا كانت المشكلة بينه وبين اليسار المصرى المثقف، فلم أكن شاهدًا على هذه المشكلة بدرجة كبيرة، ولكن يشهد عليها اليسار الأفريقى ـ الآسيوى الذى كان يشجعه ويؤيده باستمرار، بل كان هناك ولاء من يوسف السباعى لهذا الاتجاه اليسارى التحررى على المستوى الأفريقى والآسيوى، ولكن العلاقات بين يوسف السباعى واليسار المصرى كانت معقدة تتعلق ببعض نقاد اليسار الذين لم يجدوا فى كتابة يوسف السباعى ما يشيدون به، وبالتالى نشأت الخصومة الطبيعية التى تنشأ بين الناقد والكاتب الذى يشعر بأن النقاد يظلمونه، فلم تكن كراهية بقدر ما كانت اختلافات فى الآراء، فقد كانت هناك مشكلة حقيقية بين الناقد الدكتور عبد القادر القط وبين يوسف السباعى تتعلق بالنقد أولاً ثم بالخصومة والخلاف بين موقع سلطة يمثله السباعى وبين مثقف وناقد هو الدكتور القط.

جنت عليه براقش الرسميات

● إذن جنت عليه مواقعه القيادية..

■■ كثيرًا، حيث هناك الآن نوع من الإشارة لما يسمى بجنرال الثقافة المصرية فى هذا الوقت بنوع من الاستخفاف والاستهجان ولكن جنرال الثقافة المصرية لم يكن يوسف السباعى، ولكنه جمال عبد الناصر نفسه، ولكن لا أحد كان يجرؤ على قول إن عبد الناصر كان ضد الثقافة، على العكس هناك التباس وغموض فى موقف من يهاجمون يوسف السباعى، فهو لم يكن قديسًا أو معصومًا من الخطأ، ولكن اليسارين وبعض المتعلقين بأذيال اليسار، وبعض من استفادوا منه هاجموه وقتها ولا يزالون حتى الآن، ومع ذلك كان يوسف السباعى واسع الأفق جدًا نتيجة

لمقوماته الأساسية وكان يحب أن يحبه الناس ، وكان يعمل على أن يحبه الناس ، وكان يتمتع بالكرم الروحى الذى يغذى هذه المحبة ، وساعد كثيرين جداً ، ولم يتردد أبداً فى تقديم أى نوع من أنواع الخدمات للمحتاجين ، وهناك رموز ثقافية وأدبية استفادت من هذه المساعدات ، وكان من حقها هذا ، ولكن هو وحده كان الأداة الفعالة لما هم عليه الآن ، حقيقة كان إنسانا واسع الصدر ، متفتحا ، ومسألة كراهيته لليسار أعتقد أن السبب فيها هو اليسار نفسه رغم أنى لا أستطيع إنكار المسئولية عن الطرفين .

جبرتى العصر

● هناك رأى قرأته لأستاذنا نجيب محفوظ يقول فيه : إن يوسف السباعى كان جبرتى عصره ، وإنه حينما كان يستخدم الفانتازيا فى كتاباته كان يمارسها كوسيلة للنقد السياسى والاجتماعى ، معبراً عن القضايا التى تؤرق وجدان الشعب المصرى . . فما تعليقك على ذلك؟

■■ أعتقد أنه أكثر قدرة على النقد الاجتماعى منه على النقد العام أو الثقافى ، كل قصصه حتى فى الفترات الأولى وحتى القصص التى تبدو رومانسية فيها اهتمام كبير وعميق بالجانب الاجتماعى والسياسى .

● هل تحرر يوسف السباعى من عسكريته فى الكتابة ، أم ظلت العسكرية ملازمة له طول الوقت؟

■■ لم يتحرر أبداً من عسكريته لا فى الكتابة ولا فى غير الكتابة .

● فى اعتقادك ما هى عيوب العسكرية؟

■■ سأتحدث عن مميزاتها أولاً وهى الولاء ، وروح الزمالة والتضامن والانضباط والدقة والنظام ، وكلها إيجابيات كانت واضحة جداً فى شخص يوسف السباعى ، وفى كل من لهم أصل عسكرى خاصة حينما يكون مثقفًا ، أما عن العيوب فهى تتمثل فى الجزء السلبى للصفات السابق ذكرها مثل الولاء للقيادة ، فيوسف

السباعى ظل يدين بالولاء للقيادات حتى آخر لحظة من حياته حتى لو كانت توجهات هذه القيادات العليا مخالفة لقناعته الشخصية كان ينفذها أيضًا لأنه عسكرى.

أنف وسبعة عيون

● وجوه السباعى عديدة ومتنوعة، ترى ما أهم وجه سيذكره التاريخ له؟

■■ أعتقد أن أهم جوانب يوسف السباعى فى تقديرى هى جوانب سبعة، فقد لعب دورًا أساسيًا فى الإنشاء والتنمية واستمرار عمل المجلس الأعلى للثقافة، رغم أن هذا المجلس ينكر الآن دور يوسف السباعى، وأما الوجه الثقافى فتأتى أعماله القصصية والروائية وأيضًا إسهامه فى السينما وفى السيناريو وفى الأفلام التى كان يرعاها ويرعى ممثليها باعتباره وزيرًا للثقافة وهذا وجه آخر، أما الوجه الخامس أو السادس فكان خاصًا بالتضامن الأفريقى - الآسيوى، واتحاد الكتاب الأفريقيين - الآسيويين، فقد لعب فيهما يوسف السباعى بشخصيته دورًا كبيرًا فى ظل ظروف سياسية وتاريخية مواتية لنمو هذه الحركة، وكانت شخصيته بمقوماتها من الأسباب الرئيسية فى الإسهام فى تدعيم هذه الحركة واستمرارها وقوتها وفعاليتها.

ويضيف: كل هذه الوجوه والملامح متصلة ببعضها البعض وفى نهاية الأمر تشكل الصورة النهائية، فقد كان يعمل فى مجالات متنوعة، وكل مجال يثرى المجال الآخر، فيفيد ويأخذ ويكتسب منه سواء كانت السياسة أو الفن أو الثقافة أو الإبداع وكلها أمور تثرى بعضها البعض وتحقق للصورة النهائية جمالها ورونقها، وهكذا كان يوسف السباعى.

وجه
الشهيد

حادث اغتيال يوسف السباعى

«لو عرفت أنى سأنتهى إلى هذا المصير..

لسلكت إليه أهون السبل..

ولو عرفت أنه سواء علينا كنا مخلصين أو منافقين..

وسواء كنا أصحاب المبادئ والمُثل..

أم كنا أوغاداً لؤمة..

وسواء كنا ذوى قلوب عامرة بالإيمان والحب..

أم كنا ذوى قلوب جامدة.. قاسية.. خالية..

فإن مآلنا واحد..

ومصيرنا لا يتبدل..

لو كنت أعرف هذا..

للفظت المبادئ، وحطمت المُثل..

ولسرت إلى مصيرى حتى بلغته..

جامد القلب.. عديم الحس

خائن.. كاذب.. منافق..

كغيرى من الخائنين، الكاذبين، المنافقين».

كان اغتيال يوسف السباعى بداية لسلسلة من أبشع الاغتيالات دفع ثمنها الكتاب فى مصر سواء من حياتهم مثل فرج فودة، أو الهروب من البلد خشية القتل مثل نصر حامد أبو زيد، أو من الحرية والمصادرة كما حدث مع الكثيرين.

تعالوا معى لنعرف ماذا فعل الأوغاد بيوسف..

إنه فى يوم الجمعة ١٧ فبراير عام ١٩٧٨ وصل أدبينا - أو لنَقُل شهيدنا - يوسف السباعى على رأس وفد مصرى إلى نيقوسيا عاصمة قبرص لحضور مؤتمر منظمة التضامن الأفروآسيوى، كان الوفد يضم الكاتب عبد الرحمن الشرقاوي، والناقد إدوارد الخراط والصحفية بهيجة حسين، وزميل السلاح كمال بهاء الدين، والسكرتير الخاص للسباعي حسين رزق والدكتور محمد نجيب.

وفى نحو الحادية عشرة والربع من صباح يوم السبت ١٨ فبراير موعد انعقاد الجلسة الأولى نزل يوسف السباعى من غرفته الكائنة بالطابع الخامس وتوجه إلى قاعة المؤتمر بالطابق الأرضى من فندق هيلتون الذى كان قد بدأ جلسته برئاسة مستر ليساراديس نائب سكرتير المنظمة ورئيس الحزب الاشتراكي القبرصي، وأثناء توقف السباعي أمام مكان بيع الصحف والكتب بالفندق والمجاور لقاعة المؤتمر أطلق عليه ثلاث رصاصات أصابته فى رأسه وفخذه ويده اليسرى من الناحية اليمنى، فلقى مصرعه، وصادف ذلك دخول السيدة بهيجة حسين عضوة الوفد المصرى والتى شاهدت يوسف والدماء الغزيرة تنزف منه، فدخلت مهرولة إلى قاعة المؤتمر وهى تصرخ باللغتين العربية والإنجليزية معًا بأن يوسف السباعي قد اغتيل، وإثر ذلك مباشرة شوهد المتهم الأول سميح خضير يقتحم قاعة المؤتمر، شاهراً بيده مسدسه وبيده الأخرى قنبلة منزوعة صمام الأمان، وفى نفس الوقت شوهد المتهم الثاني زايد العلي بصالة مدخل الفندق على مسافة قريبة من مكان الحادث ويمسك هو الآخر سلاحه وقنبلة ثم هدد شرطيين مسلحين وأمرهما بالتخلى عن سلاحيهما، واقتادهما مع مجموعة من نزلاء الفندق كانوا يجلسون فى صالة الفندق إلى البار من بابه الأمامى بهذه الصالة وتوجه بهم من الباب الخلفى للبار إلى الكافيتريا المواجهة إليه لينضم إلى المتهم الأول برهائنه،



وبداخل الكافيتريا أجبر المتهمان الرهائن على إغلاق باب داخلى يؤدى إلى المطبخ بالمناضد والمقاعد ثم تحدث المتهم الأول للرهائن باللغة الإنجليزية، وذكر لهم أنه وزميله قدما خصيصًا إلى قبرص لقتل السباعى بدعوى أنه جاسوس وخائن للقضية العربية لأنه كتب عدة مقالات فى جريدته ضد الفلسطينيين بعد عودته من زيارة القدس التى رافق خلالها الرئيس السادات.

التقسيم الدولى للرهائن

طلب القاتلان من الرهائن أن يقسموا أنفسهم إلى مجموعتين، الأولى تضم المحتجزين من مجموعة الدول الأوروبية والاشتراكية، والثانية تضم الدول العربية التى حضرت المؤتمر وهى المغرب والسودان وفلسطين، وبعدها أطلقوا سراح كل المحتجزين عدا عضوى الوفدين السوداني والفلسطيني والمصرى أيضًا، ثم طلب المتهمان حضور الرئيس القبرصى وجميع السفراء العرب، فأخبرهما مستر

ليساراديس أن رئيس الدولة خارج البلاد، وحينما حضر الملحق العسكرى السورى سليمان حداد، احتجزوه على أن يتولى ليساراديس مهمة الاتصال بالمسئولين القبارصة، وبعد فترة وجيزة عاد ومعه مستر بنيامين وزير الداخلية حيث دارت المفاوضات مع المتهمين اللذين طلبا طائرة تقلهما مع الرهائن إلى خارج البلاد، فوافق وزير الخارجية القبرصى على ذلك، وأمر بإحضار ميكروباس لنقل الجميع إلى مطار «لارناكا» على مسافة حوالى ٣٥ ميلاً من نيقوسيا، وهناك أعدت طائرة تابعة لشركة الخطوط الجوية القبرصية، وتطوع الكابتن ميلنج الطيار بهذه الشركة بقيادة الطائرة التى أقلت المتهمين والرهائن فى نحو الثانية والنصف من مساء نفس اليوم ١٨ فبراير عام ١٩٧٨.

رحلة الثلاثة أيام فى الجو

اصطحب المتهمان الرهائن وعددهم ١١ شخصًا إلى داخل الطائرة، وفور الإقلاع توجه المتهم الأول سميح خضر إلى غرفة القيادة حيث أمر قائد الطائرة بالتوجه إلى العاصمة الليبية طرابلس، ولما رفضت ليبيا هبوط الطائرة بها، أمر بالتوجه إلى عدن غير أن السلطات هناك لم تسمح لهم بالهبوط، كما أنها أطفأت أنوار ممرات الهبوط بالمطار تحسبًا لأى اقتحام، فتوجهت الطائرة إلى مطار چيبوتى وهو المطار الوحيد الذى سمح للطائرة بالهبوط للتزود بالوقود وأثناء توقفهم بمطار چيبوتى سمح المتهم الأول لأحد ملاحى الطائرة بالتوجه إلى برج المطار للتخاطب لاسلكيًا مع السلطات القبرصية حول الوضع الحالى لهم فسمحت السلطات القبرصية لهم بالعودة إلى مطار «لارناكا» وكان ذلك فى نحو الخامسة والنصف من مساء يوم ٢٠ فبراير عام ١٩٧٨، على أساس أن السلطات القبرصية ستسمح للمتهمين بمغادرة قبرص مقابل إطلاق سراح المتهمين.

المتهمان كانا جارين للقتيل

بكل أسف لم تتطرق التحقيقات إلى استيضاح الظروف التى نزل فيها الشهيد يوسف السباعى بنفس الطابق الذى كان قد نزل به المتهم الثانى ولحق به بعد ذلك

يوم المتهم الأول، وهل تم ذلك مصادفة؟ وهل نزلا بهذا الطابق بناء على رغبتهما أم بناء على اختيار إدارة الفندق أم بناء على طلب جهات الأمن بنيقوسيا؟

كلها أسئلة تريد إجابات، كذلك لم يظهر خلال التحقيقات إذا ما كان المتهمان قد نزلا مع السباعي صباح يوم الحادث فى نفس المصعد وتتبعاه إلى حيث تم اغتياله بالقرب من قاعة المؤتمر، أم أنهما كانا فى انتظاره بالدور الأرضى؟

وقد تبين من المعاينة الأولى أن المتهمين كانا جارى الشهيد، وعلى بعد غرفتين فقط من غرفته، وكان من الممكن أن يرتكبا جريمتهما فى غرفته دون أن يشعر أحد، ولكن الأرجح أنهما تعمدا ارتكاب الجريمة فى بهو الفندق بجوار القاعة الرئيسية للمؤتمر بهدف لفت الأنظار والدعاية لغرضهما من ذلك.

التحقيق المبدئى للحادث

قيدت قضية اغتيال السباعى تحت رقم ٤٣٥٧ لسنة ١٩٧٨ جنايات نيقوسيا، وذكر المتهمان فى بداية التحقيق أنهما ليسا بحاجة إلى محام للدفاع عنهما، وأنهما سيدافعان عن نفسيهما، ولما أفهمهما القاضى أن القانون يحتم أن يكون هناك محام لأن التهم الموجهة إليهما عقوبتها الإعدام، وعليه طلب المتهم الثاني زايد العلى محاميًا من ليبيا أوالجزائر أو العراق أو عدن ورفض القاضى الطلب لأنه غير جائز قانونًا، وأوفد لهم محاميًا قبرصيًا وهو كلاريوس المحامي ووزير العدل القبرصى السابق، واستمع قاضى التحقيقات إلى ٤٦ شاهداً من شهود الإدعاء من رجال الشرطة والإسعاف والأطباء والفنيين، ومفتش المفرقعات وموظفى الفندق وكذلك إلى أقوال بعض الرهائن وقائد الطائرة وفتاتى الملاهى اللتين رافقتا المتهمين فى الليلة السابقة للحادث، ثم قدم ممثل الادعاء إقراراً كتابيًا بالإنجليزية منسوبًا للمتهم الأول سميح خضير يذكر فيه أنه لا ينتمى لأى منظمة ولكنه يناضل من أجل تحرير فلسطين، وأنه حينما قرأ فى الصحف أثناء وجوده فى يوغوسلافيا نبأ حضور السباعي مؤتمر التضامن الأفريقى الآسيوى المنعقد فى قبرص قرر أن يحضر هو وزميله خصيصًا لقتله لأنه جاسوس لأمريكا وإسرائيل، كما أنه قرأ آخر مقال كتبه السباعى عن زيارته للقدس، وكيف رأى أثناء الزيارة شرطيًا إسرائيليًا يبكى متأثراً من

مقابلته للمصريين، وكيف شعر السباعى بالحزن لهذا الشرطى، ونسى ما فعله بالفلسطينيين والسوريين والمصريين، وأضاف أنه ادخر بعض المال أثناء عمله فى بعض البلدان فى مجال الكهرباء واستخدم المال لشراء السلاح الذى نفذ به جريمته الشنعاء.

ودارت المحاكمة باللغتين الإنجليزية واليونانية، وهما اللغتان الرسميتان لقبرص، ثم تلا ممثل الادعاء قرار الاتهام ضد المتهمين بأنهما قتلا السباعي عمداً مع سبق الإصرار والترصد، فرد كلاً منهما بأنه غير مذنب وليس له شركاء آخرين ولا أعضاء ولا أهداف سوى الدفاع عن فلسطين، كذلك أنكرا معرفتهما باختفاء المسدس الآخر الذي كان يحمله أحدهما وهو المتهم الثاني تحديداً، كذلك ذكر خبير المفرقعات أن القنبلتين المضبوطتين مع المتهمين من صناعة روسية وأنهما صالحتان للاستعمال، ومثل هذا النوع ينفجر بعد أربع ثوان من نزع صمام الأمان منه، هذا غير أن المسدسين اللذين تم استخدامهما في قتل السباعي من نوع أوتوماتيكي سوفييتى من نوع «توكاريف».

قاتلان يدعيان البراءة

وبعد انتهاء ممثل الادعاء من تقديم كافة أدلة الثبوت، وجه رئيس المحكمة حديثه للمتهمين بأن المحكمة أخذت بعين الاعتبار وجهة نظر الاتهام، فوجدت أن هناك أدلة قبلها وشرح أن القانون القبرصي يتيح لهما فى سبيل الدفاع عن نفسيهما ثلاثة حقوق إما أن يتوجها إلى منصة الشهود، وفي هذه الحالة يحلفان اليمين ويتعرضان للأسئلة من كل من الإدعاء والدفاع والمحكمة، وإما أن يدليا بأقوالهما بدون حلف اليمين وهما بقفص الاتهام، وفى هذه الحالة لا توجه لهما أى أسئلة، وإما أن يلزما الصمت وعدم الكلام، وقد فضل المتهمان الحق الثاني لهما، ثم أخرج المتهم الأول من جيبه ورقة وقرأها باللغة العربية نصها الآتى:

«أنا برىء.. ولم أقم بأى عمل إجرامي الذي من أجله وجهت إليّ هذه التهمة، واشتركت فقط فى أخذ الرهائن، فأخذتهم من قبرص إلى آخر البلاد وهذا ما فعلته فقط».

كما قرأ المتهم الثاني زايد العليّ ورقة أخرى باللغة العربية نصها الآتى:

«أنا برىء . . أنا لم أقتل السباعي ، أنا اشتركت فقط فى أخذ الرهائن من قبرص إلى خارج البلاد ، هذا ما فعلته ، أنا لم أوذ أى أحد من الرهائن أو الشعب القبرصى ، ولم يكن قصدى إيقاع الأذى بأحد» .

وعقب ذلك أعلن الدفاع أنه ليس للمتهمين شهود نفى .

هل اغتال السباعى نفسه؟!

سؤال دار برأسى وأدارها فى نفس الوقت وأنا أقرأ التحقيق الخاص بجلسة ٢٧ مارس عام ١٩٧٨ الصادر من محكمة نيقوسيا ، وبخاصة تلك الفقرة التى جاء فيها مرافعة الدفاع عن المتهمين والذى سلك فى هذا السبيل السعي المضني لإقناع المحكمة بأن القاتل هو شخص آخر غير المتهمين ، إذ إن أحداً من الشهود لم يذكر أنه شاهد أيًا منهما وقت اقترافه الجريمة ، كما ذهب للقول بأنه لم يثبت وجود اتفاق جنائى بين المتهمين حتى يعاقبا معًا ، وأن ركن الإصرار غير قائم فى حق المتهمين لأن التحقيق لم يكشف عن ذلك .

إذن معنى هذا الكلام أنهما أبرياء ، ولم يقتلا يوسف السباعي ، وربما لا وجود لقاتل على الإطلاق ، وأن يوسف السباعي هو الذى أطلق على نفسه الرصاص فى رأسه وفخذه ويده ، ومسألة حجز الرهائن ما هى إلا دعوة من جانب المتهمين لاستضافة ضيوف المؤتمر الأعزاء على متن طائرة قبرصية رغبة فى زيارة مطارات بعض الدول العربية ومشاهدة معالمها السياحية من الجو . . . .

ربما فكل شيء جائز فى هذا الزمان ، وهل من الجائز أن يوضع ستة أفراد فقط من رجال الشرطة لحراسة وتأمين موتمر أفريقي ـ آسيوي يحضره عدد كبير من كبار الشخصيات الدولية؟!!

هل كانت عملية مدبرة؟!

على من نطلق رصاص الاتهام ، خاصة بعد أن حصل المتهمان على حكم البراءة فى الجلسة الأخيرة من المحاكمة قبل مغادرتهما قبرص مقر ارتكاب الجريمة متوجهين إلى بغداد .

الإرهاب فى قبرص

«الإرهاب الفلسطينى فى قبرص» . . عنوان تاريخى جاء ضمن صفحات كتاب «طريق مصر إلى القدس» عن الصراع من أجل السلام فى الشرق الأوسط للدكتور بطرس غالى، ذكر فيه تفاصيل الساعات الأولى داخل مكتب ممدوح سالم رئيس الوزراء وعقب عملية اغتيال السباعى بقبرص والظروف التى ترتبت على الحادث الأليم، ومن بينها قرار السادات المتهور بحتمية الرد على العدوان بالهجوم النارى والذى أدى لارتفاع عدد القتلى المصريين من خيرة الجنود إلى آخر التطورات والتى انتهت بقطع العلاقات المصرية ـ القبرصية .

ولصعوبة اللقاء بالدكتور بطرس غالى شخصيًا لتحديد موعد وإجراء حوار قررت نقل نص ما سطره بالحرف الواحد والذى أعتبره شهادة للتاريخ لن أحصل على مثيلها لو أجريت مائة حوار معه، إليكم نص شهادة الدكتور بطرس غالى عن الذى حدث خلف الستار :

يبدأ الدكتور بطرس غالى شهادته «فى يوم السبت ١٨ فبراير تلقيت مكالمة تليفونية من نيقوسيا، كان على الخط خريستو فيديس وزير خارجية قبرص يقدم لى التعزية، فقد قتل يوسف السباعى فى نيقوسيا على يد إرهابيين فلسطينيين، وكان يوسف السباعى وأنا زميلين لسنوات طويلة عندما تولى رئاسة تحرير جريدة الأهرام، كان ذا شخصية دافئة ودودة متروية فى حديثها، وكنت أعتز بصداقته وأقدر رجولته وأخلاقياته .

وطبعًا شعرت بالحزن العميق لوفاته، وزاد من حزنى أنه قتل بأيدى فلسطينيين، لأنى كنت أعرف مدى اهتمامه بحقوق الشعب الفلسطينى وبالجهود والتضحيات التى بذلها لمساعدتهم، وكان رد فعل السادات عاطفيًا وشديدًا حينما علم بنبأ موت صديقه، وعقد العزم على إلقاء القبض على الفلسطينيين اللذين اغتالا يوسف السباعى ومعاقبتهما، واتصلت بممدوح سالم رئيس الوزراء الذى طلب منى أن أتوجه على الفور إلى مكتبه وتحدثنا عن الانعكاسات السياسية للجريمة، كان من رأيه أن اغتيال السباعى ربما يكون جزءًا من عملية إرهابية على المسئولين المصريين الذين صاحبوا الرئيس السادات فى رحلته إلى القدس وربما تكون تلك بداية مواجهة بين مصر والجماعات الفلسطينية المتطرفة، وطلب منى أن اتخذ احتياطات خاصة لسلامتى، وقد تم إرسال عبد المنعم الصاوى وزير الإعلام بعدها إلى نيقوسيا بطائرة خاصة لإعادة جثمان السباعى.

حضرت أنا جنازة المرحوم يوسف السباعى وشعرت بانفعال شديد فى هذه المناسبة الحزينة، بدأ موكب الجنازة من مسجد عمر مكرم بالقرب من ميدان التحرير، واستمر واجتاز وزارة الأوقاف ومبنى الأهرام القديم، وبدأ بضع مئات من المتظاهرين يهتفون «لا فلسطين بعد اليوم. . لا فلسطين بعد اليوم!»، لقد ضاقوا ذرعًا بالفلسطينيين وأدى هذا العمل من جانب الإرهاب الفلسطينى إلى انتكاس فى القضية الفلسطينية وكنت أسير إلى جانب الدكتور مصطفى خليل وقتها، والذى همس لى بأنه يستحسن أن نبتعد عن الجمهور لأنه يخشى أن تقع أحداث عنف، وبالفعل تركنا الطريق الرئيسى وعبرنا شوارع جانبية عديدة حتى وصلنا إلى جامع «الكخيا» حيث كانت سيارتنا تنتظر، قال لى الدكتور مصطفى خليل: إذا تكررت هذه الاغتيالات والعمليات الإرهابية فستضيع القضية الفلسطينية تمامًا، وفكرت كثيرًا فى الأمر ووضعته فى صيغة مختلفة بعض الشىء إذ قلت له: إنه لو كان هناك أى تردد لدى السادات فإن هذا الاغتيال سيضع نهاية له، فالسادات سيضع مصلحة مصر أولاً، وسيدفع بمصالح الفلسطينيين إلى ذيل القائمة.

السادات يأمر الصاعقة للأخذ بالثأر

عدت إلى مكتبى بوزارة الخارجية، وتكلم ممدوح سالم يطلب منى أن أتوجه سريعًا إلى رئاسة الوزراء، فقد زادت الأمور تعقيدًا، إذ إن الفلسطينيين الذين اغتالوا يوسف السباعى اختطفوا طائرة واحتجزوا اثنى عشرة رهينة من المصريين وغير المصريين، وأمروا قائد الطائرة بالتوجه إلى «بنى غازى» فى ليبيا، ولكن السلطات الليبية لم تسمح لهم بالهبوط، وعند ذلك اتجهت الطائرة إلى عدن وحدثت نفس المشكلة، ثم إلى چيبوتى حيث هبطت عصر يوم الأحد ١٩ فبراير وبدأ الاستعداد لإرسال مجموعة من رجال الصاعقة المصرية إلى چيبوتى للاستيلاء على القاعدة، ولكن بعد تزود الطائرة بالوقود قرر الإرهابيون العودة إلى قبرص، وعند ذلك طلب من مجموعة الصاعقة أن تتوجه إلى قبرص، وسألت السيد ممدوح سالم هل وافقت حكومة قبرص على قيام الصاعقة المصرية بهذه العملية؟ فأجابنى رئيس الوزراء: لقد اتصلت بالسلطات القبرصية وشرحت لهم كل شىء، فسألته مرة أخرى: وهل وافقوا؟ وقلت إنه بمقتضى القانون الدولى فإن قيامنا بهذه العملية بدون موافقة حكومة قبرص يعتبر . . . .، ولكن ممدوح سالم قاطعنى قائلاً: «لقد قلت لك من قبل يادكتور بطرس إنه ليس للقانون الدولى أدنى صلة بالعلاقات الدولية»، ثم طلب منى أن أبحث انعكاسات قطع العلاقات الدبلوماسية مع قبرص، كان السادات قد أمر معاونيه بإرسال وحدة من قوات الكوماندوز مكونة من ستين فردًا بقيادة العميد نبيل شكرى قائد قوات الصاعقة المصرية إلى قبرص للقيام بعملية فدائية لتحرير الرهائن بالقوة المسلحة.

ويضيف: تناولت عشائى فى هذا اليوم بالبيت، وحوالى الساعة العاشرة دق جرس التليفون، كانت دعوة عاجلة من ممدوح سالم ولم أتمكن من العثور على سائق سيارتى لذا قدتها بنفسى إلى مقر مجلس الوزراء فى الساعة العاشرة مساء، ودخلت مكتب ممدوح سالم فى قصر الأميرة شويكار القديم بقصر الدوبارة، وقال لى رئيس الوزراء: «لقد حدثت كارثة، لقد قتل عدد كبير من رجال فريق الصاعقة المصرى وأصيب غيرهم على يد القوات القبرصية، ويجب أن تذهب بنفسك إلى قبرص على الفور، وقد أغلق مطار «لارناكا» بسبب المذبحة والمطار الوحيد المتاح

الآن هو قاعدة سلاح الطيران الملكى البريطانى فى «أكواترى» وعليك أن تتصل بصديقك السفير البريطانى حتى يحصل لك على تصريح بالهبوط هناك»، وعليه طلبت ويلى موريس فى مسكنه، ووافق على أن يقدم مساعدة، ثم طلبت ممثلنا الدائم فى الأمم المتحدة، وطلبت منه أن يخاطب كولت فالدهايم، وطلبنا منه أن يحث حكومة قبرص على تجنب تصعيد الأزمة.

اتصل بى وليم موريس بعد ذلك قائلاً لى: إنه توجد صعوبة فى الاتصال بلندن، فقد كانت شبكة التليفونات فى مصر عديمة الجدوى تقريبًا، وعلى الفور اتصل ممدوح سالم بإدارة التليفونات الدولية، وأعطى تعليمات بأن تحظى مكالمة السفير البريطانى مع لندن بالأولوية العليا.

كانت الساعة قد بلغت الثانية صباحًا، وبدأت تظهر على ممدوح سالم علامات الإرهاق بينما نحن فى انتظار رد الطرف البريطانى، واقترحت عليه أن يعود إلى بيته ويأخذ قسطًا من الراحة، وقلت له إنه بمجرد الحصول على موافقة البريطانيين سأستقل الطائرة إلى قبرص وإنه لا حاجة به لأن ينتظرنى أكثر من ذلك، ووافق سالم ومضى.

ويكمل: ووجدت نفسى وحيداً فى مكتب رئيس الوزراء، كانت غرفة فسيحة واحدة من الغرف التى كانت الأميرة شويكار تستخدمها كقاعة استقبال، كان الأثاث حكوميًا بلا أناقة، وهناك أجهزة تليفون عديدة تغطى المكتب، ورفوف الخزانة حافلة بكتب لم تقرأ، ولمحت صورة فوتوغرافية كبيرة للرئيس السادات وجلست منتظراً وكل نصف ساعة تقريبًا كان أحد الخدم يدخل حاملاً أكوابًا صغيرة من الشاى والقهوة بعضها بالسكر وبعضها بدون، وكان يشير صامتًا للتمييز بينها، وفى الرابعة صباحًا تلقيت المكالمة التى كنت انتظرها من موريس ووافقت السلطات العسكرية البريطانية على هبوط طائرتى فى قاعدة «أكواترى» الجوية.

سارعت إلى بيتى فوراً لأغير ملابسى، وأبلغت زوجتى أنى ذاهب إلى قبرص وأنى لا أتوقع أن أغيب لأكثر من يوم واحد، فعارضت زوجتى فى البداية سفرى بشدة وحذرتنى من أنى سألقى حتفى فى قبرص إذا ذهبت، ولكنى توجهت للمطار

الحربى فى قلب القاهرة، ووجدت هناك مجموعة من الضباط الذين دعونى إلى تناول الشاى معهم أثناء إجراء الترتيبات الأخيرة لإقلاع الطائرة، وشعرت بالإعجاب الكامل بهؤلاء الرجال الذين فقدوا لتوهم أصدقاء أعزاء عليهم ومع ذلك حافظوا على تماسكهم.

مفاوضات غالى ـ كاربيانو حول الأزمة

وقرابة الساعة السادسة صباحًا أبلغنى أحد هؤلاء الضباط أن الاتصال تم مع «أكروترى» وقال إن القاعدة البريطانية لم تتلق موافقة من لندن على هبوط طائرة مصرية، حاولت أن أتصل بويلى موريس لإبلاغه بأن موافقة حكومته لم تصل بعد إلى «أكروترى»، ولكن بلا جدوى فخطوط التليفون فى القاعدة العسكرية المصرية كانت معطلة واضطررت للعودة إلى مكتبى فى ميدان التحرير مرة أخرى على بعد ساعة كاملة لأتصل بالسفير البريطانى من هناك، والذى أكد لى أنهم حصلوا بالفعل على موافقة بهبوطى، وعدت أقطع الطريق مرة أخرى إلى مطار القاهرة ثم ركبت الطائرة أخيراً وكانت من طراز «هيروكيوليس س ـ ١٣٠» قادرة على حمل سيارات ومعدات ثقيلة وعدد كبير من الجنود، وكان من دواعى دهشتى أن أجد فى داخل الطائرة مجموعة من الجنود والضباط المسلحين، ترى هل يستعدون لإجراء هجوم آخر تحت ستار مهمتى؟ وطلبت من قائد المجموعة أن يبلغنى عن الغرض من وجوده، فقال: «ربما يكونون هنا لحمايتك»، فقلت لقائدهم: إن وجود هؤلاء الرجال بأسلحتهم قد يوحى للسلطات القبرصية بأنهم قادمون لتنفيذ هجوم مسلح آخر، وأننا يجب أن نتركهم بالقاهرة. أجاب: إن لدىّ أوامر ولا أستطيع أن أناقشها.

ويضيف: وبعد حوالى ساعتين هبطنا فى «أكروترى» حيث استقبلنى ضابط بريطانى أدى التحية العسكرية، وأبلغنى بأن هناك طائرة هليوكوبتر بها ثلاثة مقاعد مستعدة لنقلى إلى «لارناكا». لم يغادر الضباط والجنود الطائرة المصرية «هيروكيوليس س ـ ١٣٠»، وحملتنا طائرة الهليوكوبتر إلى مقر رئيس جمهورية قبرص، كانت الساعة حوالى الثانية والنصف من بعد الظهر عندما قابلت الرئيس

القبرصى كبريانو ووزير خارجيته ووزير الداخلية وعددا من كبار الشخصيات، وقبل أن نناقش أى شيء طلب منى الرئيس كبريانو بأدب أن أطلب من السفير حسن شاش سفير مصر فى نيقوسيا أن يخرج من الغرفة، قال إن السفير كذب عليه وإنه لا يستطيع أن يثق به بعد الآن، كان الجو متوتراً، وكبريانو يبدو مهتزاً، وطلبت من السفير حسن شاش بأدب أن ينتظرنى فى الخارج، مبتلعًا هذه الإهانة السافرة حتى أتمكن من أداء مهمتى، وهو أمر يجب أن يتعلمه كل من يشتغل بالعمل الدبلوماسى. جلست وأمامى مجموعة من المسئولين القبارصة، وفى هذه اللحظة حل علىّ التعب والإجهاد، إذ أدركت أنى لم أنم أو أتناول شيئًا من الطعام خلال الساعات الأربع والعشرين الماضية، وكان الغرض من مهمتى واضحًا أن أقنع السلطات القبرصية بالإفراج عن الضباط والجنود المصريين من مجموعة الصاعقة، وأن أطمئن إلى أن قتلة يوسف السباعى تم القبض عليهم، ولكن وسائل تحقيق هاتين الغايتين لم تكن واضحة على الإطلاق.

نظرت إلى رئيس قبرص كانت تظهر عليه نفس علامات التعب والإرهاب التى أشعر بها، كانت عيناه حمراوتين ويداه ترتجفان، وهو أيضًا لم ينم منذ ساعات طويلة، وكان ذهنه مشغولاً، وبهذا المعنى كان المفاوض المصرى والمفاوض القبرصى على قدم وساق.

ويكمل: طلبت شايًا، وقلت إنى أود أن ينضم إلينا مدير مكتبى السفير علاء خيرت إذ كان القبارصة لا يريدون أن ينضم إلينا السفير حسن شاش فاستجابوا للطلب وبدأنا المفاوضات حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر واستمرت حتى غروب الشمس حوالى السادسة والنصف، بدأ الرئيس كبريانو يسرد الأحداث من وجهة نظره، قال: إنه فى الساعة الخامسة والنصف من صباح الأحد ١٩ فبراير هبطت طائرة الإرهابيين الفلسطينيين فى مطار لارناكا وركنت على بعد حوالى مائة ياردة من المبنى الرئيسى للمطار وبعد ١٥ دقيقة هبطت طائرة مصرية أخرى، وقال كبريانو إن ممدوح سالم رئيس الوزراء المصرى كان قد أبلغه أن وزير الإعلام المصرى سيصل إلى نيقوسيا على متن طائرة مصرية خاصة لمواصلة التفاوض مع الإرهابيين، وأن ممدوح سالم لم يذكر شيئًا عن وجود مجموعة من رجال الصاعقة المصريين على

نفس الطائرة، وعندما وجد المسئولون القبارصة مجموعة من الصاعقة المصريين ومعهم أسلحتهم ومعداتهم وسيارات على ظهر الطائرة بدلاً من وزير الإعلام بادروا بالاتصال بالسفير المصرى وأوضحوا له أن رجال الصاعقة المصريين لن يسمح لهم بمغادرة الطائرة أو القيام بأية عملية فوق تراب قبرص، وأبلغوه أنه إذا حاول الصاعقة المصريون الاقتراب من طائرة الإرهابيين الفلسطينيين فإن القوات القبرصية ستطلق النار عليهم.

السفير المصرى والملحق العسكرى كبش فداء

وأكد السفير المصرى حسن شاش لوزير الخارجية أن مصر لن تقوم بأى عمل عسكرى، وظل على اتصال مستمر بالقاهرة، وكان المصريون يعرفون جيداً أن المفاوضات جارية بين القبارصة والفلسطينيين وأثناء تلك المفاوضات لم يحاول السفير المصرى ولا الملحق العسكرى أن يشيرا بشىء عن كيفية تسوية الأزمة، وكرر كبريانو القول إن كلاً من السفير المصرى والملحق العسكرى أكدا له أن رجال الصاعقة المصريين لا يعتزمون محاولة القبض على الإرهابيين، ولكن فى الساعة الثامنة والنصف فتحت أبواب الطائرة المصرية وخرجت سيارة جيب مسرعة متجهة إلى طائرة الإرهابيين، وبدأ هجوم من جانب الصاعقة المصرية وفتحت القوات القبرصية النار وقتلت خمسة عشر من قوات الصاعقة وجرحت ستة عشر آخرين، وأصيب ستة من رجال الحرس الوطنى والشرطة القبرصية، وعند انتهاء القتال سلم الإرهابيون الفلسطينيون أنفسهم للسلطات القبرصية وأفرج عن الرهائن الاثنتى عشرة.

وقال كبريانو: هذا بالضبط ما حصل، وإنى على استعداد لأن أقسم على الإنجيل أن ما ذكرته هو الحقيقة»، فرديت عليه على الفور بأنى على استعداد لأن أقسم على نفس الإنجيل بأن ما سأقوله هو الحقيقة، ثم أوضحت النقاط التالية:

أولاً: أن ممدوح سلام أبلغ سكرتير كبريانو أن مجموعة من رجال الصاعقة المصريين سيحضرون إلى قبرص وأن حكومة قبرص وافقت على ذلك.

ثانيًا: عندما ظهرت الطائرة العسكرية فى المجال الجوى القبرصى أعطتها السلطات القبرصية الإذن بالهبوط إلى «لارناكا»، وكان من الواضح أن وزير الإعلام المصرى بمفرده ما كان ليحتاج لطائرة عسكرية ضخمة تطير به إلى قبرص، وكانت السلطات القبرصية على بينة من ذلك تمامًا.

ثالثًا: كان فى وسع السلطات القبرصية بأن تأمر الطائرة المصرية بالإقلاع على الفور عندما اكتشفوا أنها تضم مجموعة من رجال الصاعقة وأن الطائرة المصرية وصلت فى الساعة السادسة إلا الربع، وأن محاولة الصاعقة المصرية لتحرير الرهائن لم تبدأ إلا بعد ذلك بما يقرب من ثلاث ساعات، وطوال تلك المدة لم تبد السلطات القبرصية أى اعتراض على استمرار وجود فريق الصاعقة.

رابعًا: كان من السهل على القبارصة أن يحولوا دون وصول رجال الصاعقة إلى طائرة الإرهابيين بإغلاق المخرج الخلفى للطائرة بحيث لا يكون فى وسعها إخراج سيارات الجيب والجنود من الطائرة.

خامسًا: إن العنف الذى أبدته قبرص فى مواجهة رجال الصاعقة المصريين لا يتناسب مع ما أبدته من تراخ فى وقت اغتيال يوسف السباعى واحتجاز الرهائن وخطف الطائرة ومغادرتها لارناكا وعودتها إليه.

وقلت إنى أود أن أكون صريحًا مع رئيس قبرص، وإن وجهة نظر حكومتى إلى هذه الأحداث المؤسفة هى أننا نواجه مؤامرة قبرصية، تهدف إلى إحراج القوات المسلحة المصرية وهى القوات التى جاءت لمساعدة حكومة قبرص وبإذنها، وإن ما حدث ما كان يمكن أن يحدث بدون قصد وتدبير مسبق.

رفض قبرص تسليم الإرهابيين للسلطات المصرية

وثارت همهمة بين الفريق القبرصى، وبدا الرئيس كبريانو منزعجًا وكان وزير الخارجية خريستوفيديس يرتجف غضبًا، وتكهرب الجو، وواصلت الكلام، متعمداً إبداء المرونة والنية الطيبة. وقلت إنه مهما يكن من خطورة الأحداث التى ناقشناها، ومهما اختلفنا بشأن الجهة التى يلقى عليها اللوم، فإننا يجب أن نتفق على ضرورة

تسوية الأزمة سليمًا وبلا إبطاء، وقلت إن مهمتى ليست الإفراج عن أعضاء القوة المصرية، بقدر ما هى المحافظة على العلاقات الطيبة بين مصر وقبرص، وإن الحكومة المصرية أرسلت وزير الدولة وليس وزير الحرب، وإن اختيارى وأنا رجل دبلوماسى بدلاً من اختيار أحد القادة العسكريين دليل على أن مصر تريد المحافظة على العلاقات الطيبة مع قبرص، ثم انتقلت إلى المطلبين المصريين، الأول أنه يجب تسليم الإرهابيين الفلسطينيين إلينا لمحاكمتهما فى مصر على اغتيال يوسف السباعى، والثانى ضرورة إعادة رجال الصاعقة مع أسلحتهم ومعداتهم العسكرية فورًا.

وتحدث وزير الداخلية القبرصى قائلاً: سيدى الدكتور أنت رجل معروف بخبرتك الواسعة بالقانون، ولابد أنك تعرف أن الفلسطينيين لا يمكن تسليمهما للسلطات المصرية، فقد ارتكبت الجريمة على أراضى قبرصية وبالتالى يجب محاكمتهما أمام محاكم قبرص، قلت إنى لا أعترض على هذا التفسير القانونى، ولكن ما أقترحه باسم الحكومة المصرية هو اتفاق خاص بين مصر وقبرص فى هذه المسألة المحددة حتى يمكن أن نحاكم الإرهابيين فى القاهرة.

وبعد ذلك تحدث الرئيس كبريانو طويلاً عن موقف حكومته، وبينما كنت أستمع إليه كنت أستعيد مناقشة دارت مؤخراً مع ممدوح سالم ذكرت له فيها أن المطالبة المصرية بتسليم المتهمين لمحاكمتهما أمام المحاكم المصرية أمر مستحيل من وجهة النظر القانونية، وكان رد رئيس الوزراء المصرى هو أن سخر منى ومن القانون الدولى.

قال كبريانو أنه مستعد لبحث إمكانية الوصول إلى اتفاق خاص مع مصر، لكن ذلك يحتاج إلى وقت، كما يتطلب موافقة برلمان قبرص، وأن هناك احتمالاً كبيراً بأن يرفض البرلمان الموافقة على اتفاق كهذا لأنه لا يتفق مع الدستور، قلت له: «إذن فلندع مؤقتًا مسألة الإرهابيين ونناقش عودة رجال الصاعقة بمعداتهم العسكرية إلى مصر». وتكلم كبريانو فقال عن العدوان المصرى على سيادة قبرص، وقال إن محاولة القيام بعمل عسكرى على تراب دولة أخرى بدون إذنها أمر غير مقبول، وذكر أنه لا يعارض فى عودة الجنود المصريين ولكن يجب أن يتركوا أسلحتهم فى

قبرص، وكنت أعرف الفرق بين عودة الرجل العسكرى ومعه سلاحه، وعودته وقد ترك سلاحه وراءه مما يعنى الاستسلام والإذلال، وطلبت من الرئيس كبريانو السماح لى بالاتصال بأعضاء الصاعقة المصرية، فأخذنى إلى غرفة مجاورة حيث تمكنت من الحديث مع أحد ضباط الصاعقة بالتليفون، وأبلغته أنى مفوض من الحكومة المصرية لضمان عودتهم إلى الوطن بلا إبطاء وأن القبارصة يقترحون أن يعود رجال الصاعقة إلى مصر بدون أسلحتهم، وأنى أود أن أعرف رأيه فى هذا الموضوع، ولم يتردد الضابط لحظة، وقال: إن رجال الصاعقة لن يعودوا إلى وطنهم إلا وأسلحتهم معهم رافعين رأسهم.

إصرار رجال الصاعقة على العودة إلى الوطن بأسلحتهم

وعدت أنا إلى غرفة الاجتماع، وقلت إن الضابط المصرى رفض اقتراح قبرص رفضًا قاطعًا، وأكد لى أنه لن يغادر قبرص بدون أسلحته، وقلت إنى أتفق تمامًا مع وجهة نظره، وإذا أردنا أن نصل إلى حل سلمى لهذه الأزمة والحفاظ على العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، فعلينا أن نأخذ موقف الضابط والجنود المصريين فى الاعتبار وأن تحترم تقاليد الشرف العسكرى، وبغير ذلك فإنى سأعود إلى القاهرة على الفور لأبلغ رؤسائى أنى فشلت فى مهمتى، وعند ذلك أبدى القبارصة عددًا من الحجج، وقدموا العديد من السوابق العسكرية والقانونية والتاريخية، ورفضت التراجع، وفى مواجهة إصرارى وافقوا من حيث المبدأ على عودة فريق الصاعقة ومعه كل أسلحته، واتفقنا كحل وسط على ترتيب مؤداه وضع الأسلحة فى صناديق مغلقة بإحكام ونقلها فى نفس المركبات التى ستنقل الرجال من نيقوسيا إلى القاعدة الجوية البريطانية فى «أكروترى»، وعند ذلك ظهرت عقبة جديدة، فبعد أن حصلت على موافقة القبارصة على هذا الحل الوسط أشار أحدهم إلى أن القاعدة العسكرية البريطانية لن تقبل دخول الأسلحة إليها، وأن القوات الأجنبية لا يسمح بدخولها محملة بالأسلحة والمعدات.

ويكمل: غادرت غرفة العمليات لأتصل بالقائد البريطانى هاتفيًا، فأكد لى أن هناك حظرًا قاطعًا على دخول الأسلحة إلى القاعدة، شرحت له الموقف وقلت نحن

نطلب السماح لفريق الصاعقة المصرى بدخول القاعدة بأسلحته فى طريقه إلى القاهرة، وطلبت منه أن يعطينا رقم تليفون وزير الدفاع البريطانى فى لندن حتى أتمكن من مخاطبته مباشرة، قال الضابط البريطانى إنه سيقوم بإبلاغ طلبى إلى لندن، ويسعى للحصول على رد إيجابى، وأنه إذا لم ينجح فسيكون فى وسعى الاتصال المباشر بالوزير، شكرته، وقلت إن كل المطلوب هو استثناء لمدة نصف ساعة ليصل خلالها رجالنا إلى الطائرة ثم تقلع عائدة إلى مصر.

وفى طريق عودتى إلى غرفة الاجتماع طرأ لى أن هناك بلا شك مئات من رجال الصحافة والمصورين ينتظرون نتيجة المفاوضات، وأن صور الضباط والجنود المصريين وهم فى طريقهم إلى «أكروترى» بدون أسلحتهم يمكن أن تفسد كل جهودى، وقررت أن يكون نقل رجال الصاعقة بعد حلول الظلام فى وقت غير معلن لتجنب وجود المصورين، ثم ناقشنا المركبات التى سيستقلها أعضاء القاعدة فى طريقهم إلى «أكروترى» وبعد كثير من الأخذ والرد اتفقنا على أن يقوم بقيادة المركبات سائقون قبارصة ويجلس إلى جانب كل منهم ضابط مصرى.

ودخل إلى الغرفة موظف مدنى قبرصى، وقال إن قائد القاعدة البريطانية يريد أن يتحدث معى، وأبغلنى الضابط البريطانى بموافقة رؤسائه على طلبى بشرط ألا تفتح الصناديق التى تحوى الأسلحة إلا بعد تحميلها فى الطائرة المصرية، وأن يتولى سائقون بريطانيون قيادة المركبات عند وصولها إلى أرض القاعدة، فوافقت واتصلت بضابط القاعدة المصرى لأوضح له ما تم الاتفاق عليه، فرحب بالترتيبات ورأى أنها تحافظ على شرف رجاله، وعدت بعد ذلك إلى الغرفة لنبدأ المناقشات حول التحفظ على الإرهابيين الفلسطينيين، وتمسك القبارصة بموقفهم، وعلى ذلك لم أتمكن من تحقيق أى تقدم. ويضيف: وأقول الحق إنى كنت أخشى أن يكون هناك قرار قد اتخذ فى القاهرة بالفعل بقطع العلاقات الدبلوماسية مع قبرص، وأحسست بدقة موقفى، إذ إن مناقشتى مع القبارصة كانت تقوم على أساس ضرورة المحافظة على العلاقات الودية بين البلدين، أبدى الرئيس كبريانو رغبته فى إبلاغ الصحف بما اتفقنا عليه، فقلت له إنى أفضل عدم الإدلاء ببيانات صحفية لأنى أشعر بأنى لم أنجح تمامًا فى إنجاز مهمتى، ولذا اقتصر اللقاء مع مندوبى الصحف

على بيان موجز من جانب كبريانو على الاتفاق على إطلاق سراح رجال الصاعقة المصريين، وقال أيضًا إنه تم الاتفاق على ألا تؤثر الأزمة الحالية على العلاقات بين البلدين والتزمت أنا الصمت.

صافحت الرئيس كبريانو وشكرته وانطلقت بطائرة هليوكوبتر إلى القاعدة البريطانية، وكانت القيادة البريطانية قد أعدت عشاء لى وهو أمر رحبت به لأنى لم آكل شيئًا منذ فترة طويلة.

قرار قطع العلاقات المصرية ـ القبرصية

ومن أكروترى اتصلت بممدوح سالم وأبلغته بأن قافلة المركبات التى تنقل رجال الصاعقة والقتلى والجرحى فى طريقها إلى أكروترى، ورحب ممدوح سالم بالخبر، وقال إن مجلس الوزراء المصرى بكامل هيئته سيحضر إلى مطار القاهرة للترحيب بعودة القوات المصرية عودة الأبطال، واندهشت لذلك أشد الدهشة ولكنى لم أشأ أن أناقش ممدوح سالم فى ذلك.

وصلت القافلة التى تحمل القوات بعدها وصلت القافلة التى تحمل القوة المصرية، وفضلت ألا أغادر الغرفة حتى لا أرى حالة الجرحى وجثث الموتى، خوفًا من أن أفقد سيطرتى على نفسى، ولم يمض وقت طويل حتى أبلغونى بأن جميع الرجال قد صعدوا إلى الطائرة وأن المعدات والسيارات والأسلحة قد تم تحميلها أيضًا، وأن الطائرة على استعداد للإقلاع، وصعدت للطائرة وجلست فى كابينة القيادة، وكان معى سفير قبرص فى مصر الذى صحبنى منذ بداية الرحلة من القاهرة، حلقت الطائرة وقدم لى أحد قوادها كوبًا من الشاى وهو يقول لى بعطف ويبتسم «نحن نعتذر يادكتور عن إزعاجك»، وشعرت بكل المعانى التى قصدها الرجل بعبارته البسيطة، ولو لم يكن السفير القبرصى معنا لبكيت، وشعرت كما لو كنت أحد أفراد الصاعقة التى قامت بالمهمة.

وصلنا إلى مطار القاهرة الدولى الساعة الواحدة صباحًا، ووجدنا ممدوح سالم ومجلس الوزراء بكامله هناك لاستقبالنا، وهتف رجال الصاعقة بشعارهم

«التضحية . . الإخلاص . . النصر»، وألقى الفريق الجمسى كلمة، ولكن بين الجمع الكثير والأصوات المختلطة لم أستطع أن أسمع ما قاله، وأخذ الجميع يهتفون «تحيا مصر . . تحيا مصر»، ثم دخلت استراحة كبار الزوار، وقبل أن يسألنى ممدوح سالم عن تفاصيل مهمتى، عاتبنى بقوله «لماذا تأخرتم لهذا الحد؟ لقد كنا فى انتظاركم منذ ساعات»، وعلمت أن مجلس الوزراء اتخذ قراراً فى اجتماع طارئ استمر حتى منتصف الليل باستدعاء البعثة الدبلوماسية المصرية من قبرص، ومطالبة حكومة قبرص باستدعاء بعثتها الدبلوماسية من القاهرة.

صدمنى النبأ كما لو كان ضربة صاعقة، وكدت أنفجر، ألم يكن فى وسع المجلس أن ينتظر قليلاً حتى يعود الوزير المكلف رسميًا بمحاولة تسوية الأزمة مع قبرص؟ تُرى هل فكر زملائى الوزراء فى النتائج التى كان يمكن أن تترتب على معرفة رئيس قبرص بهذا القرار قبل مغادرة رجال الصاعقة للأراضى القبرصية، كان من المحتمل أن ترفض السلطات القبرصية إعادتهم، وكان يمكن أن تقلتهم بل وتحاكمهم، ولكنى تمالكت أعصابى محاولاً أن أتعامل مع أخطاء حكومتى وتناقضاتها بصبر وهدوء.

فى رأسى أسئلة معلقة حتى يومنا هذا

كانت هناك أسئلة عديدة لا تزال تحتاج إلى إجابات، كيف اتخذ القرار بعملية الصاعقة؟ كيف تصور المسئول عن العملية أنه يمكن إتمامها بدون موافقة حكومة قبرص؟ كان من الواضح أن عملية كهذه لا يمكن أن تنجح بدون موافقة ومساعدة السلطات المحلية، وبدون ذلك كان على المكلفين بالعملية أن يواجهوا جبهتين . . الإرهاب من ناحية، والسلطات المحلية من جهة أخرى، هل كانت قيادة مجموعة الصاعقة على اتصال بالقاهرة عن طريق السفير المصرى، أو عن طريق الملحق العسكرى؟ هل وافقت القاهرة على القرار الذى اتخذ؟ ألم تدرك قيادة الصاعقة ماكانت القوات القبرصية تعنيه بمحاصرتها للمطار؟ هل تصورت أن القبارصة يهددون بالكلام فقط، وأنهم لن يهاجموا القوة المصرية؟ وإذا كانت قيادة الصاعقة قد عزمت على الهجوم فلماذا انتظرت ساعتين فى المطار وأضاعت عنصر المفاجأة؟

قيل لى إن المقدم نبيل شكرى قائد العملية لم يكن إلا منفذاً لتعليمات تلقاها من القاهرة، فلماذا لم تغير القاهرة تلك التعليمات والأوامر تبعًا لتغير الظروف والتطورات الجديدة؟ كان لدىَّ أيضًا أسئلة عن دور قبرص فى هذه المسألة كلها، فقد قيل لى إن بعض الساسة القبارصة يحتضنون موقف الرفض العربى ويريدون أن يعاقبوا السادات بفرض الإذلال على مصر بعد أن قتلوا السباعى صديق السادات، وماذا كان دور ممثلى منظمة التحرير الفلسطينية الذين سارعوا إلى قبرص ووصلوا إلى مبنى مطار لارناكا أثناء الهجوم على طائرة الإرهابيين؟ وماذا كان دور أحد الملحقين العسكريين العرب الذى قضى سنوات طويلة فى منصبه فى قبرص وكان موجوداً فى مطار لارناكا أثناء المعركة؟ وماذا عن سفير عربى آخر لدى نيقوسيا قام بأعمال مشبوهة؟ وهل دبر هذه الكارثة عناصر قبرصية متحالفة مع الرافضين العرب؟ هل كان الهجوم على قوات الصاعقة استمراراً للهجوم الذى قتل فيه يوسف السباعى، أم كان ذلك كله نتيجة لأخطاء من جانب مصر وقبرص؟

واستخلصت من هذا كله أنه لم تكن مؤامرة مدبرة، بل كانت نتيجة للغباء والارتجال بلا تدبر، ولكن بمرور الوقت لم أعد واثقًا من ذلك تمامًا، فأعداء السادات كانوا يأملون فى خلق حالة من عدم الاستقرار داخل الجيش المصرى، وكانت الصحف الدولية تقارن بين فشل الصاعقة المصرية ونجاح العملية الإسرائيلية فى إنقاذ الركاب الذين خطفت طائرتهم فى عنتيبى.

ويختتم الدكتور بطرس غالى شهادته التاريخية قائلاً: «فى يوم الأربعاء ٢٢ فبراير اشتركت فى الجنازة الرسمية لرجال الصاعقة الذين قتلوا فى قبرص وحضرها السادات وكل أعضاء مجلس الوزراء، وفى وسط الحزن كان هناك جو من العداء تجاه قبرص، وأعلن الرئيس السادات أن مصر سحبت اعترافها بقبرص وبالرئيس كبريانو كرئيس لقبرص، وحاولت أن أقنع ممدوح سالم أن مثل هذا التصريح ليست له سابقة فى العمل الدبلوماسى والحياة الدولية، وقال لى: إذن فافعل شيئًا فلمثل هذه الأمور توجد وزارة الخارجية».

وبعد الجنازة جاء إلى مكتبى سفير اليونان وطلبت منه أن نبلغ حكومة اليونان أننا

نأمل فى أن تستخدم مساعيها الحميدة لتهدئة الأمور ووقف تدهور العلاقات بين مصر وقبرص، وفى ٢٧ فبراير حضرت جلسة مجلس الشعب المخصصة لمناقشة عملية قبرص الفاشلة واستمرت المنافشة والتنديد سبع ساعات، وشعرت بالإجهاد والإحباط، واليوم بعد مرور أكثر من عشرين عامًا مازال السر مغلقًا دون حل، عندما قابلت فلستيريو رئيس قبرص الذى تفاوضت معه حول النزاع بين اليونان وتركيا فى قبرص بوصفى أمينًا عامًا للأمم المتحدة وقتها لم يستطع أن يزودنى بدليل لفهم ما وراء كارثة ١٩٧٨، وأيًا كان الدافع أو السبب فقد كان عملاً من أعمال الغباء لأن الإرهاب غبى دائمًا.

المحارب يستريح للأبد

حسن شاش سفير مصر السابق فى قبرص، وأحد شهود عيان حادث مقتل السباعى، والوسيط الدبلوماسى الذى تولى عملية التفاوض بين الرئيس القبرصى كبريانو وقوات الكوماندوز المصرية، التى كلفت من قبل الرئيس السادات بمهمة إنقاذ الرهائن العرب من أيدى القتلة الإرهابيين، وأخيراً هو الرجل الذى أنهى خدمته الخارجية وعاد إلى وطنه الأم بعد قطع العلاقات بين مصر وقبرص على أثر الحادث الأليم.

وقبل البدء فى الحوار ألقى السفير حسن شاش بقنبلة مثيرة للغضب فى وجهى حين ذكر أن الرئيس القبرصى كبريانو طلب فى إحدى جلسات المحاكمة بتخفيف الحكم على المتهمين من إعدام إلى مؤبد فى الوقت الذى كان محامى المتهمين يطالب فيه ببراءتهما مما هو منسوب إليهما نظراً لعدم كفاية الأدلة، وهكذا نجحت المؤامرة، وذابت التفاصيل، وتوارت الحقائق، أمعقول هذا ما يقوله سفيرنا السابق؟ ولصالح من؟!

الغريب فى الأمر أن كل أصابع الاتهام وقتها كانت تشير إلى مشاركة النظام الإرهابى الشيوعى فى عدن بعد أن انزلقت السلطة إلى عالم الجريمة والإرهاب والتصفيات الجسدية فضلاً عن أنها استولت على السلطة بأسلوبها غير الشرعى.

ولو استعرضنا أحداث ما قبل اغتيال الشهيد يوسف السباعى لاكتشفنا أن الأمن المصرى عام ١٩٧٢ استطاع بمهارة وشجاعة ووطنية أن يخمد عدة محاولات

تخريبية قامت بها بعض الخلايا الشيوعية للجبهة القومية فى عدن، والتى كانت تستهدف فى المقام الأول والأخير إثارة الهلع والفزع عند المصريين ونشر التخريب ضد النظام الحاكم. . لماذا؟

لماذا هذا العدوان السافر على مصر ورموزها الكرام؟ سؤال رافقنى كظلى منذ أن بدأت عمليات البحث والتنقيب عن كل ما يمت ليوسف السباعى بصلة من قريب أو بعيد، أملاً فى تقديم عدد كامل متكامل يتناسب مع شخصية وحجم أديبنا يوسف السباعى، كما يليق بمكانة مطبوعتى الحبيبة «نصف الدنيا» رائدة الانفرادات الصحفية والتى أنتمى لكتيبتها. وما من مصدر إلا وطرحت عليه هذا التساؤل، لا رغبة فى الإيضاح، وإنما تأكيد من جانبى المتواضع على مدى عراقة مصر وعظمتها باعتبارها قرة عين الشرق الأوسط، ومحط أنظار واهتمام العالم بأكمله، فلماذا لا يحاولون كيدها بل وتدميرها وسلبها أعز ما تملك من بشر وحقوق وحضارات، هذه هى الحقيقة العارية والتى أكدها السفير حسن شاش خلال حديثه معى، والذى بدأته بداية هادئة مرنة لأخفف من حدة انفعاله وهو يتذكر أصعب اللحظات التى عاشها فى تاريخه الدبلوماسى.

كان السؤال عن بداية معرفته بالشهيد يوسف السباعى، وهل تعود إلى سنوات طوال؟

كان أستاذى فى الكلية الحربية

معرفتى بيوسف السباعى تعود إلى عام ١٩٥٠ حيث كنت طالبًا فى الكلية الحربية وكان هو أستاذى الذى يدرس لى مادة التاريخ العسكرى، وبعد انتهاء فترة الدراسة والتخرج عملت فى مكتب الرئيس جمال عبد الناصر لمدة ثلاث سنوات، كنت مسئولاً عن الشئون الأفريقية، وبخاصة تأييد ومساندة منظمة التضامن الأفروآسيوية، والتى كان يرأسها الأستاذ يوسف، وخلال هذه الفترة تعاملت معه كثيراً وقدمت له كل ما كانت تحتاجه المنظمة من دعم، واستمرت علاقتنا على نحو من الاحترام والتقدير والمودة حتى آخر لحظة فى حياته.

ويضيف : وأذكر أنى بعد انتهاء مدتى فى مكتب الرئيس عبد الناصر ، نقلت إلى وزارة الخارجية وعملت بالخارج إلى أن عدت إلى وطنى مرة أخرى بعد حادث مقتل السباعى الأليم ، وخلال فترة عملى بالخارج كنت أعود لمصر بين الحين والآخر فى إجازات قصيرة وأتصل فيها بيوسف السباعى ونتفق على أن نتقابل ، فلم تنقطع الصلة بيننا سواء فى مصر أو فى الخارج .

ويكمل : وحينما نقلت إلى قبرص كسفير لمصر هناك بدأ التفكير فى عقد مؤتمر لمنظمة التضامن ليصبح أول مؤتمر مباشرة بعد اتفاقية السلام التى تمت بيننا وبين إسرائيل ، والحقيقة أننى كنت قلقًا جداً لهذا التفكير ولم أرحب به فى البداية ، ولكن مع الإصرار رضخت للأمر الواقع .

● هل تحلل لى دواعى قلقك وقتها؟

■■ قبرص كانت دولة مخترقة ، كان الموساد يلعب فيها دوراً كبيراً ، والمخابرات الإنجليزية أيضًا ، بينما كنا نحن فى هذا الوقت تحديداً معزولين عربيًا ، ومعظم الدول العربية مثل سوريا وليبيا وغيرها كانت لها مخابراتها فى قبرص أيضًا ، وأذكر جيداً أن قلقى هذا دفعنى لأن أرسل برقية عاجلة إلى يوسف بك أدعوه فيها لإلغاء تنظيم هذا المؤتمر فى قبرص فى مثل هذا الوقت .

رغم التهديدات.. أصر على التواجد

● وكيف كان رد فعله تجاه البرقية المنذرة بالخطر الداهم؟

■■ كرد فعل أى رجل مصرى عسكرى يضع حياته على كفه غير مبال بأى شىء سوى مصلحة أمته العربية ، رد الفعل من جانبه كان مزيداً من الإصرار علّى التواجد المعلن إلى جانب الكثير من الإيمان بالخالق .

● لماذا وقع الاختيار على قبرص تحديداً وفى ظل هذه الظروف؟

■■ الحقيقة كان هناك اتفاق على أن ينعقد المؤتمر بالتناوب بين الدول وكان الدور وقتها على قبرص ، ولم يكن مقصوداً ، ولكن إحساسى الأمنى كان يستشعر

الخطر، فلم أكن مرتاحًا للوضع خاصة أن زيارة يوسف لإسرائيل والتى رافق فيها الرئيس السادات لم تكن بالزيارة البسيطة، ولا لاقت الترحيب القومى، العكس صحيح، كثيرون استنكروها واتخذوا موقفًا ضد السادات ومن رافقوه فيها.

المهم حين أحس السباعى بقلقى وهواجسى أرسل لى وفدًا برئاسة الأخ كمال بهاء الدين قبل مجيئه بأيام فاجتمعت بهم، وكان معى الوزير المسئول عن منظمة التضامن فى قبرص والذى كان يؤكد لى ولهم أمن وسلامة الوفد المصرى والمؤتمر، وبعد الاتفاق على كافة التفاصيل والترتيبات وقبل انعقاد المؤتمر بيومين وصلتنى برقية من يوسف السباعى تعلن عن حضوره، فذهبت إلى المطار ومعى حارس لأنتظر وصوله، ولفت نظرى بشدة فور نزوله من سلم الطائرة أن وجهه كان شاحب اللون وتبدو عليه آثار المرض والإرهاق، وحين سألته عن السبب قال لى إنه قضى أيامًا مع السادات فى رحلته الأخيرة ثم سافر مباشرة إلى قبرص ولم يعط نفسه فرصة للراحة الجسدية. وحين عرضت عليه فكرة أن يتولى الحارس الخاص بى حراسته فى تنقلاته طوال فترة بقائه فى قبرص وجدته يرفض بشدة قائلاً: إن الله هو الحارس، وأضاف «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، ولكنى عدت وصممت على أن ينزل فى دار السكن بالسفارة بدلاً من الفندق كنوع من الحماية له، فرفض مرة أخرى أن يترك الوفد وحيدًا فى الفندق، وينزل فى دار السفارة المصرية، وأمام تصميمه أوصلته بنفسى إلى الفندق وبعدها أقمنا مأدبة غداء على شرفه مع رؤساء بعض الوفود فى نفس يوم الوصول.

ويكمل: فى صباح اليوم التالى توجهت لمقابلة وكيل وزارة الخارجية بمبنى السفارة بقبرص للتأكد من سلامة الأمن والأمان وتأمين المؤتمر تأمينًا جيدًا، وبينما أنا جالس مع وكيل الوزارة رن جرس التليفون وتلقى الوزير القبرصى بنفسه خبر إصابة السباعى بطلق نارى ثم أبلغنى به فتركت وكيل الوزارة وتوجهت مسرعًا إلى الفندق فوجدت يوسف بك ملقى أرضًا وهو غارق فى الدماء، فأمرت بإغلاق الأبواب واستدعاء الإسعاف فورًا، وأخبرنى مدير الفندق بأن الجناة يحتجزون بعض الرهائن من أعضاء المؤتمر من المصريين، فأجريت اتصالاً هاتفيًا بالمسئولين

لاتخاذ الإجراءات الأمنية اللازمة، واصطحبت يوسف بك على كتفى وكان الدم ينزف منه بغزارة لأن الرصاصة بكل أسف استقرت فى المخ.

كنت أتخيل وقتها أنه سيعيش رغم كل شىء، وكانت المسافة بين الفندق والمستشفى لا تتجاوز ربع الساعة ولكننا وصلنا بقدرة قادر فى حوالى خمس دقائق أملاً فى إنقاذه، وعلى الفور دخلت حجرة العمليات ورجوت الطبيب أن يجرى العملية بأسرع وقت ممكن لاستخراج الرصاصة، لكن الطبيب أكد لى بعد لحظات أن المصاب قد توفى قبل وصوله بالفعل إلى المستشفى، إنها إرادة الله، وتركته وأنا فى حالة يرثى لها، وتوجهت مباشرة إلى السفارة المصرية واتصلت برئاسة الجمهورية، وكلمت السيد حسين كامل المسئول عن الرئاسة وأبلغته بالخبر.

المحارب يستريح للأبد

● هل كانت قبرص تدرك جيداً قيمة يوسف السباعى كرمز مصرى هام وأصيل؟

■■ بالطبع قبرص كلها فى ذلك الوقت كانت تعرف من هو يوسف السباعى الذى أتى من أجلها ومن أجل القضية القبرصية تحديداً، فهو كان يحاول حل المشكلة من خلال منظمة المؤتمر والمشكلة كانت تقسيم جزيرة قبرص إلى قسمين تركى ويونانى، وكان القبارصة يطالبون بالوحدة بين شطرى الجزيرة بينما الجانب الآخر يرفض بشدة وهو جاء خصيصًا من أجل تهدئة الأجواء والوصول إلى حل يرضى الطرفين، لقد جاء حادث السباعى كالصاعقة على رأس القبارصة الذين أصروا على إقامة جنازة شعبية له على الأراضى القبرصية قبل مغادرة الجثمان إلى الوطن، قبرص كلها كانت ترتدى السواد على روح السباعى الشهيد.

● وماذا بالنسبة للوفد المرافق ليوسف السباعى.. هل ظلوا محتجزين طوال هذه الفترة أم أنهم قضوها فى الجو كما قيل؟

■■ ظل هناك ١٢ شخصًا محتجزين كآخر تقسيم للرهائن وظل هذا الوفد محتجزاً لمدة ٧٢ ساعة من الفندق إلى الطائرة التى توجهت بهم من مطار ليبيا ثم بغداد ثم عدن ثم چيبوتى، ثم عادت بهم مرة أخرى إلى مطار «لارناكا» بقبرص.

● حدثنى عن الإجراءات التى اتخذت لنقل الجثمان من قبرص إلى مصر؟

■■ فى اليوم التالى للجنازة قدمت السلطات القبرصية كل التسهيلات لسرعة إنهاء إجراءات نقل الجثمان وعودته كريمًا حيث وضعوه فى الطائرة وجاء وزير الإعلام عبد المنعم الصاوى وتسلمه بنفسه بطائرة خاصة، وكل المسئولين المصريين كانوا فى انتظاره وعلى رأسهم الرئيس السادات ومعاونوه وجميع الشخصيات العامة إلى جانب البسطاء وأسرة الشهيد، وكنت أتمنى العودة معه، ولكنى لم أستطع ترك مكانى وذلك لمتابعة موضوع خطف الرهائن.

كانت قبرص تعيش فى حالة حداد وتشعر بالغضب والسخط من الإرهاب وتستنكر ما حدث وما كان يحدث من قبل المختطفين بالنسبة للرهائن.

المؤامرة المدبرة

● سيادة السفير اسمح لى أن أعبر عن شديد غضبى لما قرأته عن ملابسات التحقيق فى الحادث. . . مع الأسف لم تجئ محاكمة المتهمين بالنتيجة المتوقعة وهى القصاص، ثم كيف ينجون بفعلتهم؟ وكيف تم إرسالهم بعد ذلك معززين مكرمين إلى بغداد؟ أين القانون. . أين العدالة؟!

■■ مع الأسف لم تكن قبرص تريد أن تقطع علاقاتها بالدول العربية التى كانت على خلاف معها، لذلك لعبت دوراً فى مجاملة الفلسطينيين وبقية الدول العربية على حسابنا نحن المصريين.

● لكن يوسف السباعى كان أحد أهم المدافعين عن حقوق هؤلاء. . دعنى أسألك حتى لا نلقى اللوم كله على الفلسطينيين، هل كانت العملية مدبرة من قبل جماعة «أبو نضال» المتطرفة المنشقة، أم ترى الأمر ممولا من جهات أخرى تختبئ خلف ستار الفلسطينيين؟

■■ أعتقد أنها الإجابة الأولى، وإن كنت أشتبه أنه كان هناك اتفاق بينها وبين بعض الدول الأخرى المستفيدة من زعزعة الأمن والسلام بمصر.

● ولماذا لم يتدخل القضاء المصرى فى هذه المحاكمة وانحصر الأمر فى القضاء القبرصى المماطل البطىء؟

■■ فى ذلك الوقت كانت العلاقات قد قطعت بالفعل بين مصر وقبرص بأمر الرئيس السادات، وعدت أنا بعد ٤٨ ساعة إلى القاهرة كنتيجة لما حدث بعد ذلك من تفاصيل مشينة، وهى مقتل ١٥ جنديًا من فرقة الكوماندوز بالصاعقة المصرية، وأذكر فى هذا الوقت وقبل حدوث هذه العملية الانتقامية غير المدروسة أنه كانت هناك قنوات اتصال مع السلطات القبرصية بين مصر وقبرص ومن خلال الاتصالات أدركت الحكومة المصرية أن قبرص تخشى الدول العربية وتخشى الفلسطينيين وتهاب من إسرائيل ولهذا فعلت ما فعلت.

السادات اندفع.. وكبريانو تهور

● ذكر الدكتور بطرس غالى فى مذكراته أن السلطات القبرصية أعلنت أن تدخلك كان سببًا فى إحداث رد الفعل الهجومى على الصاعقة المصرية.. فماذا تقول أنت؟

■■ سأقص لك الرواية كاملة لتتعرفى بنفسك على الحقيقة، ومن كان الجانى الحقيقى ومن كان المجنى عليه بالفعل، لقد تلقيت برقية أن وزير الإعلام سيأتى للتدخل فى موضوع الإفراج عن الرهائن المصريين، فتوجهت مباشرة إلى المطار وأخبرت رئيس الجمهورية القبرصى والذى كان يجلس فى البرج فى انتظار وصول الطائرة لكى يتفاوض معهم بنفسه لإخلاء سبيل الرهائن، أبلغته أنا من جانبى بموضوع البرقية كما تلقيتها، فأرسل معى وزيراً قبرصيًا لاستقبال وزير الإعلام المصرى، وفى أعقاب ذلك لفت نظرى وجود طائرة «سى - ١٣٠» كانت قد نزلت بعيدًا ووقفت فى آخر المطار وإذا بى أرى قائدا للصاعقة المصرية ينزل منها للتحدث معى وسؤالى عن الملحق العسكرى، فقلت له إنى السفير المصرى هنا، فعاد وسألنى عن فارق التوقيت، فأجبته بأنه لا يوجد فروق فى التوقيت.

ويكمل: المهم أن الوزير المصرى لم يحضر، فعاد الوزير القبرصى إلى رئيس الجمهورية القبرصية، وعدت أنا وتحدثت مع قائد فرقة الصاعقة لمعرفة سبب وجوده

على الأرض القبرصية، فأخبرنى بأنهم تلقوا أمراً من الرئيس السادات للقيام بعملية كوماندوز لإنقاذ الرهائن المصريين، وكانت الطائرة قد عادت وقتئذ بالمختطفين، فرجوته ألا يقوم بأى عملية لأن القبارصة لن يساندونا، فأكد لى أنه تلقى تعليمات بأن القبارصة سيكونون معنا، ورغم علمى بأن هذا الكلام غير صحيح، عدت وأنذرته وتوجهت مرة أخرى للرئيس القبرصى فوجدته ثائراً يتهمنا بأننا نحن المصريين جئنا لمهاجمة القبارصة ومحاربتهم، فحاولت أن أوضح له الأمر وأن الفرقة جاءت لحماية القبارصة وتحرير الرهائن فرجانى أن أعطيهم تعليمات بعدم التحرك من الطائرة، فوعدته ألا ينزل أحد منهم من الطائرة إلا بأمره.

واستمرت المفاوضات، وبعد ساعة ونصف جاءنى وزير الخارجية القبرصى، وقال لى إن لديه أخباراً سارة وهى أن المختطفين وافقوا على إطلاق سراح الرهائن مقابل منحهم جواز سفر للذهاب إلى أى بلد شرقى، بعدها بحوالى خمس أو عشر دقائق فوجئنا برجال الصاعقة يهاجمون البرج الموجود فيه الرئيس القبرصى بسيارة جيب، وكان القبارصة مستعدين فضربوا الطائرة وقتلوا من فيها ثم بدأوا فى ضرب المهاجمين من رجال الصاعقة المصريين وقتلوا منهم ١٥ شخصاً، وحاولت أنا جمع الجثث ووجدت قائد الفرقة فأقنعته بإنهاء الأمر، كما سمعت أن بطرس غالى سيأتى للتدخل فى الموضوع فحصلت له على تصريح من القاعدة البريطانية لكى ينزل فى المطار لأنه كان قد أغلق على أثر الحادث، ثم توجهت مع بطرس غالى وقابلنا رئيس الجمهورية الذى كان متردداً فى مقابلتى لأنى كنت قد وعدته بأن أحداً من رجال الصاعقة لن ينزل إلا بإذنه، فاعتقد هو وقتها أن لى دوراً فى هذا الموضوع، ولكن فى النهاية تمت المقابلة على خير بين الرئيس القبرصى والدكتور بطرس غالى ثم عاد بطرس غالى مع بقية رجال الصاعقة، ومع الجثث وقال لى إنه سيشرح الموقف للرئيس السادات فور وصوله إلى مصر، ولكن الرئيس السادات لم ينتظر بطرس غالى وأصدر قراراً بقطع العلاقات أثناء وجود بطرس غالى فى الطائرة متوجهاً للقاهرة، وسمعت بعد ذلك أن مجلس الوزراء استقبل الجثث فى المطار وكنت وقتها أجمع أوراقى استعداداً للعودة إلى مصر، ولذلك فقد كان اغتيال يوسف السباعى هو الزلزال الذى تسببت توابعه فى قطع العلاقات بين مصر وقبرص.

أرى الموت كامنا بجوارى فى كل لحظة

كان يوسف السباعى يقول لى:

«من منا يعتقد أنه من المخلدين..

من منا يظن أنه لن يموت..

من منا لا يرى الموت أقرب إليه من حبل الوريد..

أنا نفسى أراه كامنًا بجوارى فى كل لحظة..

فى عربة تعدو فى الطريق..

أو فى زر الكهرباء..

أو من عود ثقاب..

أو من رصاصة صغيرة..

أو من قطعة جاتوه..

أو فى سكتة من سكتات القلب..

أو فى كل شىء..

أو فى لا شىء..».

بدأ الأستاذ حسين رزق السكرتير الخاص بيوسف السباعى والذى رافقه منذ

بدايته وحتى آخر لحظات عمره حديثه معى بهذه المقطوعة القدرية التى كان يلقيها أديبنا يوسف السباعى على مسامعه بين الحين والآخر، قبل أن تمتد الأيادى الآثمة التى لم تفرق بين رجل يحمل القلم وآخر يحمل السلاح لتزهق روحه الطاهرة وهو فى مهمة للدفاع عن قضية العرب الأولى.

كانت روحه تستشعر النهاية وترحب بها فى كل لحظة وهى آمنة مطمئنة، ولا أظن أن هناك مقياسًا دقيقًا للإيمان بالقيم الإسلامية أكثر من الإيمان بالموت، فالدين الإسلامى لا يجعل من البقاء على الأرض خلودًا أو هدفًا، وإنما هو وسيلة للعمل الصالح النافع، وهذا كله عرفه السباعى جيدًا منذ شبابه وآمن به إيمانًا قويًا وجعله سلوكًا ومواقف، لقد كان السباعى أكثر الأدباء العرب الذين كتبوا عن الموت، ولا يكاد يخلو من ذكره عمل من أعماله، كانت القيم الروحية بكل معانيها فى الحياة والموت هى أحد شواغل أديبنا، كان يعظم الروح النورانية والسماء التى تصعد إليها هذه الروح، ويقارن بين الجسد والتراب المخلوق منه هذا الجسد وبين الروح الشفافة الباقية، إن إيمان يوسف السباعى بالله هو سلوك الفطرة النقية مع خالق السموات والأرض الذى لا يحتاج إلى وسطاء ولا إلى وسائل مصطنعة لتحقيق التواصل، فقط كان يرفع يده ابتهالاً للمولى عز وجل. ويدعو فيقول «يارب.. إنى أومن بك إيمانًا مباشرًا، إنى أومن بك لأنى أحتاجك وأحس بقدرتك، أومن بك لأنى أجد راحة فى الخشوع بين يديك، ومتعة فى ذكرك، أومن بك بلا تفكير لأنى أجد فى إيمانى بك مرفأ ألجأ إليه وملاذًا ألوذ به وبغير الإيمان بك أضحى كريشة تطاردها الرياح، لا تهبط على متكأ ولا تعثر على قرة».

أيام من عمرى

● وسألت الأستاذ حسين رزق، مشوار الربع قرن مع الأديب يوسف السباعى بدأ بخطوة.. حدثنى عنها؟

■■ فى البداية قبل أن أصبح سكرتيره الخاص بدأت معه كمحاسب، فكان قد طلب من اللواء حسن رجب رئيس نادى الكشافة البحرية محاسبين لكى يتولوا

مهمة إدارة ميزانية نادى القصة لتقديمها شهريًا لوزارة الشئون الاجتماعية، وذلك للحصول على الإعانة التى تسد مصروفات النادى واحتياجاته، فذهبت أنا وزميل لى وهو عبد اللطيف محرم وسكرتير اللواء حسن رجب الأستاذ سالم وعملنا معه لمدة ١٥ يومًا، وبعدها بعدة أشهر جاءنى يوسف بك فى الجامعة حيث كنت أعمل مع حسين عارف رئيس اتحاد الجامعة فقابلته ورحبت به وعرض علىّ العمل معه بصفة دائمة فتمسك الأستاذ حسين بى وأكد ليوسف بك أن الاستغناء عنى صعب، ولكن فى النهاية وأمام إلحاح السباعى وافق الأستاذ حسين وانتدبت للعمل معه فى نادى القصة وبقيت معه حتى فكر فى إنشاء المجلس الأعلى للإنتاج الذهنى والذى تحول إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ثم أخيرًا للمجلس الأعلى للثقافة.

ويكمل: ولأن المبنى الذى حصلنا عليه فى شارع حسن صبرى بالزمالك كان عبارة عن «خرابة»، فأول اجتماع للمجلس اقترح يوسف بك أن يتم فى مجلس قيادة الثورة حتى لا يعوق تجهيزه سير الاجتماعات فى البداية، ومنذ ذلك اليوم ونحن نعمل سويًا، وتطور عملى من مجرد محاسب للميزانيات إلى سكرتير خاص ثم إلى مدير مكتبه، ثم إلى كل شىء، لم نكن نفترق إلا فى ساعات النوم فقط، لأنى كنت معه فى كل الأماكن التى عمل فيها.

● ألم يكن العمل مع يوسف السباعى بتنوعه هذا وغزارته يشكل لك الكثير من الإرهاق؟

■■ إطلاقًا فالعمل معه كان ممتعًا وجذابًا لأنه كان إنسانًا فاضلاً يعرف كيف يعامل الناس بأدب ورقة تذيب المتاعب، أنا كنت ملازمًا له لمدة ٢٧ سنة، متفرغًا له تمامًا، لم أغضب منه يومًا ولم يغضب منه أحد، ولقد قال عنه الأستاذ عبد الحليم عبد الله ذات يوم «يوسف السباعى يريك الهوان والأمور تطير»، بمعنى أن الدنيا حوله تشتعل بينما هو يبسط لك الأمور بشدة فلا تنقبض، حقًا كان إنسانًا مرنًا ومحبًا وسلسًا إلى أبعد الحدود.

● وماذا عن أخطائك أنت، هل تسببت يومًا فى إغضابه؟

■■ مرة واحدة أذكر أنها كانت بدون قصد، وكان ذلك يوم تحددت جوائز الدولة التشجيعية، وأراد أن يبلغها بنفسه، فطلب منى أن أتصل بالأستاذة أمينة السعيد ليبلغها، فاتصلت بها وسبقته وأبلغتها بنفسى، فاستدعانى إلى مكتبه واستقبل الأمر بهدوء شديد رغم أنه يحسب كنوع من أنواع التجاوز من جانبى، لكن بمنتهى الأدب عاتبنى وقال «جرى إيه ياحسين. . إنت ما بيتبلش فى بقك فولة»، فهو بطبعه هادئ ويأخذ الأمور ببساطة، ودون تعقيد، لا يغضب منه أحداً ولا يغضب من أحد، كما أنه لم يكن متعاليًا أبدًا وإنما متواضع إلى أبسط الحدود.

● وكيف سارت حياتك الوظيفية معه خلال تنقلاته المختلفة من الأدب إلى الصحافة إلى الوزارة إلى السياسة؟

■■ ليست مجاملة وإنما هو إحقاق للحق، كل هذه الوظائف الحيوية التى شغلها أعطته أخلاقًا فوق أخلاقه، وفى كل مجال دخل فيه ترك انطباعًا أصيلاً، ومع كل شخص تعامل معه حفر علامة من الود والحب داخل القلب والوجدان.

أما كيف سارت الحياة خلال عملى معه، أنا كما قلت كنت مسئولاً عن كل شىء، أعد له البروجرام اليومى لحياته منذ أن يستيقظ من نومه إلى أن يعود إلى النوم مرة أخرى، وبفضل الله سبحانه تعالى نجحت فى أداء مهمتى على أكمل وجه حتى فيما يختص بترتيب الرحلات والإجازات الأسبوعية والزيارات العائلية، وكل شىء كان بالورقة والقلم وبمنتهى النظام، وهو الذى علمنا ذلك، بعد سنوات اعتمد فيها على نفسه كاملاً، فقد كان منظمًا بطبيعته وكل من تعامل معه واحتك به تعلم هذا المنهج النظامى المتقن.

● أستاذ حسين. . هل كان السباعى يثق فى كل من حوله؟ فقد ذكر لى الكاتب أنيس منصور فى حواره معى أن كثيرين ممن وثق فيهم السباعى سببوا له الكثير من المتاعب. . فهل هذا صحيح؟

■■ هو كان شخصًا حسن النية عمومًا ولا يتوقع الغدر، وكل الذين حوله كانوا يدركون ذلك جيدًا، كما أنه كان له فريق عمل دائم يعمل معه فى كل المجالات ولا يستغنى عنه أبدًا، مثل إدوارد الخراط الذى كان يعمل معه فى منظمة تضامن

الشعوب الآسيوية ـ الأفريقية وأيضًا فى المجلس الأعلى للفنون والآداب، والصحفية خديجة قاسم كانت تعمل معه فى المنظمة، ونقلها معه حين تولى رئاسة مجلس إدارة الأهرام، والناقد أحمد صالح كان فى نادى القصة ثم شاركه فى العمل فى آخر ساعة، والروائى يوسف الشارونى تعامل معه أيضًا على أكثر من مستوى، لكن من كانا يرافقانه هما أنا ورفيقى صلاح عبد المتجلى المدير الإدارى لمكتبه فى الوزارة، وقد مات رحمه الله، كنا معه فى نادى القصة والمجلس واتحاد الكتاب ومكاتب التحرير الصحفية والوزارة والمنظمة وفى البيت أيضًا مع أسرته.

ما له وما عليه

● طوال ٢٧ سنة هل تتذكر مواقف بعينها شاهدتها عن قرب كان السباعى متسامحًا فيها فى الوقت الذى كان الطرف الآخر يتعمد فيها إيذاءه؟

■■ كثيراً ما صادفت ذلك وعاصرته وكنت شاهداً عليه، كثيرون أخطأوا فى حقه ونسوا ما فعله لهم، كثيرون أنكروه بعدما أنصفهم من اليمين ومن اليسار، والتاريخ يسجل هذه المواقف حتى لو تجاوزها أصحابها، فلن يستطيعوا لأنها وإن كانت غير معلومة للجميع يكفى أنها محفورة بداخلهم ولا سبيل للتخلص من آثارها حتى لو فقدوا الذاكرة.

أنا لا أريد أن أغضب أحدًا، ولكنها شهادة حق فى حق رجل لابد وأن نقيم ما له وما عليه، وهنا يحضرنى الموقف الذى فعله يوسف بك بفروسية مع الشاعر أحمد فؤاد نجم الذى كان دائم النقد له، ومع ذلك حين دخل السجن كان يطمئن عليه، وبعد خروجه مباشرة قام بتعيينه فى منظمة التضامن تقديراً لشخصه، هذا فضلاً عن أسر بعض المسجونين الذين كان يرسل لهم معونات شخصية من جيبه الخاص ودون أن يعلم أحد.

● وعلى ذكر الشاعر أحمد فؤاد نجم فقد كتب فى سيرته الحياتية «الفاجومى» أن السباعى كان رجلاً مجاملاً إلى أبعد الحدود، وبخاصة مع أقربائه ومعارفه الذين

كان يعينهم فى وظائف رفيعة المستوى إلى جواره، فهل نجم على حق فيما سطره؟

■■ لم يحدث أن عمل أى قريب من أقارب يوسف السباعى فى أى عمل عن طريقه، وأتحدى أن تجدى اسمًا واحدًا من معارفه قام هو بتعيينه معه فى أى منصب شغله، هذا الرجل كان عادلاً جدًا ويختار معاونيه بدقة متناهية، ولم يكن هناك أى مجال للمجاملة عنده، هكذا كان ومن قال غير ذلك فليسامحه الله.

● ولكن لا تستطيع أن تنكر أن له الفضل الأول والأخير فى اكتشاف الكثيرين وإفساح الطريق إلى المجد لأغلب الكتاب ومن بينهم الأديب العملاق يوسف إدريس....

■■ الكل يشهد بذلك وأولهم الكاتب يوسف إدريس، رحمه الله، فالسباعى هو الذى اكتشفه ورباه، فقد كان إدريس يسكن فى شارع المبتديان، وكنا نذهب مع يوسف بك ونزوره فى البيت وهو لا يزال طالبًا فى كلية الطب، وهاوى أدب فى نفس الوقت، الحقيقة يوسف إدريس كان خفيف الظل وكثيراً ما كان يمزح مع السباعى ويقول له إننا وجهان لعملة واحدة، فنحن الاثنين اسمنا يوسف وشعرنا أصفر وعنينا ملونين ونعشق الأدب ولكن الفرق الوحيد بيننا أن ناشر السباعى يستطيع أن ينشر أعمال السباعى أكثر من مرة، بينما ناشر إدريس يكتفى بنشر عملين أو ثلاثة على الأكثر له، إذن الفرق الوحيد كان بين ناشر يوسف السباعى وناشر يوسف إدريس، وبالفعل هو اكتشف الكثيرين وأعطى الكثيرين وسامح الكثيرين، فليرحمه الله كما رحم هو عباده.

● أستاذ حسين ألا تشعر أنك ذكرت كمّا من الصفات الطيبة التى لا حصر لها ولم تذكر عيبًا واحداً للسباعى، فهل كان ملاكًا على الأرض، لا أعتقد، لذا اسمح لى بعد أن تحدثنا عما له أن نذكر ما عليه؟

■■ يابنتى أنا أقول الحق ولا شىء غير الحق، هذا كان يوسف السباعى بمنتهى الأمانة، وهل يعقل أن ألفق له صفة مشينة لم تكن فيه، تسألينى عن عيوبه، سأقول لك، العيب الذى رأيته وكثيراً ما ناقشته فيه هو كثرة التسامح والعفو، صحيح أنه

التسامح عند المقدرة، ولكن مقدرة السباعى فى العفو كانت تتجاوز الحدود الطبيعية فقد كان متسامحًا أكثر من اللازم حتى مع الحرامى، فقد كان يتسامح مع من تثبت إدانته بالفعل ويلتمس له الأعذار ويعود للتعامل معه، وكأنه لم يفعل شيئًا من الأساس، عدد كبير من الكتاب والشعراء الذين يتهجمون عليه الآن استغلوا تسامحه أبشع استغلال، وحصلوا منه على مبالغ مالية بدون وجه حق ولم يردوها حتى يومنا هذا، والله على ما أقول شهيد.

● نتيجة لانشغالك الدائم معه وتفرغك التام له.. ألم تحدث لك أى مشكلة عائلية تطلبت وجودك وعاونك هو عليها؟

■■ يكفى أن أقول إن يوسف السباعى هو الذى ربى كل أولادى، فمثلاً ابنتى عزة أستاذة فى كلية الهندسة بجامعة سيدنى هو الذى ألحقها بكلية الهندسة فى الوقت الذى كانت ترغب هى فى الالتحاق بكلية الطب لكنه أقنعها بأبوة أن كلية الهندسة أفضل بالنسبة لها، ولم أكن أنا فى مصر وقتها بل كنت فى الجزائر، وتفوقت على أثر تشجيع السباعى لها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن من مكانة طيبة، وأيضًا ابنى محمد، يرجع للسباعى الفضل فى إلحاقه بالكلية الحربية حتى وصل إلى رتبة عقيد وحينما رشح للانتقال للرقابة الإدارية أجروا عنه تحريات لمدة عامين بسبب قربى من يوسف السباعى وتم قبوله وقضى ١٤ عامًا فى الرقابة الإدارية.

كنت مع الرهائن المحتجزين

● باعتبارك حملت لقب المرافق الدائم لكل تحركات يوسف السباعى حدثنى عن تفاصيل الساعات الأخيرة فى حياة السباعى بقبرص...

■■ كنت ضمن الوفد المصرى المرافق له وبعد أن وضعنا حقائبنا فى الفندق ذهبنا لمأدبة الغداء التى كانت على شرفه بالسفارة، وعدنا وأسلمنا أجسادنا للنوم، وفى صباح اليوم التالى نزلت قبله للتأكد من كافة الاستعدادات الخاصة ببدء الجلسة الثانية للمؤتمر والتى حضرها بعض السفراء ورؤساء الوفود المختلفة، وعدت إليه

بعد ذلك فوجدته يؤدى فريضة الصلاة كالمعتاد، فانتظرته حتى انتهى وأخبرته بأن كل شيء جاهز لقدومه وأن الجلسة بدأت بالفعل، وطلب منى أن أسبقه وأكد لى أنه سيلحق بى فوراً، ودخلت القاعة وكان معى إدوارد الخراط وكمال بهاء الدين وعبد الرحمن الشرقاوى وغيرهم، وفجأة سمعت صوت طلقات رصاص خارج القاعة، وأنا كنت أجلس بجوار الأستاذة بهية كرم عضوة الوفد المصرى، ووجدتها تصرخ باسم يوسف السباعى وحدثت حالة ذعر وفزع رهيبة، وخرجت على الفور فوجدته ممددا على الأرض فاندفعت نحوه، ولكن أحد الإرهابيين أمسكنى بقوة، ثم أطلق عليه إرهابى آخر رصاصتين فى ظهره ورأسه، أما الأولى فكانت فى يده اليمنى التى كتب بها أعظم الأعمال. كانا يقصدان بالفعل من ذلك شل اليد التى تكتب والرأس الذى يفكر والظهر المنتصب.

● وماذا حدث بعد ذلك وكيف تم احتجازك مع الرهائن؟

■■ الذى أمسكنى دفع بى إلى حجرة بالفندق بجانب المطبخ ومعى بقية الرهائن حتى جاءوا لهم بسيارة ميكروباص وأخذوا معهم إحدى عشرة رهينة فقط كنت أنا من بينهم بعد أن خضعنا لعمليات تقسيم عديدة وانتهت بالوفد المصرى تحديداً وهم عدد الرهائن الذين تم تصعيدهم إلى الطائرة بعد ذلك والتى ظلت معلقة فى الجو لمدة ٤٨ ساعة متواصلة وتزودت بالوقود فى مطار چيبوتى ثم عادت مرة أخرى إلى قبرص للتفاوض هى كانت عملية مدبرة من الألف إلى الياء والجميع يعلم ذلك جيداً.

● ولكن معلوماتى التى جمعتها أثناء بحثى تؤكد أن السباعى كان يعلم أنه مستهدف كما يعلم خطورة موقع قبرص باعتبارها بلدا مفتوحا. . ألم يكن ذلك داعيًا لجعل الرئيس السادات يعين له حارسًا أو مرافقًا أثناء رحلته الأخيرة؟

■■ يوسف السباعى كان مؤمنًا بالله إيمانا يفوق الوصف والتصور ولم يكن يهاب الموت بل كان أقوى منه مليون مرة. كانت تركيبته الإنسانية تتميز بالبسالة، والشجاعة والجرأة، فى مواجهة أى شيء وقد تعلم من خلال حياته العسكرية، ولذلك رفض كافة المقترحات فى مصر وقبرص وسلم نفسه لإرادة الخالق بمنتهى الإيمان والرضا.

● ونعود للطائرة وما حدث داخلها؟

■■ لقد طاف بنا الإرهابيون عدة دول بحثًا عن مكان يلجأون إليه وينقذهم من فعلتهم ونحن كنا مستسلمين لهم بالكامل لأنهم مسلحون وعلى درجة عالية من العنف والتهور.

قاتلا السباعى يحترمانه

● وهل سألهما أحدكم ما الدافع وراء الجريمة؟

■■ أنا تطوعت بذلك فقال لى القاتل الأول إنه يحترم أدبه كأديب ويختلف مع موقفه الأخير ومنها زيارة القدس، ولكنها أوامر من قيادتهم بقتله فى قبرص، وهم نفذوا المهمة بدون إحساس. كما قلت كانت مؤامرة مدبرة بدليل أن الرئيس القبرصى حاول تهريبهم وهدد قائد فرقة الكوماندوز بنسف القوة إذا نزلت من الطائرة وهو ما حدث بالفعل.

● وماذا بعد الإفراج عنك؟

■■ توجهت فورًا للدكتور بطرس غالى وأكدت له أنى لن أدخل هذا الفندق مرة أخرى وأنى أريد العودة إلى وطنى فورًا، فخصص لى سيارته وطلب منى التوجه إلى المطار الإنجليزى واستقللت معه الطائرة الحربية التى حملت جثث رجال الكوماندوز إلى القاهرة وفور عودتى تم استجوابى فى مباحث أمن الدولة لمدة ثلاثة أيام متواصلة.

● ومصيرك بعد رحيل السباعى؟

■■ رفضت طلبًا من الأستاذ على حمدى الجمال باستمرار العمل فى الصحافة بالأهرام وعملت مع الأستاذ عبد الله عبد البارى فى الإعلانات الخارجية بالأهرام وكنت أتعاقد على حملات إعلانية للأهرام.

● وهل استطعت أن تتكيف بسهولة على الوضع الجديد؟

■■ حاولت وجاهدت ولكنى مررت بفترة غيبوبة استغرقت أكثر من عام، فلم

يكن من السهل علىَّ أن أعيش مع شخص كيوسف السباعى لمدة ٢٧ عامًا ثم أفقده بهذا الشكل وبهذه البساطة .

● قال لى الأستاذ مرسى سعد الدين أنك كنت كاتم أسراره أيضًا؟

■■ نعم ، ولدىَّ مئات الأسرار عنه ، ولكن لا تحاولى لن ينطق لسانى بأى سر عنه حتى أموت ولا حتى لابنه ، فلقد حاول ابنه معى أكثر من مرة ولكنى رفضت تمامًا ومازلت على إصرارى فى الرفض .

● وكيف مر عليك العام الأول لرحيله؟

■■ كانت أسوأ سنة فى حياتى ، الحمد لله أنى أثناء سنوات عملى معه لم أفقد أحدًا أو أتعال على أحد أو أندفع ، حقيقة هذا كان ادخارى الوحيد طوال سبع وعشرين سنة حب الناس لى وهذا الذى ساعدنى فى مواصلة حياتى من جديد .

● وما مصير المشاريع والمؤسسات التى أنشأها يوسف السباعى فى حياته بعد استشهاده هل رحلت هى الأخرى؟ هل أُغتيلت؟

■■ استمرت بقوة لأنه بنى لها دعامة قوية وأنا حتى الآن أعمل كمستشار مالى وإدارى فى نادى القصة الذى أنشأه ، لازلت أعمل على الانتداب الذى انتدبه لى يوسف السباعى كمستشار مالى وإدارى فى نادى القصة منذ ٢٧ عامًا .

● ألا تزال تشم نسائم حضوره الغائب فى نادى القصة خلال وجودك فيه؟

■■ بالطبع ، ولا يمكن أن أنساه أبدًا ، لأن أحدًا لا يمكن أن يحل محله أو يملأ فراغه مهما كان ، فالفرق بينه وبين كل هؤلاء كالفرق بين السماء والأرض ، أنا لا أزال أذكر كلمات الشاعر الرقيق أمل دنقل حين كتب عنه بعد تشييع جنازته فقال :

لست أنساك واقفًا تتشمس — عند باب من الحصون منقوش

حيث المرة الأولى شاهدتك — وبعينى أنت.. أنت بشوش

ويكفى من سلامك ملمس — يعبر الآخرون حولى وقلبى

يبصر الوجه اليوسفى فيأنس

وجه
الإنسان
البسيط

من الذى لا يحب يوسف؟!

أنتِ ياحبيبة الروح

يامنية النفس الدائمة الخالدة

ياأنشودة القلب فى كل زمان ومكان

مهما بعدت.. ومهما هجرت..

عندما يوشك قرص الشمس الدافئ على الاختفاء ارقبيه جيداً

وإذا رأيتِ مغيبه وراء الأفق..

فاذكرينى..

«ياحبيبة الروح:

ما كان أعجبك وأعجب حبك، إنى ما لقيت فى حياتى أعذب من حبك ولا أشهى، ما أحبنى أحد كما أحببتنى أنت، وما أظن إنسانًا أحب إنسانًا كما أحببتنى، كان حبك أروع وأجمل من كل ما كتب عن الحب والعشاق، كنت فى الواقع تستحقين أن أسعد بك أكثر مما سعدت، فقد وجدتك مخلوقًا نادراً عقلاً وإحساسًا، كان حديثك حلوا كوجهك، صافيا كعينيك، حميما كروحك، تعارفنا الروحى ولقاؤنا الذهنى أطال سبيل محبتنا على مر الزمن، حتى أصبحنا نفسًا واحدة فى جسدين..



يقول قيس لليلاه:

ما حب الديار شغلن قلبى

ولكن حب من سكن الديارا

وأنا أقول لدولتى:

إنى لك وحدك بحقيقتى وبباطنى.. لك إلى الأبد، إنى أود أن أبقى إلى جوارك إلى ما لا نهاية، ليتنا نضل معًا، فإن ضلالنا سويًا هو خير هداية فى حياتى، من العبث أن أحاول وصف مشاعرى لك، لكنك قد تعرفينها على حقيقتها فى زمن ما!! أى زمن؟!.. لشد ما خذلنا هذا الزَمن، لعنة الله عليه وعلى كل من توقع منه

خيراً، إنى أود لو غادرنا الحياة معًا، وخلفنا الدنيا بمرارتها وسيئاتها، ياليتنا نجتمع كموتى بدلاً من أن نفترق كأحياء . .

المخلص.. يوسف

هذا هو الحب

يا توأم الروح:

«لو كان بيدى لطويتُك فى صدرى وأغلقتُ عليك الضلوع، وأطبقتُ الحنايا، كم أود لو أستطيع التعبير عما يجيش فى نفسى، فأنت الكاتب الدائم، وأنا القارئة اللدودة، لقد كنت دومًا خصب الكلمات، فياض المعانى، حاضر الأحاسيس. أما أنا فالألفاظ تخذلنى، تتضاءل أمام مشاعرى، ماذا أقول لك؟ . . وأنا أشعر بدونك كالضالة التائهة، حولى من حولى وأنت غائب حاضر وغير موجود، لقد نضب معين السعادة المستمدة منك، وبدا سيل الأحزان يطغى وينبض، لمَ ذهبت؟ لمَ لمْ تمكث برهة؟ لو بقيت لكنا الآن نجلس متلاصقين متلاحمين، وأنا أضع يدىَ بين يديك، أستمد منك الحياة وتستمد منى الوجود. . لماذا لا تأتى؟!

إنى أناديك بروحى . . ولكن ما فائدة أن تنادى شخصًا لا يسمعك، إن شوقى إليك يستبد بى فى كل لحظة، حمداً لله أنه وهبنا العزاء فى الأحلام والسلوى فى الذكريات، ومع ذلك فلا عزاء ولا سلوى عن غيابك يا أغلى الناس، والآن سيتبدد كل ما سطرته وكتبته لك مع الريح، ولا يستقر منه فى نفسك إلا قولى إنى أخشى الموت، أخشى الفراق لأنه سيحرمنى من دفء جوارك . . عد . . رد قلبى إلىَّ . .

المخلصة دولت

حكاية غرام

دولت طه السباعى زوجة يوسف السباعى ورفيقة مشوار عمره وابنة عمه الغالية ذلك الكائن المحب، أخلص من أوفى وأوفى من أخلص، الحبيبة التى شغفت به حبًا شغفت به هو وليس كتبه، كانت كتاباته معبرها إلى نفسه، لم تحبها لذاتها،

ولكن لأنها جسدته أمامها بنفسه وبروحه وبقلبه، وبذهنه وبشخصيته التى كانت تفيض حبًا وحنانًا وسكينة وإيمانًا، كانت تبصره فى كل كلمة وبين كل سطر ووراء كل صفحة، بل كانت تقرأ الكلمات وكأنها تستمع إليه، كأنها تراه يتحرك فيها، كانت تعلم أنها بكتبه وبوصفه مؤلفًا فهو ملك مشاع يشترك فيه آلاف القراء والقارئات، والمعجبين والمعجبات، ومع ذلك قنعت وأحبت وأخلصت فلا أظن المرتجف المقرور برافض طلوع الشمس إذا عرف أنها ستطلع لتدفئته وغيره من المخلوقات.

لقد كان هو ولا أحد سواه شمسها وقمرها وروحها والحياة، كان هو الهبة التى أضحت لا تحتاج لسواها ولا تحلم بغيرها، فهذا أثمن ما تريد وأعز ما تبغى، تلك هى دولت الحبيبة المحبة العاشقة، إن الإنسان كائنًا من كان لا يملك إلا أن يحبها فوجهها تفيض منه الطيبة والسكينة والرقة والسلام، ها هى تتكلم بنبض قلبها عن حكاية غرامها مع يوسف السباعى، والتى تكونت خيوطها الوردية فى عمر الحادية عشرة.

يوسف كان كل شىء لى، كان حبيبى وزوجى ووالد أولادى وصديقى وشقيقى وأبى وابنى وابن عمى، كنت أشعر به جيدًا، وكان يحس بى، هدوؤه وأخلاقه العالية أول ما جذبنى إليه، لا أذكر أن نهر أحدًا أو آذى أحدًا بل كان دائمًا يعطى أكثر مما يأخذ، وأنا كنت أجد راحة كبيرة جدًا فى الجلوس إلى جواره، أشعر أنى مطمئنة وسعيدة بل فى قمة هنائى، ولا أدرى السبب.

أول قصة قرأتها له من باب الفضول كانت قصة «تبت يدا أبى لهب وتب»، وقد نشرت وقتها فى مجلة اسمها «مجلتى» سنة ١٩٣٢، وكان لا يزال تلميذًا فى المدرسة الثانوية، وقابلته بعد ذلك بيوم، قلت له إن قصته أعجبتنى جدًا وتناقشنا طويلاً فى ذلك اليوم، كان حقيقة إنسانًا حساسًا بكل ما تحمله هذه الجملة وليس فقط فى الكتابة بل فى الرسم أيضًا، كان يجيده ولا أنسى حادثًا معينًا حدث لى وأنا صغيرة، فقد كان يرسم لى الموضوع الذى يطلب منى فى المدرسة، لأنى كنت أكره الرسم ولا أستطيع أن أرسم شيئًا على الإطلاق، ومع ذلك كنت أفوز دائمًا

بالدرجات النهائية على اللوحات التى كان يرسمها لى، وكانت الكارثة آخر العام حينما جاء امتحان الرسم ولم أرسم خطًا واحدًا، فرسبت فى المادة التى كنت متفوقة فيها طوال العام.

● هل كنت تشعرين خلال هذه الفترة بميوله الأدبية والفنية؟

■■ طبعًا وكنت حزينة جدًا حينما التحق بالكلية الحربية، والتى كان مصممًا عليها تصميمًا كبيرًا، وذلك لأن ملكة الكتابة عنده كانت مميزة وأسلوبه كان رائعًا ومفرداته حية غزيرة، وأنا كثيراً ما نصحته بعدم الالتحاق بالحربية، لأن الله منحه هذه الموهبة ولا بد أن يصقلها بدراسة الآداب، ومع ذلك لم يسمع كلامى والتحق بالحربية، ولم يكتب بعد ذلك إلا بعد فترة طويلة، والحقيقة أنا فى هذه الفترة كنت معجبة بيوسف الإنسان ومبهورة بيوسف الأديب وليس يوسف الضابط بسلاح الفرسان الذى كان يأتى إلى منزلنا ممتطيًا جواده مرتديًا الملابس المزركشة إياها المملوءة بالنياشين، ملابس الفرسان، بالرغم من أن البنات اللاتى كن فى مثل سنى كانت تبهرهن هذه الملامح بشدة، ويقفن أمامها كالتماثيل أما أنا فكنت أعشق الجوهر.. جوهره هو ولا شىء آخر.

أنا.. عايدة وإنجى ومنى

● أين أنت فى قصصه؟

■■ أنا عايدة بطلة قصة «إنى راحلة»، نصف القصة الأول يصور خطوبتنا وعلاقتنا كأولاد عم، ولكن عدا بعض التفاصيل الصغيرة فنصفها الأول لى ولحياتنا فى طورها الأول، أما نصفها الثانى فخاص لوجه التأليف، والحبكة القصصية. أنا إنجى التى كانت تنتظر عودة على فى أجازته الأسبوعية من الكلية الحربية لتمضى الساعات بجانبه فلا تشعر بوقع الدقائق ولا الساعات. أنا منى العاشقة التى التهمت كل سطر كَتَبَه حتى صارت القارئة الأولى والحبيبة الدائمة التى كانت تنتظره بين الأطلال، أنا كل هؤلاء.



يوسف السباعى وزوجته دولت وابنتهما بيسا وخلفهم بحر من الحب والحنان

• بصفتك كنت القارئة الأولى وأول عين تبصر سطوره، هل كنت تعبرين عن رأيك فيها بصراحة وبدون مجاملة؟

■■ الحقيقة أنا كنت أول عين تبصر وتقرأ الأعمال، وهى لا تزال مخطوطات قبل حتى البروفة الأولى، وأتذكر أنه فى يوم قرأت رواية السقا مات وأعجبتنى جداً لدرجة أنها شغلتنى عن إعداد الطعام وبعد عودته قلت له إنى لم أعد الطعام بسبب جمال هذه الرواية، ولم يغضب بل على العكس فقد سعد جداً بعد أن أكدت له أنها أفضل رواية كتبها وأنه لن يكتب فى جمالها أبداً، وأكد لى أنه لا يريد طعاماً لأن الأفضل من الطعام هو شهادتى هذه.

• ما رأيك فى الأعمال السينمائية التى أخذت عن رواياته، وتحولت إلى أفلام ومسلسلات ومسرحيات، هل أتت بكل ما تحتويه الرواية من عمق ووعى ومضمون؟

■■ هذا مستحيل فالكاتب يشعر بأن ما حققه هو ما كتبه هو، ومهما حاولت



دولت ويوسف وعشق فرض سيطرته فأزال الفوارق وأذاب الموروثات

الأعمال أن تقترب من الأصل الأصيل فلن تستطيع لأن القصاص يلعب كل الأدوار، دور البطلة والبطل والراوى والأحداث والنتائج، فيكون هو كل شىء: صانع العمل ومنفذه ومصوره ومخرجه، يده هى يد المصور، عينه هى عدسة الكاميرا، أنفاسه هى الموسيقى التصويرية، أما حين يتحول الابتكار الأدبى إلى عمل يرى ويسمع إلى آخرين يتولون هم تنفيذه، هنا يعود الكاتب إلى صفوف الكتاب ليأخذ كل واحد دوره، البطل والبطلة والمصور والمخرج وعامل الإضاءة، وأذكر أنه كان يتضايق فى بعض الأحيان بسبب عدم استطاعتهم التعبير عما كتبه فى أفلامهم، ومع ذلك نجحت أغلب الأعمال نجاحًا جماهيريًا كبيرًا، مثل «رد قلبى»، رغم أن الكثيرين أعابوا أن يحدث ذلك فى الواقع، ولكنى أومن مثل يوسف أن الحب قادر على كل شىء، قادر أن يجمع بين ابنة الباشا وابن الجناينى، أنا شخصيًا أعرف فتاة من مستوى راق جدًا، أحبت ميكانيكيًا وصممت على الزواج منه، وتزوجا فعلاً فى بيت عائلتهً، ورغم كل شىء فهما سعداء للغاية حتى الآن، هذه القصة قديمة منذ سنوات بعيدة ولكنها لا تزال تنبض بالحب.



دولت . . ملاك الحب وملهمته فى حياة السباعى

من الذى لا يحب يوسف؟

● فى بداية زواجكما هل كنت تتوقعين أن يصبح دائم السفر والانشغال، ألم تشعرى يومًا أنك كنت تفضلين الارتباط بزوج تقليدى له مواعيد ثابتة بدلاًمن عشق طائر مهاجر لا يرسو على غصن إلا ليذهب إلى آخر؟

■■ توقعت ذلك جدًا، لأن شخصًا بمقومات يوسف ما كان ليصبح إلا هكذا من غصن إلى آخر، من الأدب إلى الصحافة إلى الوزارة إلى السياسة، هذا يوسف، ولم أندم يومًا على اختياره، فلقد خلقت له .

● هل كنت تغارين عليه وهو الرجل الوسيم الناجح المشهور؟

■■ لم أغار عليه أبدًا، بل كنت أسعد به حينما تحادثه المعجبات ويزداد عددهن كل عام مئات الألوف، وكثيراً ما تعرفت عليهن لا رغبة فى مراقبته أو

مراقبتهن، إنما ليشعروا بالراحة والثقة، لأنى أحبه وأحب من يحبه، فمن الذى لا يحب يوسف؟

• ولكن ألم تؤثر فترات غيابه الطويلة عن البيت والأولاد على علاقتكما؟

■■ هو كان عادلاً جداً يعطى كل ذى حق حقه، العمل له وقت والبيت له وقت والأولاد لهم وقت وأنا لى وقت، كان يخصص لنا ثلاثة أيام رغم هذا الكم الهائل من المشاغل والأسفار الدائمة، الأيام كانت الأحد والثلاثاء والجمعة من كل أسبوع يقضيها معنا ويعتذر عن أى ارتباطات أخرى، وهذه الأيام كانت أيام سعادة عندنا، ولم نكن نطلب منه المزيد، تكفى أنفاسه وحضوره وطلته.

• ماذا أحببت فى يوسف الزوج والإنسان؟

■■ إنكاره لذاته ومحبته النقية لكل من حوله، إيمانه وقوة عزيمته وشجاعته وفروسيته، واحترامه للكبير والصغير، كان دافئًا وحنونًا، وبسيطًا وودودًا، لم يكن يكره أى شخص أبدًا، كان يقول لى إن الكره سيئ جدًا، وأن من يكره هو الذى يتعب، أما من يحب فهو الذى يسعد، الكره يتُعب أما الحب فيُسعد.

• أحيانًا تكون الدموع تعبيراً عن سعادة غامرة تملأ النفس.. وأحيانًا أخرى تكون الابتسامات ستارا يحجب الصراع الداخلى الذى يدور فى أعماق النفس.. فلا الدموع بمقياس للأحزان ولا الابتسامات بمقياس للأفراح، ماذا عن دمه ودموعه وابتساماته، بأى مقياس كانت؟

■■ يوسف كان يكبح جماح دموعه دائمًا، يبكى من الداخل، أتذكر واحدة من تلك الدموع المكبوتة انسكبت دون أن يراها أحد حينما مات زميل له فى الكلية الحربية اسمه «جمال صبرى» الذى سقط من الطائرة يوم تخرجه، ودمعة أخرى انطلقت يوم تحدث الرئيس جمال عبد الناصر عقب النكسة. فدموعه كانت كثيرة ومع ذلك كان دائم الابتسام، هذا هو يوسف الذى تصالح مع مرارة الحياة، وهزمها بابتسامته المشرقة، كان نبعًا صافيًا للحب النقى، نسمة كريمة رقيقة فى عالمنا الملىء بالأحقاد، علم الجميع كيف يتسامحون وكيف يتصالحون، علمهم مثالية الحب وقدسية العطاء.



حنان مفيد تنصت لنبضات حديث توءم روح يوسف السباعى

● ألم تختلفا أبدًا؟

■■ أكثر ما كان يضايقنى هو خوفى عليه، هو كان يشعر أحيانًا بالضيق من هذا الحب الزائد، ولا أعرف لماذا، كنت أشعر دائمًا أنه فى إحدى سفرياته لن يعود إلىَّ، شىء ما كان يدفعنى للتفكير بهذه الطريقة، وكأنى أخشى على هناء أيامى، أخشى أن يفرقنا أحد، وقد كان، مخاوفى عليه كانت على حق امتدت يد قاسية لا تعرف الرحمة وأخذته من بين أحضانى وأحضان أولاده.

فقدت ٢٥ كيلو من وزنى بعد رحيله

● علمت أنكِ عانيت بشدة بعد حادث استشهاده...

■■ انهرت تمامًا، ولم أتناول طعامًا لمدة ثلاثة أشهر كاملة لدرجة أنى فقدت ٢٥ كيلو من وزنى وعشت بعدها سنوات كاملة لا أدرى عددها فى عذاب شديد لا

أشعر بمن حولى، لم أكن أنام لأصحو أو أصحو لأنام، كان الليل مثل النهار، واليوم كالبارحة والمستقبل لا يهمنى وقد ساعدنى والدى كثيراً فى هذه المحنة، كان يقول لى إن الحياة كتبت علىّ وأنه يجب أن أعيشها كما قدرها الله، وإن يوسف لم يمت وإنما باق فى قلوبنا جميعًا وفى قلوب العالم، فلم يكتب عن زعيم كما كتب عن يوسف لمدّة ٤٠ يومًا وما بعدها وحتى الآن، وأنت أيضًا ياحنان تكتبين عن يوسف بعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا على رحيله.

● وكيف أنت الآن بعد مرور أكثر من ثلاثين عامًا على رحيله؟

■■ أنا أفتقد حياتى معه، حياتى له، ضاعت روحى منى، لقد عرفته وعمرى ١١ عامًا، واستشهد وأنا فى سن السابعة والخمسين، عرفته قبل أن أعرف نفسى، كان يأتى مساء كل يوم يحكى لى عن كل ما مر فى يومه من أحداث ويعطينى كتب المؤلفين الجدد ويسألنى عن رأيى فيها، كان يعلم أن لدىّ حاسة نقدية وأستطيع أن أقيم الأعمال بدقة وبفطرة، أعطانى مرة رواية «زقاق المدق» لنجيب محفوظ فقرأتها وأعجبتنى وقلت له إن هذه الرواية مولد لكاتب جديد وغريب من نوعه، لديه نفس طويل وقدرة تجعل القارئ لا يستطيع ترك الكتاب إلا بعد الانتهاء منه، وهو الذى نمّى عادة القراءة عندى ولازلت حتى الآن أقرأ وأتابع مثلما عودنى، أقرأ بحياد دون أن أقارن بين أسلوبه الذى عشقته وبين أسلوب الآخرين، فكل أديب له مكانته.

نوبل السباعى

● مدام دولت لو كان قد قدر ليوسف السباعى أن يعيش حتى الآن إلى يومنا هذا، هل تعتقدين أنه كان سيحصل على جائزة نوبل فى الآداب؟

■■ سأكون صريحة معك، فأنا لا أستطيع أن أجيب بنعم.

وعند هذا الحد من الوضوح والأمانة، والصدق أنهيت حوارى معها، وتركتها فى حجرتها وقد مدت يديها إلى أحد الأدراج فأخرجت منه صندوقًا صغيراً أخذت تتحسس محتوياته بحنان شديد، كانت محتوياته هى رسائل قديمة وصور باهتة،

وهشيم من زهور البنفسج التى كان يحبها، كانت بقاياه وأطلاله هى كل ما بقى لها من سلوان فى الأرض . . فى السماء .

أليس عزاء اليائسين من الحياة هو أمل فى لقاء فى السماء؟

وبعد أن أمسكت بالرسائل والزهور ورفعتها ببطء إلى شفتيها وبدا وجهها الحزين وقد نشر عليه الأسى ظلاله، وهبطت من مقلتيها قطرات من دمع جموح شرود، أطلقتها الذكرى وألهبها اليأس والجوى، انسابت الدموع فامتزجت بهشيم الزهور واختلطت بالسطور كأنها تؤكد اختلاط الروحين وامتزاج المهجتين وإن كانت إحداهما فى الأرض والأخرى فى السماء .

لابد أن نموت موتًا جماعيًا
حتى لا نفتقد بعضنا البعض!!

ياوالدى الحبيب..

أهتف باسمك فى كل خطوة أخطوها..

أناجيك فما من مجيب..

أشحذ همساتك فما من صوت

أسير نحوك فما من أثر

أدعوك فلا تأتى

سل الرمال كم مستها جبهتى..

سجودًا لله كى يعيدك لى..

سل الدموع التى ذرفتها..

شوقًا لضمتك الحانية..

كنت لى.. وكنت لك..

روحًا وحياة.

ما الروح . . وما الحياة . . وما الموت . . وما الدنيا . . وما الآخرة . . أهو ذلك

الذى يبدو لنا كسيل دائم التدفق ينبع من المستقبل المجهول ويجرى فى وهاد الحاضر الذى نعيش فيه ثم يعقب فى الماضى الخفى ليذهب إلى غير عودة؟ أهكذا الأيام أسرع من البرق فى السراء وأبطأ من السلحفاة فى الضراء؟

بهذه الشجون الدامعة بدأت بيسا السباعى، زهرة حياة والدها يوسف السباعى، حديثها معى والذى دار عن فكرة الموت كنهاية حتمية، تلك التى تناولها فى أغلب أعماله، وقدر له أن يكون أحد أبطال هذه الأعمال فى رواية لم يكتبها، وإنما كتبت على جبينه، تقول بيسا: «توفى جدى قبل أن يتم والدى سن الثالثة عشرة من عمره، وهنا سيطرت فكرة الموت عليه سيطرة كاملة، وأراد هو تجميلها لأنه حينما توفى والده شعر بقرب الموت منا، لذا حاول فى كل أعماله أن يجعل من الموت شيئًا مقبولاً لا بغيضًا، كلنا نؤمن بالموت فهو علينا حق، ولكن حين يقترب منا أو من أحبائنا لا نتذكر الحق، فقط نسلم أنفسنا للدموع، وأحيانًا أخرى للموت نفسه خاصة إذا سلبنا أعز ما نملك فى الحياة».

كان يجمل الموت

● كتب يومًا يقول: «أخشى أن يخطف الومض بصرنا ويتركنا بعدها فى ظلمة مخيفة لا نستطيع أن نبصر حتى الأشباح التى كنا نعيش فيها». . بهذا المعنى يصف أديبنا كيف يأتينا الفراق على غير موعد فلا نحسب له حسابًا، هل انعكست هذه الفكرة القاتمة على أدائه الإنسانى مثلما انعكست على أعماله الأدبية؟

■■ إطلاقًا رغم سيطرة هذه الفكرة عليه منذ الطفولة، كان هو مرحًا ومتفائلاً بطبيعته. . هل تتصورين أنه حرص على أن يبنى لنا مقابر ويجهزها بنفسه وهو على قيد الحياة، وعلى عكس الناس كان يذهب باستمرار وخصوصًا فى أيام الإجازات ليشرف على رعايتها لدرجة أنه جعل حديقة المقابر تبدو أكثر جمالاً ورونقًا من حديقة منزلنا بالمقطم من فرط اهتمامه بتجميلها وزراعة الزهور حولها.

● لكن كان يشاع عنه أنه مريض بالخوف المستمر عليكم. . أكانت مخاوفه خشية أن يفقد أحدًا منكم مثلما فقد والده فجأة؟

■■ أعتقد ذلك، فذات مرة قال لى «إننا يابيسا متلاحمون جدًا ولابد أن نموت موتًا جماعيًا لأنه لو مات واحد منا فسيقضى موته على الآخرين»، والغريب أنه قال كلمته هذه يوم الخميس أى قبل سفره بيوم واحد، وقبل رحيله بيومين كما لو كان قد قرأ المستقبل وأدرك ما الذى سوف تفعله بنا حادثة اغتياله السوداء.

أنا قطته المدللة:

● أنت أول وليد فى حياته.. حدثينى عنه كأب كيف استقبلك؟ وهل كان يتمنى أن يكون الوليد الأول ولدًا أم كانت البنت لديه كالولد بلا فارق؟

■■ ماذا أقول عنه؟ هل تكفى صفحاتك؟ لا أظن، لم يكن أبًا عاديًا، لقد كان أمى أكثر من أمى نفسها، حنونًا إلى درجة لا توصف، معطاء إلى أبعد الحدود، دافئًا متسامح، لم أشعر يومًا بالحاجة إلى وجود أصدقاء لأنه كان كل أصدقائى. كان يعاملنى كأميرة، حين أتيت إلى دنياه كان فى انتظارى، يعد الدقائق والساعات والشهور حتى أكبر وأتكلم معه، لا أتذكر أنه فرض علىّ شيئًا، بالعكس كان ديمقراطيًا، يترك لنا حرية الاختيار وهو واثق من متانة القيم التى رسخها فينا منذ الصغر أنا وشقيقى، لم أشعر يومًا بالفرق بينى وبين شقيقى إسماعيل فى المعاملة ولا فى أى شىء، يجوز كان الخوف علىّ أكثر لأنى قطته المدللة، كان يقول لى «أنت زهرتى الحلوة التى أخاف عليها من تقلبات الحياة، ياليتنى أستطيع أن أضعك فى حديقة خاصة محاطة بالزجاج وتحتوى على الهواء النقى والإضاءة اللازمة لنموها بعيدًا عن أتربة الجو وملوثاته».

● هل حاول أن يحبب إليك القراءة؟ وقراءة أعماله تحديدًا؟

■■ لا.. أنا كنت أسرقها وأقرأها دون أن يعلم، فمثلاً رواية «إنى راحلة» لم يكونوا يسمحون لى بقراءتها فى السن التى قرأتها فيها، ومع ذلك قرأتها خلسة وغيرها الكثير من أعماله، لم أستطع الانتظار حتى أنضج وأدرك معانى الكلام، شىء فى دمى كان يدفعنى دفعًا للإمساك بها كل ليلة وأنا فى غرفتى، كانت تسحرنى كلماته وأشعر أنه يخاطبنى وحدى لا أحد غيرى، وأنام وأنا مستمتعة بهذا الإحساس الطفولى، وأصحو فى صباح اليوم التالى لألتهم المزيد والمزيد من عباراته.



بيسا تحمل وليدها عبد الوهاب لمداعبة جده يوسف

● هل صحيح أنه كان حريصًا على أن تتزوجى عن حب؟

■■ نعم حرص شديد وخوف من أن أخطئ الاختيار أو أتسرع فى قرارى، كان يكره زواج الصالونات ويتصور أنه شىء خلق لمن لا يستطيعون الحب، لأولئك الذين يبحثون عن جو أسرى واستقرار وأولاد لاستمرار الحياة فقط، كان يقول لى «يابيسا الحياة لا تعاش ولا تحتمل إلا بالحب».

قال لى أنت برجوازية

● لو فرضنا أنك أدرت ظهرك للعالم بتقاليده الجامدة وعاداته المتزمتة، وفعلت ما فعلته إنچى بطلة «رد قلبى» ضاربة عرض الحائط لتتزوج بمن تحب «ابن الجناينى».. ترى هل كان سيقبل أم يعترض أفندينا السباعى؟

■■ لقد سألته هذا السؤال تحديداً ذات مرة، وقلت له ماذا ستفعل يابابا لو أحببت ابن عم يوسف الجناينى؟

● فقال لى أنتِ برجوازية وسأشعر بالفرق بالطبع، أما بطلة «رد قلبى» فهى أميرة

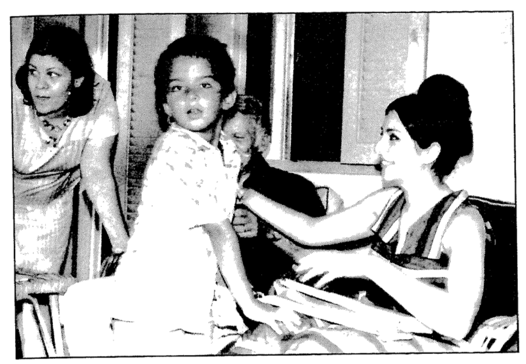
أرستقراطية. وتضيف مازلت أذكر عباراته وكلماته لى حين قال: «ياابنتى العزيزة أنا أقول ذلك فى الكتابة فقط، فنحن نحاول بالكتابة أن نهيئ لأنفسنا ناحية من الإرضاء نفتقدها فى الحياة، نجدها قد انهارت وتطايرت كالدخان فى الهواء. فالحب الأفلاطونى قد يصلح لأن يكون موضوعًا لقصة ناجحة أما أن نجعل منه حقيقة واقعة نفرضها على حياتنا فلا شك أننا سنصاب منه بحسرة وندم، إننا لكى ننجح فى الكتابة يجب أن نحكم قلوبنا ولكن لكى ننجح فى الحياة يجب أن نحكم عقولنا».

● إذن أنت كنت تناقشينه فى أعماله وصداها عند من هن فى مثل سنك. . .

■■ فى الحقيقة لم يحدث ذلك كثيرًا باستثناء حادثة «رد قلبى»، ولكن أذكر أن والدتى كانت معترضة بشدة على سير أحداث رواية «بين الأطلال»، وقالت إنها تبدو غير معقولة وغير مقبولة، ولكنه لم يكن يستمع كثيرًا للنقد خصوصًا فيما يتعلق بموضوع الحب، كانت لديه قناعة وإيمان بما يكتب بمشاعره وأحاسيسه وأفكاره الأدبية، لم يكن يسمح أن يناقشه فيها أحد، ولا أن يراجعه أحد قبل أو بعد الكتابة، وللحق فقد كانت لديه خبرة رائعة ومشاعر متدفقة كالفيضان الذى لا يستطيع أحد أن يقف أمام قوته.

● ولكن أعتقد أن منسوب المياه الرومانسى قد انخفض فى السنوات الأخيرة من كثرة مسئولياته الرسمية ومشاغله. . .

■■ نوعًا ما، فهذا طبيعى جدًا لرجل كان يشغل عدة مناصب ويقتحم عدة مجالات فى آن واحد، أحيانًا كثيرة كنت أسأل نفسى كيف استطاع أن يفعل كل هذا دون خطأ أو ارتباك؟ كيف لم يؤثر ذلك على بيته وأولاده؟ وأعود فأقول لنفسى أو أجيب نيابة عنه أنه رجل عادل طوال عمره ومنظم جدًا، وعرف كيف يعطى لكل جانب حقه دون نقصان، ويكفى أن أقول لك إننا جميعًا كنا نجتمع فى المنزل فى التاسعة مساء ونجلس حتى الثانية عشرة ونلتزم بذلك يوميًا، كما أنه كان يقضى معنا يومى الأحد والثلاثاء من كل أسبوع فترة بعد الظهيرة بالكامل، فضلاً عن يوم الجمعة طوال النهار، هذه الأوقات كان يتفرغ لنا فيها تمامًا مهما كانت مشغولياته، وكنا نقضيها إما فى المنزل أو نذهب إلى السينما أو فى الأماكن العامة.



مجىء عبد الوهاب إلى الدنيا جعله أكثر تشبثًا بالحياة

لم تكن له طقوس معينة فى الكتابة

● مدام بيسا . . كل المبدعين لهم طقوس معينة يتمسكون بها ويحافظون عليها، ومبدعنا هنا كاتب وروائى بمعنى أنه فنان حساس لابد أن يحاط بمناخ معين يوفر له حرية الإبداع، وعلى المقربين أن يحافظوا على تلك المساحات فلا يقتربون منه وهو فى لحظات التجلى . . هل كان هناك تقدير من جانبكم لتلك اللحظات الخاصة؟

■■ بالمناسبة . . والدى كان رجلاً بسيطًا جدًا ومرنا مرونة لا توصف، لم يكن هناك شىء من ذلك الذى تتحدثين عنه، المسألة كانت أبسط من ذلك بكثير، لم تكن له طقوس ومناخات خاصة أبدًا، كان يكتب فى كل مكان وفى أى وقت دون أن يزعج أحدًا، ودون أن نشعر نحن، أذكر أنى كنت أدخل عليه فى حجرة مكتبه فكان يقبلنى ويصرفنى بلطف ورقة وهدوء، ويستكمل الكتابة بنفس اللطف والرقة والهدوء.

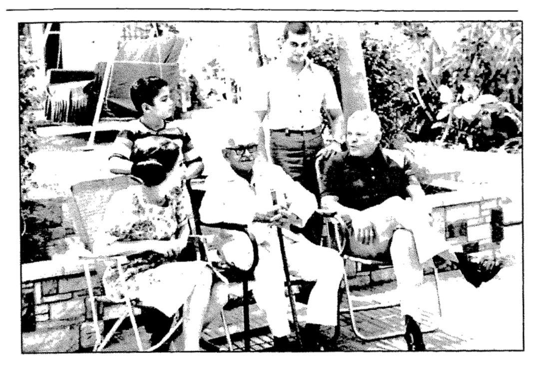
جدو.. يوسف السباعي

● عبد الوهاب الغندور الحفيد، من أعطى يوسف السباعى أعز لقب، فهو ثانى امتداد له على الأرض . . بذور العلاقة بينهما كيف نمت؟

■■ فى فترة الحمل كان متواجداً معى طول الوقت يرعانى ويحنو علىّ ويذهب معى إلى الطبيب فى كل استشارة لى أكثر من أمى وزوجى وشقيقى، كان لديه شغف لرؤية هذا الكائن الصغير الذى سيخرج إلى الدنيا، وينمو ويكبر وينضج ويعمل ويحب ويتزوج ويحارب وينتصر، لدرجة أنه كان لديه فكرة كتابة رواية عن جد يصطحب حفيده إلى متحف به أدوات حربية أثرية، ويعرفه على هذه الأدوات وأهميتها وتاريخها بالتفصيل، ومن بينها يبنى الخط الدرامى للقصة، تصورى هذه الرواية انطبعت فى ذهنه طوال شهور حملى، ولكن مع الأسف فقد انشغل بابنى أكثر من كتابة الرواية، وحين جاء إلى الدنيا كان يقضى الساعات وهو يتأمله، وحين كبر كنت أعتبر يوم الجمعة بمثابة يوم إجازة من ابنى لأنه كان يأخذه من أول النهار، وحتى الليل، ولا يفترق عنه وكأنه يعيش لحظة بلحظة تفاصيل الرواية التى كان يتمنى أن يكتبها له، ومن شدة تعلقه بعبد الوهاب شعرت بأنه كان ينافسنى فى قلبه، من كثرة ما كان يغضب منى حينما أقول إنه مزعج لأنه كان يهوى إزعاجه ولا يغضب من إلحاحه، حتى فى أوقات الكتابة كان يترك كل شىء ليتحدث معه .

● اسمحى لى أن أستعيد معك ذكرى أليمة وهى حادثة رحيله، أين كنت وكيف تلقيت الخبر المشئوم؟

■■ كنا فى المنزل يومها وجاءنا أحد السائقين بشكل جعلنى أتأكد أن شيئًا كبيراً قد حدث لوالدى، فوجدت نفسى أقول على الفور ودون أن أشعر «اللهم إنى لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه»، وبعدها بلحظات أخبرنا السائق أن والدى قد أصيب بطلق نارى وأنه سيكون بخير، وقد سمع ذلك من نشرة أخبار الراديو، فوقفت فجأة كتمثال الشمع ولم أقم بأى رد فعل سوى احتضان ابنى، وحاولت احتواء مشاعرى وتحاملت على نفسى وجلست مع المقربين الذين جاءوا فور سماعهم الخبر، وفى هذا الوقت كانت والدتى منهارة تمامًا، وكم حاول



جلسة عائلية تضم الجد طه السباعى والأب يوسف السباعى والأبناء «بيسا» و«إسماعيل» والحفيد «عبدالوهاب»

الأقارب إسعافها بلا جدوى، أما أنا فكنت فى حالة جمود غريب، رفضت الذهاب إلى أى مكان، وتماسكت تماسكًا رهيبًا لدرجة أنهم خافوا منى وعلىَّ واستمرت على هذه الحالة لمدة ١٥ سنة، وأنا فى حالة ذهول لا أصدق ولا أبكى ولا أضحك ولا أنفعل بأى شىء حولى إلى أن شفيت.

لن يعوضنى عنه أحد

● بعد رحيل الحبيب والصديق والسند، هل استطاع زوجك أن يملأ غيابه ويعوضك عنه؟

■■ لن يعوضنى عنه أحد، ولا أحد يستطيع أن يحل محله فى قلبى، ولا أنكر أن زوجى كان سندًا لى فى محنتى، وكم تعب من متاعبى وحزن لحالى واحتملنى

سنوات طوالا وهو مؤمن بأنه سوف يأتى يوم أعود فيه لطبيعتى وإلى ما كنت عليه قبل أن أفقد روحى مع والدى.

● لا أريد أن أضغط عليك أكثر من ذلك، يكفى ما قلته، دعينا نتحدث عن نقطة أخرى وهى عامل الوراثة، ماذا ورثت من طباعه؟

■■ يجوز الطيبة والرومانسية بشكل عام، أنا لا أستطيع أن أقيم نفسى، ولكن الذى لا تعرفينه، وقد لا يعرفه إلا المقربون أننى ورثت منه بعضا من الأدب، لكنى كتبت ديوانًا من الشعر سيصدر قريبًا إن شاء الله، يضم قصائد كنت قد كتبتها وأخرى حديثة العهد، فتلك الهواية لازمتنى من سن ٢٢ سنة ثم تركتها قليلاً وعدت إليها مرة أخرى، وأنا حقيقة أفكر فى نشرها على نفقتى الخاصة.

● لماذا توقفت فترة.. هل من سبب؟

■■ توقفى كان بسبب خوفى المرضى من الفشل، من حدوث أى شىء سيئ فأنا بطبيعتى لدىّ خوف مرضى، ولازلت أعالج من هذا الهاجس.

جفت الدموع

● إذن هذا الخوف المرضى قديم العهد، هل كان يوسف بك يستشعره؟ وكيف كان يتعامل معه؟ وما سببه وأنت نشأت فى أسرة محبة ومستقرة؟

■■ لا أعرف دائمًا كنت أشعر بالخوف من آت لا أعرفه، من مجهول قد يقلب هذا الحب وهذا الاستقرار، وقد كان فى حين كان والدى يمتلك توازنًا نفسيًا كبيرًا وقوة أعصاب، ولم يكن يتخيل أو يقتنع لماذا أشعر بهذا الخوف، ولماذا يقتحمنى هذا المرض وأنا فى شبابى وبصحة جيدة، لقد جاء حادث استشهاده فضاعف من المرض بل وطور منه، فتحول الخوف إلى تبلد لأنه أصبح لا يوجد ما أخاف منه أكثر من ذلك، فماذا أكثر من فقدان رجل كان يمثل لى كل الحياة، أحيانًا كثيرة تتملكنى اللوعة، ويحتوينى الشجن وأتمنى أن أرتمى فى أحضانه، وأن يسمعنى كما أسمعه ويرانى كما أراه، أن يضحك معى ويبكى معى، ولكن كيف وقد صمتت الضحكات وجفت الدموع؟

يا بني...

مازلت أذكر ما قاله لى ذات يوم . .

«يا ابنى لا تعدو ولا تجر . . إن الحياة طويلة . . فلا تنهك نفسك بالعدو فيها . .

فستصل إلى النهاية مبهور الأنفاس محطم القوى . . سر على مهل . . وتكلم على مهل . . وكل على مهل . . وافعل كل شىء على مهل . . يكفى أن تفعل فى حياتك نصف ما تفعل . . فلو أنك ستسير فى حياتك ألف ميل . . وتتكلم مليون كلمة . . سر نصفها وتكلم نصفها ليس هناك ما يجبرك على أن تفعلها كلها ، فلن تقدم فى نهاية حياتك كشفًا بما فعلت .

ثم ما الذى نفعله فى حياتنا . . شر أو خير وشرنا أكثر من خيرنا . . أى شىء نأخذ منها شقاء وهناء . . وشقاؤنا أكثر من هنائنا ، وبم نخرج منها؟ بلا شىء . . ونصف اللاشىء . . لا شىء . . ومادمنا كلنا نتساوى فى الخروج منها . .

فعلام اللهفة إذن؟

ترى هل كان يوسف السباعى زاهدًا فى الحياة ، أم كان واقعيًا أكثر من اللازم؟ وكيف تلاحمت الواقعية مع رومانسيته فأعطتنا فى النهاية هذا القالب الفلسفى النابض؟ كيف نجح هو فى أن يزاوج بين القلب والعقل لينجب هذه الروح الشفافة التى ما أن تنطق إلا وتخرس الألسن ، وما أن تنتهى من نفحات الكلام إلا وتمتزج عباراتها مع كيميانا ، فيوسف السباعى مثله مثل الحب يظل بعيدًا عنك وأنت تبحث

عنه، وما أن تدير ظهرك حتى تجده كافيًا لسد الفجوات الزمنية وتحويل البعد إلى قرب.

أسطول السباعى.. الجد.. الأب.. الابن

● كلنا يعلم كم تأثر يوسف السباعى بوالده محمد السباعى الذى أورثه عشق الأدب ترى هل تأثر الابن إسماعيل بيوسف الأب أيضا، أم انفرط العقد؟

■■ كما تأثر هو بوالده تأثرت أنا به، وكما رآه أفضل شخص فى الدنيا رأيت أنا والدى يوسف السباعى كذلك، لم ينفرط عقد السباعى وإن كان من الأمانة أن أقول إنه كان أكثر منى التزامًا بأسرته، فقد كان جدى أديبًا بوهيميًا لم يكن يحمل هم أولاده وكانت جدتى هى التى تتولى رعايتهم وشئون المنزل، وقد ورث والدى هذه الجدية والالتزام والمسئولية منها، أما من والده محمد السباعى فقد ورث حب الكتابة بكل فروعها.

ويضيف: لا يمكننى أن أدعى أننى أشبه والدى فى كل شىء، فبالرغم من أنى ورثت عنه الكثير ولكن بالطبع هو أفضل منى ألف مرة فى كل شىء.

● ولكن من المؤكد أنك متذوق للأدب والفنون مثله حتى وإن سلكت اتجاهًا آخر غير ذلك الذى احترفه هو عن جدارة؟

■■ بالطبع أنا متذوق للأدب والفنون، أحب القراءة والرسم والسينما، ولكن أقرأ للمتعة فقط وليس لكى أتزود بمفردات أو أتعمق فى هذا الطريق لأن الموهبة خاصة بأناس قليلين وهم المبدعون الذين يرسمون ويؤلفون ويشخصون ليستمتع الناس.

● تعرف جيدًا بالطبع أن الابن فى حياة أبيه هو الامتداد الأول. . هل استشعرت أنه يطمح فى أن تسلك نفس ذات الطريق، أو بمعنى آخر هل وجدته يدفعك دفعًا للالتحاق بتلك الميول بعيدًا عما تهواه أنت؟

■■ مطلقًا، فوالدى كان إنسانًا عاقلاً جدًا، ومدركًا لكل شىء ويعرف أن البيئة هى التى تشكل تلك الملامح، ولكن لكى تتجاوز الملامح نطاق التشكيل إلى نطاق

الممارسة الفعلية فلا بد وأن يكون هناك استعداد داخلى من قبل الابن أو الابنة حتى تنبت الأزهار فى أرض صالحة للزراعة.

اتق شر الحليم إذا غضب

● يقولون دائمًا إن الطفل الثانى فى الأسرة يمنح ما حرم منه الطفل الأول كما لو كان الطفل الأول عبارة عن معمل تجارب تختبر فيه كل أساليب المعاملات، وحين تتضح الرؤية السليمة الواضحة يكون الطفل الثانى فى الطريق . . .

■■ إطلاقًا . . لم يحدث ذلك معى على الأقل، فالفارق الزمنى بينى وبين شقيقتى أربع سنوات ونصف وكانت هى قد تدللت بما فيه الكفاية، وحين جئت أنا أعادوا لى الطاولة من جديد بنفس الاهتمام، والرعاية والحرص، لم أشعر بفرق، ولم تشعر بيسا أيضًا، كلانا أخذ حقه وزيادة، ولا أذكر أنه ظلم أحدًا منا، بالعكس كان عادلاً جدًا يستمع لى ويستمع لها ونحتكم له فى كل صغيرة وكبيرة ودائمًا كان حكمه سليمًا.

● ولكن اسمح لى فقانون المسموحات والممنوعات يختلف من البنت إلى الولد، فهناك أشياء قد تمنح للولد وتحرم على البنت والعكس ليس صحيحًا . .

■■ هو كان ديمقراطيًا جدًا وحاسما فى نفس الوقت مع ابنته، وإذا ارتكب أحدنا خطأ كان يطبق علينا قانون العقوبات بدون فروق، ولكننا أيضًا لم نشكل له أى عبء لأنه بصراحة ربانا على القيم والعادات السليمة وغرسها بداخلنا منذ الصغر، فنشأنا نعرف الفرق جيدًا بين ما هو خطأ وما هو صواب، كخلاصة أؤكد أنه كان متحضر التفكير ولكن فى نفس الوقت كان متزمتًا بعض الشىء مع بيسا، لا لشىء أكثر من أنه كان يخاف عليها من نسمة الهواء، ويعلم أننا نعيش فى مجتمع تحكمه تقاليد معينة، ولديه كل الحق فى ذلك، فلم يكن يريد لابنته أن ينظر لها أى شخص نظرة غير محترمة بل يجب أن تسير بحيث لا ينظر إليها أى شخص، هو كان شرقى السمات من داخله ومحافظًا جدًا، ومن منا لا يفعل ذلك مع بناته.

● إذن قانون المسموحات للابن يختلف عن قانون الممكنات للابنة فى شرع يوسف السباعى الأب . . .

■■ ليس مسموحات بالشكل الكبير الذى تظنينه ، أنا أيضًا كان يحبذ أن ينظر لى الجميع نظرة احترام لأنى امتداده كما تقولين ، والأمر هنا واحد ولكن معناه يختلف من الولد إلى البنت ، فكلانا امتداده وعلينا أن نلتزم بما أوصانا به لأننا مرآته ، أما عن الممكنات فأقول لك إنه كان يسمح لبيسا أن تدخل وتخرج وتذهب إلى صديقاتها ، ولكن فى صحبة أحد منا ، لم يكن الهدف من ذلك مراقبة تصرفاتها - لا سمح الله - ولكنه حرص طبيعى وأنا أفعل المثل مع بناتى . فنحن فى زمن صعب والمجهول دائمًا مخيف ، أما أنا فكنت أخرج وأدخل بمفردى ولكن أيضًا فى مواعيد محددة احترامًا لوجوده ، يجوز أن يكون الشىء الذى كنا دائمًا نختلف عليه هو أنه كان دائمًا يطالبنى بأن أشعر بقيمة الفلوس لأنها تحتاج فى الحصول عليها وجمعها إلى جهد مضنى ، ومع ذلك لم يكن يمنع عنى أى شىء بل يوفر لى أكثر من حاجتى لدرجة أنى فى أحيان كثيرة أتهرب من طلباتى حتى لا أشعره بالثقل .

ويضيف : أذكر أنى وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى كنت أمتلك سيارة وفى جيبى مصروف شهرى وأنا لازلت أدرس ، وأعتقد فى ذلك أنه حاول أن يعوضنى عما حرم هو منه فى شبابه ولكن بشكل عاقل حتى لا يفسدنى .

● هل تحدثنى عن أول صدام حدث بينك وبينه؟

■■ أقسم بالله أنه لم يحدث هذا أبدًا ، فقد كان صديقًا لى بكل ما تحمل هذه الكلمة من معانى وليس لى وحدى بل كان أبًا وصديقًا لكل شباب العائلة ، كانوا يحكون له عن مشاكلهم ويثقون به ثقة عمياء ، والحقيقة هو كان يتعامل مع مشاكل الجميع على مختلف أعمارهم باحترام وتقدير شديدين حتى مع الأطفال الصغار ، كان يحترم شكواهم البسيطة ويعطى لها آذانًا صاغية ، كان يشعر بالجميع كبارًا وصغارًا ، كانت لديه قدرة عجيبة فى أن يتحول إلى كهل مع الكبار ويمس همومهم وفى الوقت نفسه يعود إلى مرحلة الطفولة مع الصغار فيلمس همومهم أيضًا .

● وماذا عن همومه هو فى دنيا الحياة العامة . . هل كان يناقشها داخل جدران المنزل أم كان يخلعها على بابه؟

■■ هو كان يقص علينا تفاصيل يومه كله من مقابلات أو زيارات أو مشكلات طارئة إلى آخره، وكان يتحدث بشكل بسيط وبدون تعقيد، كان يأخذ الأمور بتعقل وهدوء وبدون تشنج أو عصبية والمرة الوحيدة التى رأيته فيها حزينًا ومكتبئًا ولا يستطيع التحدث لأحد كانت يوم توفى ابن أحد أصدقائه أما غير ذلك فلم يكن يشعرنا بوجود أى مشكلة، لأنه كان يتعامل مع أى شيء مهما كان، كل مشكلات عمله كانت بالنسبة له سهلة الحل، كان يتجاوزها بسهولة حتى حينما كان يهاجمه أحد كان يضحك ولا ينعكس أى شيء عليه أو على البيت، هو بطبيعته كان يكره أن ينقل همه أو ضعفه للآخرين، مثلاً حين أبلغ بخبر وفاة والدته كنا خارج البلاد ولم يشعرنا بأى شيء رغم حزنه الشديد، كان متماسكًا حتى لا نتأثر، وعاد إلى مصر وقتها وحضر جنازتها، وهكذا كان أكبر ألم يشعر به هو فقد الأعزاء، ومع ذلك كان يمتص الأزمة حتى لا يثقل على أحد، وكل الأحداث التى كان يمر بها كان يواجهها بمفرده دون أن يشعر أحدًا.

● حين جاء أول حفيد سخر له يوسف السباعى الجد الكثير من وقته، هل فعل معك المثل أم أنك جئت إلى الدنيا فى أعقاب انشغالاته الأولى بالأدب والثقافة والرسميات؟

■■ الاهتمام نفسه والمتابعة والتدليل التى كان يمارسها مع عبد الوهاب كان يمارسها معى ومع شقيقتى بيسا، وهو كان دائم الانشغال فى كل مراحل عمره فى البداية وفى النهاية، ومع ذلك كان قادرًا على تنظيم وقته بل وإيجاد الوقت الكافى لقضائه مع الأهل والأصدقاء، وأستطيع أن أقول إنه حينما ولدت أنا كان أقل انشغالاً من الوقت الذى ولد فيه عبد الوهاب، فقد كان على وقتى أنا ضابطًا فى الجيش ويكتب الروايات دون أن يكون لديه أى ارتباط آخر، ولكن حينما ولد عبد الوهاب كان يشغل العديد من المناصب ومع ذلك كان يدخر من الأوقات ما يجعله يقضى معنا أجازات طويلة.

الابن على درب أبيه سائر

● أنت الآن أب ولك ابنتان دينا ودولت فهل سلكت معهما نفس ذات النهج الديمقراطى المرن الذى كان يطبقه معك يوسف السباعى؟

■■ أحاول ذلك قدر المستطاع، ولكنى أعترف بأنه كان أفضل منى، أنا مع الأسف ورثت عن أمى هواجس القلق والخوف المرضى، وكثيراً ما أغضب بناتى فى حين أنى أنا نفسى كنت أعانى معاناة شديدة من هذه الهواجس وأغضب أمى منى، وأتساءل لماذا كل هذا الكم من الخوف والرعب، أنحن رُضَّع؟ ثم حينما كبرت وصرت مسئولاً عن أسرة مكونة من ثلاث نساء أشعر بالخوف عليهن من أى شىء ومن كل شىء، وأحاول قدر المستطاع أن أكبح جماح خوفى وأدعوهم للمناقشة البناءة حتى أخرج منها بالنتائج التى أتمناها، وهذا من واقع حرصى الشديد عليهن، ومن هنا شعرت كم كان والدى لا يهدأ له بال إلا حينما يسمع صوت بيسا أو يطمئن على أنها قد عادت بسلامة الله من زيارة إحدى صديقاتها.

ويكمل: أنا أمارس معهما نفس العقاب الذى كان يمارسه معهى وهو التزام الصمت التام، وهذا كان يقتلنى، وكان أكبر عقوبة تواجهنى هى أن أشعر أنه غاضب منى وهم أيضًا كذلك، أما مسألة الحبس الانفرادى وعدم الخروج والأشياء من هذا القبيل، فلم يكن لها مجال عندنا، فالاحترام المتبادل كان أهم ركيزة نرتكز عليها جميعًا من الصغير إلى الكبير.

● لم تعش ابنتاك دنيا ودولت عصر السباعى الجد.. فهل تحدثهما عنه؟

■■ ابنتاى تشعران بجدهما وكأنهما رأتاه، فكل من كان يعلم أنهما حفيدتا السباعى فى أى مكان يحدثهما عنه ويحتفون بهما احتفاء غير عادى.

حفيدتا السباعى تفضلان الإنترنت عن أعماله

● هل هما متذوقتان للأدب العربى مع دراستهما الأمريكية؟ وهل تقبلان على أعمال جدهما؟

■■ للأسف هما لا تمتلكان حب القراءة مثل جيلنا وهذه طبيعة جيلهما، فالآن أصبحت هناك بدائل كثيرة عن القراءة، فالإنترنت مثلاً لا يعطى لهما فرصة للاطلاع على الكتب، وقد طلبت منهما مراراً أن تقرآ أدب جدهما، لكنهما لا تقرآن إلا لو طلبت منهما ذلك، فالدنيا تتطور وأنا مثلاً على جيلى كنت أقرأ كل ما هو موجود ومتوفر، فالقراءة فى حد ذاتها كانت متعة، إضافة إلى أنها كانت الوسيلة الوحيدة للتسلية، أما الآن فهناك وسائل عديدة وأماكن كثيرة وقنوات فضائية لا حصر لها ولا وقت للقراءة ولا مكان للكتاب.

تألموا تصحوا

● أرجو أن تغفر لى فضولى فسوف أعيد عليك سؤالاً سمحت لنفسى أن أنفذ من خلاله إلى أحزان شقيقتك بيسا لا رغبة فى إيلامها بل هو دعوة منى لأن تتحرر من عذابات الذكرى الأليمة بالبوح أكثر. . فحين نتذكر الألم ونعبر عنه بجرأة وشجاعة قد نشفى منه بعد فترة، ولكن أن نتجاوزه بقوة واهية فهذا قد يُنشط خلاياه الخبيثة فى مرحلة متقدمة من العمر فتكون كفيلة بالقضاء علينا نهائيًا. . اسمح لى أن أدق على باب قلبك وأستعيد معك تفاصيل يوم الاستشهاد؟

■■ هذا اليوم محفور فى ذاكرتى وتفاصيله لا تزال حية لم تمح من ذهنى أبداً، أتذكرها دائمًا وكأنها حدثت بالأمس، كان هذا اليوم إجازة رسمية بمناسبة المولد النبوى الشريف، وأذكر أنى خرجت فى الصباح مع زوجتى وذهبنا إلى السينما ثم تناولنا الغداء مع أصدقاء آخرين وخلال عودتنا إلى البيت كنت أقلب محطات الراديو فى السيارة لأستمع إلى نشرة الأخبار ولا أدرى سبب ذلك بل مجرد هاجس دفعنى لعمل ذلك، وفجأة سمعت المذيع يقول «كان الأستاذ يوسف السباعى. .» بصيغة الماضى، فانقبض قلبى، ولم يكن ما حدث واضحًا من كلامه فرفضت العودة إلى البيت وذهبت إلى بيت عمى وأنا لا أدرى طبيعة المكروه الذى حدث لوالدى، ولكننى فوجئت على السلم بكل سكان البيت يقفون ويرتدون الملابس السوداء فعدت إلى البيت، والحقيقة لا أستطيع وصف شعورى وقتها فلم يكن لى أى شعور، فقط ذهول، وحين وصلت وجدت البيت يمتلىء بالناس فجلست

وحدى رغم أن البيت كان ممتلئًا بالمعزين، ولكنى لم أكن أدرك ما حدث فقد رحل والدى وهو فى قمته وهو ملىء بالحيوية، وهذا ما كان يتمناه، أتذكر أن يوم وفاة عبد الحليم حافظ حزنت أنا عليه جداً لأنى أعشق عبد الحليم، فوجدته يهدئنى ويقول لى إن عبد الحليم رحل وهو فى عز مجده وترك صورته الرائعة فى الأذهان وهذا أفضل من أن يقضى عامين أو ثلاثة مريضًا ويفقد الصورة الجميلة التى رسمت له فى أذهان الناس، وأيضًا والدى رحل وهو فى قمته، ولم يعش مرحلة الضعف أو العجز، بل احتفظ بصورته الرائعة التى رسمها فى أذهان الناس، ومع ذلك ورغم اقتناعى التام بكلماته كنت فى حالة انهيار تام، فأعطونى مهدئا ولم أشعر بعد ذلك بأى شىء إلا فى اليوم التالى، عشت بلا وعى لعدة أيام رغم أنى حضرت الجنازة ومراسم الدفن، كنت أشعر بأن الأرض تدور بى وأنا أقف مبتور اليدين لا أستطيع إنقاد نفسى ولا لململة جراح أحبائى أمى وأختى.

جنازته كانت وطنية

● أعلم أنك قمتم برفع دعوى قضائية ضد الجناة، فما الذى انتهت إليه هذه الدعوى؟

■■ الحقيقة لا أعلم، فنحن لم نرفع دعوى، بل كان لدينا محام قام برفعها، ولكننا نؤمن بأنها إرادة الله، لو لم يكن الله يريد أن يحدث هذا لما كان أحد قد استطاع أن يفعله، لقد أسلمنا أنفسنا لقضاء الله وقدره، وآمنا بأن الله كان يريد ذلك، وأنه أكرمه بذلك، ولم يتصور أحد كيف كانت جنازته، لقد كانت مصر كلها تسير فيها كانت تصل من ميدان التحرير حتى جامع الكخيا عند سينما أوبرا، وكان الألوف الذين ساروا فى الجنازة كلهم غاضبون وكلهم يهتفون «لا إله إلا الله . . يوسف السباعى حبيب الله»، وهو هتاف لا يمكن أن يقال إلا إذا كانوا يحبونه حبًا عميقًا فقد كان كاتبًا محبوبًا، وقد تحولت جنازته من جنازة عادية إلى جنازة وطنية وهذا جعل مكانته ترتفع فى قلوب الناس أكثر.

مقعد السباعى الخالى

● برحيل والدك صرت فى يوم وليل رجل البيت المسئول عن ثلاثة من النساء الأم والأخت والزوجة، هل ملأت فراغه أم أن أحدًا لا يستطيع الاقتراب من مقعد يوسف السباعى الخالى؟

■■ لا أحد يستطيع بالطبع رغم أنه ترك لنا كل شىء منظمًا وواضحًا، وحتى الآن نحن نعيش بإمكانيات والدى ـ رحمه الله ـ وبشخصيته وكأنه يعيش بيننا، فتنظيمه للأمور بهذا الشكل سهل علينا أشياء كثيرة ولكننا نفتقده فلقد أصبح بيتنا كئيبًا وراحت منه بهجة الحياة والفرحة للأبد.

«الإنسان لا يستطيع أن يختار ما يريده،
ولكنه يستطيع على الأقل أن يرفض ما لا يريده»

«أبعاد الشخصية الإنسانية تتكشف فى خصام الإنسان.. لا فى مودته، وهو كان نبيلاً فى خصامه، فارسًا فى مواقفه، لم يكن اختلاف الرأى يثير كراهيته، كان يحثنا جميعًا على التسامح، والعفو ويدفعنا إلى البحث عما يزيد فنسعى لتحقيقه».. هكذا كان يقول لى «الإنسان لا يستطيع أن يختار ما يريده، ولكنه يستطيع على الأقل أن يرفض ما لا يريده».

ملمح آخر تتحدث عنه زوجة إسماعيل السباعى الصبية الحلوة التى انضمت إلى أسرة السباعى وصارت شقيقة ثالثة لهما، لتصبح الأسرة مكونة من يوسف السباعى وزوجته دولت، وأولادهما بيسا السباعى وزوجها الدكتور أحمد الغندور وإسماعيل السباعى وزوجته، تلك الأسرة المترابطة التى عاشت أيامًا وليالى فى هناء إلى أن جاءت لحظة غادرة قصمت ظهر الحياة فافترق الأحبة. . ومن بين الأحبة تحدثت عن قصة تعرفها الأولى بزوجها إسماعيل السباعى فتقول: . . . . . .

«تعرفت عليه من ابنة عمه، كانت صديقتى فى المدرسة والجامعة، رآنى هو مرة وأنا فى المرحلة الثانوية وكان هو فى الجامعة، وحدث ابنة عمه عنى وأبلغها بأنه معجب بى ورآنى مرة أخرى وكان هو فى السنة الأخيرة بالجامعة وكنت أنا بالفرقة الأولى فطلب التعرف علىَّ، وكنا نقضى وقتًا طويلاً معًا فى الجامعة كمجموعة ثم تطورت العلاقة إلى خطوبة ثم إلى زواج».



قرأت له كثيراً وتمنيت رؤيته

● متى رأيتِ الأستاذ يوسف السباعى لأول مرة؟

■■ رأيته فى منزل شقيقه وعم إسماعيل، كنا مدعوين كلنا هناك، وكان إسماعيل قد صرح لى برغبته فى الزواج منى فنادانى عمى يوسف، وجلست بجواره وكان حديثه معى رائعًا جعلنى أحبه من أول لحظة وشعرت بأنى أصبحت قريبة منه، فكان حديثه معى وكأنه يعرفنى منذ سنوات، وليست أول مرة يرانى

فيها، حقيقة كان سعيدًا جدًا، وأنا أيضًا كنت سعيدة، ولم أكن أصدق نفسى لأنى قرأت له كثيرًا وتمنيت أن أراه وجهًا لوجه.

● وكم استمرت فترة الخطوبة؟

■■ كان موعد قراءة الفاتحة يوم السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣ حيث وقعت الحرب، وكان هو فى الوزارة وقتها فاتصل وطلب تأجيل قراءة الفاتحة إلى اليوم التالى، وبالفعل قرأنا الفاتحة يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٧٣ وتزوجنا عام ١٩٧٥، وعشنا فى فيلا مقابلة لفيلته.

● هل فرض عليكما ذلك؟

■■ إطلاقًا لم يفرض هو علينا شيئًا، بل خيرنا بين الإقامة فى المقطم، واختيار أى مكان آخر يوفره لنا لنسكن فيه، وكان إسماعيل يرفض السكن فى المقطم لبعده عن أصدقائه، ولكن حينما رأينا الفيلا التى أسسها لنا سعدنا بها جدًا خاصة أنه كان يوفر لنا كل ما نحتاجه، واخترنا كل شىء، وأقمنا معه شهرين حتى انتهينا من إعداد البيت، ثم انتقلنا إلى بيتنا المقابل لبيته، وكان إسماعيل يسرع إلى بيت العائلة حينما يسمع والده وهو يدخل البيت، فيقضى معه وقتًا طويلاً، وكنا كلنا نحرص على قضاء أكبر وقت ممكن معه.

كان حمى مريحًا

● ألم تشعرى أبدًا أنه يعاملك كحمى؟

■■ مطلقًا، لقد كان إنسانًا رائعًا ومريحًا، ويحب أن يريح الجميع، كان يقول لى إنه سعيد لأنه أنجب بنتًا كبيرة ومتعلمة ولم يتعب فيها، وكان بالفعل يعاملنى مثل بيسا.

● وكيف مر عليك حادث استشهاده؟ وهل شعرت بأهمية دورك وقتها فى مساندة إسماعيل لتخطى محنة وفاة والده؟

■■ كانت محنة صعبة جدًا وقضينا عامًا كاملاً شعرنا فيه بأن الحياة قد توقفت

لأنه كان مسئولاً عن كل شىء، كان يقود كل شىء وكان يسهل لنا كل شىء، وبفراقه انتقلت الأسرة إلى مصر الجديدة وأصبح المنزل والحديقة خاليين أمامنا أنا وإسماعيل، وكان إسماعيل يتحمل عبء الحفاظ على المنزل كما تركه والده، ولكن الحق هو كان إنسانًا غير عادى ولم يكن أى شخص بقادر على تعويضه.

● هل كنت تتمنين أن ترى ابنتاك جدهما يوسف السباعى؟

■■ طبعًا، كنت أريدهما أن ترياه، وأنا حزينة لأنهما لم تريا هذا الجد الجميل، كنت أتمنى أن تستمتعا بصحبته، وأنا متأكدة أن علاقتهما به كانت ستصبح ممتازة لأنى رأيت علاقته مع حفيده عبد الوهاب، لقد كان يدلله ويوجهه فى الوقت نفسه، وبنفس القوة.

● سألت إسماعيل عن موضوع تنمية القراءة لديهما، فقال إنهما تفضلان وسائل التكنولوجيا الحديثة عن قراءة أعمال جدهما. فهل هذا صحيح؟

■■ لقد قرأت لهما بعض الأعمال وأعجبتا به جداً وخصوصًا رواية «أرض النفاق» فقد انبهرتا به وتعجبتا كيف فكر فى هذه الفكرة الرائعة وأبدعها، وكذلك «نائب عزرائيل»، ولكنهما تختلفان طبعًا عن جيلنا حيث إننا قرأنا كل شىء كتبه هو.

ذكراه حاضرة.. باقية مهما طالت

● أشعر بأن ذكرى يوسف السباعى حاضرة عند الجميع، وليس عند أقربائه فقط، علام يدل ذلك؟

■■ يدل على أنه لا يزال يعيش بيننا، فأنا شخصيًا أحلم فى بعض الأحيان بأنه موجود وأن هذا الحادث لم يقع وأنه عاد ولا يزال يعيش بيننا، وأسعد جداً بالحلم وأعيشه وأستيقظ وأنا فى منتهى السعادة لأجد أن كل شىء كما هو فلا هو موجود ولا نحن سعداء.

أول من قذف بى من جيل الآباء إلى جيل الأجداد

فى روايــة لست وحدك كـتب يوسف السباعى إهداء لحفيده عبد الوهاب قال فيه:

«إلى أول من قذف بى من جيل الآباء إلى جيل الأجداد..

لعل جيله يحقق للبشرية من آمال الحرية والعدالة..

وأمانى الرخاء والسلام..

ما لم تستطع أجيالنا أن تحققه».

ما الذى قصده أديبنا السباعى بهذه العبارة؟! أغلب ظنى أنه قسم رغباته الإنسانية إلى نوعين، نوع خاص وآخر عام، واستطاع هو بدأب وعزيمة أن يحقق كمًا لا بأس به من الخطوات بلوغًا لهذا الأمل الخاص، ويبدو لى أن أمره لم يتوقف عند هذا الحد من الإنجاز، كانت لديه أحلام وآمال وطموحات وأهداف أخرى عامة تخص البشرية من حوله، وقد تحمل هو مهمة السعى لتحقيقها على كاهله، وأتصور أنه برغم التقدم نحو وضعها على رأس جدول طموحاته، إلا أنه شعر بتراجع معنوى لأن الأوضاع العالقة لم تسخر له المناخ الصحى والظروف المناسبة التى تلائم ما تمنى يقينه وما يتوافق مع قصده، كما أن الحياة لم تمهله عمرًا إضافيًا مستقطعًا من الزمن لتحسين الأداء أو لتحسين الأجواء، فأدرك هو بعد انتهاء الجولة



الأخيرة أن الحلبة لم تعد تسع جيله ولذا نجده قد أخلى المكان لهؤلاء المستجدين القادمين أملاً فى أن يحققوا للبشرية ما أراد هو أن يحققه ولم يستطع .

قرأت الإهداء بعد وفاته

● وسألت الحفيد عبد الوهاب الغندور . . هل كنت تعلم أنه أهداك رواية لك وحدك ؟

■■ لم أعلم بذلك إلا حينما قرأت الرواية بعد وفاته ، فأنا بدأت أقرأ له فى سن الخامسة عشرة من عمرى وقبل ذلك كنت أجلس إلى جواره أتأمله فقط وهو يكتب ، وأذكر أنى ذات مرة وجدته جالسًا فى حجرته ويكتب بسرعة رهيبة ، فسألته وكان عمرى وقتها تسع سنوات عما يفعل ، فقال لى إنه يكتب ، فسألته عن معنى ما يكتبه ، فقال لى إنه يضع نقاطًا على الورق تمهيدًا لكتابته بعد ذلك ، فأخذت منه ورقة وقلمًا وبدأت أنا الآخر أضع نقاطًا على الورق ، مجرد نقاط أتت على



أشكال هندسية لا معنى لها ولا مفهوم كى أقلده وليس هذا فقط بل كنت أضع نياشينه على ملابسى وأنزل بها السلم كأنى الخديو عبد الوهاب .

● وحين كبرت وأدركت قيمته الأدبية هل أقبلت على قراءته بمحض إرادتك أم تنافس معه أدباء آخرين للنيل من اهتمامك . . أنا هنا أسألك كقارئ بعيداً عن كونه جدك؟

■■ الحقيقة تنافس معه على وجدانى أستاذنا نجيب محفوظ فأنا أنسى نفسى تماماً فى روايته ولا أتركها إلا بعد أن أنهيها مرة ومرتين وثلاثة أما الكاتب إحسان عبد القدوس فلم أقرأ له أبداً وأعترف بذلك ولا أدرى السبب أيضاً كما لم أحب كتابات توفيق الحكيم وطه حسين ويجوز لأنهما كانوا مقررين علينا فى المدرسة وأنا طبيعتى كنت أكره المذاكرة . ولذلك ابتعدت عن روايتهم أما جدى فأنا قرأت كل أعماله وكنت أشعر أثناء قراءتى له أنه يخاطبنى فكتاباته مثل كلامه لا فرق وكثير من الجمل التى كان يضعها على لسان أبطاله هى من عباراته التى كان ينطقها هو شخصياً .

● أى نوع من الروايات تشعر بروحه جالسة إلى جوارك تتأملك وأنت تقرأ وتسعد حين تجدك منغمسا فى التفاصيل؟

■■ هو كان يملك نفس الروح الشفافة فى كل أعماله تقريبًا لم يكتب شيئًا من قبل غير نابع من روحه، هو موجود فى كل رواياته بكل أحزانه وأفراحه وهزائمه وانتصاراته وأفكاره ومعتقداته وإيمانه وحبه وتفاصيل حياته وعائلته ووالده، من يقرأ يستطيع أن يعرف كل لحظة مرت على حياته بدون أى جهد.

أحببته أكثر من أبى

● العلاقة بين الجد والحفيد علاقة من نوع خاص هى لقاء حميم بين الماضى والمستقبل، هى تبادل فى الأدوار ونستطيع أن نقول إنها بالنسبة للجد عودة إلى الخلف إلى الفطرة أما بالنسبة للحفيد فهى تقدم للأمام دفعة نحو النضج المبكر؟

■■ هذا صحيح مائة فى المائة كلٌ منا كان يبحث عن نصف حياته الآخر هو كان يبحث عن سنوات طفولته القديمة معى وأناكنت أتعجل الأيام معه كنت أحبه أكثر من أبى لأن والدى لم يكن يلعب دورًا مباشرًا فى حياتى إلا فى مرحلة متقدمة من عمرى أما جدى فكان يلعب كل الأدوار ما كان يقدمه لى لم يستطع أحد أن يقدمه لا أبى ولا حتى أمى والعطاء هنا ليس بمفهومه المادى وإنما بمفهومه المعنوى والذى هو فى نهاية الأمر أهم وأقيم وأغلى من كنوز الدنيا أذكر أنى كنت دائمًا أقول له إنى أمتلك عمارة وأنت تسكن أول دور فيها ثم أقسم بقية الأدوار على بقية أفراد العائلة لا أستطيع أن أصف لكى كم كان يعنى بالنسبة لى، كان أكثر من جد وأكثر من أب وأكثر من صديق، كان يجلس معى لا بهدف تسليتى وإنما ليندمج معى أكثر ولو سألتينى ما إذا كنت أستطيع أن أفعل الآن مع أى طفل ما كان يفعله معى بالطبع ستكون إجابتى مستحيل، فلا أحد يستطيع أن يمارس هذه المهمة بصفة مستمرة وبنفس ذات الحماس لابد وأن يصاب بالملل فى أى وقت، أما هو فلم يكن يصاب به كان يفعل أى شىء من أجلى وهو سعيد ومستمتع مثلى تمامًا وكأنه هو الذى يلعب لست أنا بمعنى إنه كان يلعب معى لا يلاعبنى وهناك فرق بين المعنيين كبير.



وفى بعض الأحيان كنت أقضى معه يوم الجمعة بأكمله كان عمرى وقتها حوالى ثمانى سنوات وغالبًا ما كنا نقضيه خارج البيت نتنزه معًا فى المقطم وطبعًا كانت هذه تسلية رجل كبير وقد لا يجد فيها الصغير أى شغف ومع ذلك كنت أنا ذلك الصغير الذى يهوى السير مع جده والذهاب معه إلى أماكن عمله ورؤية من يتعاملون معه والتعرف على وجهه الآخر المنشغل المسافر دائمًا لتكتمل صورته الإنسانية داخلى، كنت أعشق أن أقلده فى تصرفاته وفى طريقة كلامه وفى تعامله مع الآخرين تعلقى به لم يكن سهلاً وبسيطًا كان أكثر مما أعى هذه المقومات التى لمستها فيه لم أجدها فى أى شخص غيره ولا فى أبى ولا فى أمى، ومن هنا زاد حبى وتعلقى به لأنه كان يمثل لى الحياة بما فيها وبمن فيها.

صمته كان أكثر عقابا

● مع كل هذا الحب هل كنت تهابه أو بمعنى آخر ما الذى كان يغضبه منك؟ وكيف كان ثوابه وعقابه؟

■■ لم أشعر أبداً بالخوف منه حتى لو أخطأت كما أنه لم يحدث ذات مرة أنه عاقبنى بأى شكل من الأشكال التى أسمع عنها اليوم ولكن أذكر أنى ارتكبت حماقة فهددونى بأن يخبروه بها وتأثرت جداً بهذا التهديد لا شىء أكثر من إنى سأغضبه وبالتالى سأفقد حديثه وجلسته وصداقتنا معًا، كان أصعب عقاب عندى هو صمته معى.

● وما الذى حدث بعد ذلك هل أخبروه بما فعلت؟

■■ أتذكر أنهم أخبروه بالفعل، ولكنى لا أذكر جيداً ما الخطأ الذى ارتكبته واستدعى الأمر تبليغه به، ومع ذلك كان رد فعله غريبًا جداً، كنا وقتها نجلس فى صالون منزلنا بالمقطم، وكل ما فعله أنه حملنى وصعد إلى حجرته ووضعنى على الكنبة ونظر لى نظرة عتاب صامتة وهذه كانت كفيلة بإحراجى فلم يفعل أكثر من ذلك، وهذا على خلاف ردود أفعال والدى الذى لم يكن يظهر فى حياتى إلا عندما أرسب فى مادة مثلاً ويعاقبنى على أثر ذلك عقابًا شديداً ولا عقاب أقسى من حرمان الطفل من شىء يحبه، لذلك كنت أخاف منه وأراه رمزاً للغلاسة والعصبية وكثيراً ما تمنيت ألا أراه فى البيت عكس جدى يوسف الذى كان يدللنى ويصحبنى معه فى كل مكان وكان أبى يخشى من تدليل جدى لى.

ويضيف: ذات مرة كنا نجلس فى نادى السيارات بالإسكندرية، وفضلت الجلوس بجوار جدى عن الجلوس بجوار والدى، فتأثر أبى وكان وقتها يشغل منصب نائب وزير الاقتصاد، فقلت له مازحًا «يابابا أنت نائب وزير يعنى خدام الوزير، وجدو وزير، هل يعقل أن أترك الوزير وأجلس مع خدامه، فضحك الجميع إلا والدى»، وبرغم ذلك لم أكن أحب أن يملى علىّ جدى يوسف أى أوامر بحكم أنه وزير، وأعلنت له ذلك ذات يوم حين طلب منى مطلبًا وأمرنى أن أنفذه، فلم أسمع كلامه، فقال لى كيف ترفض أمراً لى وأنا جدك ورجل كبير ووزير،

فقلت له إننى سأسمع كلامك لأنك جدى وتحبنى ولكن ليس لأنك وزير، وفى الوقت نفسه كنت أتباهى به أمام الناس.

سرقت الأضواء منه

● معنى كلامك أنك كنت تستشعر مدى أهميته كشخصية عامة وذلك فى مرحلة مبكرة من عمرك؟

■■ الحقيقة أنا من النوع الذى تبهره الأضواء والشهرة على عكسه تمامًا، فهو لم يسع مطلقًا لها، فهى التى جاءته ودون سعى منه، فبالطبع استشعرت أهميته منذ أن كنت طفلاً صغيراً، وتحديداً حين كان وزيراً للثقافة كنت أرى كيف يستقبله الناس ويحتفون به ويقدرونه ويفسحون له الطريق فى كل مكان، حتى فى السيرك حيث ذهبنا ذات يوم وجلست بجواره كعادتى ورأيت الفرقة وهى تقدم عروضها لم تنزل من المسرح لتقف فى صف واحد وتحييه، وفى هذا اليوم تحديدًا أدركت أنه مهم وأن جوارى منه سيزيد من قيمتى أنا وأهميتى أنا أيضًا فيكون بمثابة أقصر الطرق إلى الشهرة والأضواء.

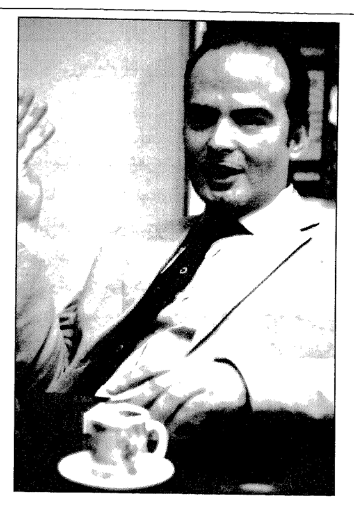
● ألم تأخذه مشاغله الوزارية منك؟

■■ لم أشعر بغيابه أبدًا لأننا كنا نعيش معه فى البيت نفسه، هذا غير أنى كنت أرافقه فى معظم تحركاته فى غير أوقات المدرسة بالطبع، لم أكن أفارقه فى وزارة الأعلام أو فى نادى القصة فى اتحاد الكتاب فى مبنى الأهرام لمشاهدة حجرات قسم الإعلانات الجديدة، كانت هذه هى تسليتى ومتعتى الوحيدة معه.

شدة الحزن أفقدتنى البكاء

● برحيله انقطع الحبل السرى الذى كان يجمعكما معًا، حدثنى كيف استقبلت الخبر؟

■■ شدة الحزن أفقدتنى البكاء، وقتها كنت فى المدرسة وخرجت منها إلى



الدرس، وحينما عدت علمت بالخبر ووجدت البيت يمتلئ بالناس، فعرفت أنه قد مات وكنت مدركًا تمامًا أنى لن أراه بعد ذلك، فانسحبت بهدوء وجلست فى حجرتى صامتًا لا أحدث أحدًا، ولم أشعر بالصدمة وقتها ولكن افتقدته فيما بعد، واجهت فكرة عدم وجوده فى حياتى، وكثيرًا ما كنت أشعر أنى أحتاج له فى حياتى، ولكن قدر الله وما شاء فعل، فقد استطاع والدى أن يملأ بعض فراغ حياتى فى هذه المرحلة تحديدًا، وشعرت بدوره الكبير، ولكن قبل هذه المرحلة كان جدى يملأ كل حياتى.

● وماذا كان حال العائلة؟

■■ جدتى كانت منهارة تمامًا ووالدتى كانت حزينة ولكن على شكل آخر الحقيقة بعد وفاته لم يكن هناك من يجمع العائلة بنفس الدرجة التى كان يفعلها هو ، لم يعد هناك من يحرص على اللمة على الجلسة على أن يسعد الجميع بوجوده من بعده تساوى الجميع وتزامنت الأوقات لم ينجح أيًا منا فى ملأ ذلك الفراغ الرهيب الذى تركه لنا ، هو فقط الذى كان يكسب الحياة طعمًا ومذاقًا رائعًا لم أر شخصا على وجه الأرض فعل ما فعله يوسف السباعى فى حياته ومع أسرته وبين الناس كان يجمل الدنيا يبسط حتى فكرة الموت .

لم أرث منه أى شىء

● هل لعبت الچينات الأدبية دوراً وراثيًا معك إضافة إلى المناخ الثقافى الذى كنت محاطًا به؟

■■ الحق أقول لم أرث منه أى شىء ، ذات مرة اعتقدت خطأ أنى ورثت منه موهبة الكتابة وبدأت بالفعل أكتب قصصًا عن مغامراتى وأنا صغير ولكنى أدركت فيما بعد أنها محاولات فاشلة من جانبى لا تقارن بأعماله أيضًا لا أرث منه الهدوء لأنى ورثت بكل أسف العصبية من والدى ، الحقيقة كان هدوءه بالغًا لا طالما سمعت حين كان يرأس مؤتمر التضامن الأفريقى الآسيوى عن المعارك التى كانت تشتد بين الدول وذات مرة حكى لى وأنا صغير بشكل مبسط حتى أفهم ما كان يقصده أنه فى يوم من أيام المؤتمرات دارت معركة كلامية فى تونس خلال جلسة واحدة استمرت لمدة ١٢ ساعة فاستأذن منهم دقيقة وعاد ومعه طبيب وأشار أن يعطى للطبيب كلمة وأكد لهم الطبيب أن العقل البشرى لا يمكنه التوصل لحل منطقى بعد ١٢ ساعة من العراك ونصحهم بالراحة والعودة للنقاش فى اليوم التالى ، فاستقبلوا الأمر بضحك وحلوا مشاكلهم فى اليوم التالى بهدوء .

الابتسامة زينة

● كل صور يوسف السباعى الفوتوغرافية ضاحكة باسمة، هل كانت الابتسامة سلاحه الوحيد فى مواجهة عبوس الدنيا من حوله؟

■■ أعتقد ذلك هو لم يكن يحمل ضغينة لأحد حتى من كانوا على خلاف معه، كان لا يملك إلا أن يحبهم، كان يقول الحب دواء شاف، فى الحب نتسامح، نغفر، نصفو، القلب المحب قلب سليم وصحى من يحب الآخر ينام وهو هادئ البال قرير العين.. وأقسم بالله أن هذا الرجل ذا القلب النقى الصافى المتسامح قد مات قريراً.. طيب الله ثراه وأكرم مثواه.

الحب نوع من الانفعال لا يصلح أساسًا للزواج

فى كتابها عن يوسف السباعى أهدت لروحه هذه الكلمات:

«يوسف السباعى.. النجم الذى أفل فى ذروة نوره

النهر الذى نضب فى قمة عطائه وفيضانه

والعمر الذى ذوى فى أوج اكتماله وذروته

خسارة لحقت بالأدب والفن والسياسة والثقافة

كان وزيرًا للثقافة فى أخريات أيامه

ولو جسدت الثقافة فى إنسان لكانت هى يوسف السباعى..

عقلاً وقلبًا وروحًا وعلمًا وسلوكًا وخلقًا

هذا هو الفارس النبيل الذى قضى وما انقضى

إليه.. إلى روحه العطرة وقلبه الوفى أهدى

نفحات من هذا العطر والعطاء والوفاء

إلى روح الفارس الجميل أهدى هذه الكلمات».

لوتس عبد الكريم. . إحدى صديقات السباعى الحميمات، كانت تراه نصيراً للمرأة ومؤيدًا لها . . ومن أولئك الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عنها ومساندتها فى كل المواجهات.



لوتس عبد الكريم

لم تكن بالنسبة له ملاكا رحيما ولا حتى شيطانا رجيما . . ولم يكن يتعامل معها على أساس أنها أنثى . . وإنما إنسان . . بنى آدم يحتاج إلى فهم وإدراك وتقدير ورعاية، لطالما حاول أن يحدد قيمتها فى الحياة، فإذ به يجدها أشبه بالوقود الذى يحرك الرجل، والذى يدفعه إلى الحركة وإلى الحياة والكائنات اللطيفة يختلفن كما يختلف الوقود .

فأنواع الوقود التى تحرك الآلات تختلف فى قدرتها وفى نوعها فهى تختلف بين بترول وفحم وخشب وبنزين أحمر وأبيض وزيت، وكذلك الكائنات الرقيقة يتفاوتن فى أنواعهن وفى تأثيرهن وقدرتهن على تحريك الآلات الآدمية، إذن الحياة لا يمكن أن تصبح حياة بدونهن فلو خلت الدنيا منهن، فستكون بلا لون وبلا طعم وبلا رائحة .

لقاء سكندرى ثم تزاور لندنى

● لوتس عبد الكريم، صاحبة الصالون الثقافى شموع، كانت من صديقات السباعى المقربات إلى قلبه وعائلته، ترى كيف تم اللقاء الأول بين الكاتب وسيدة الصالون اللذين اجتمعا على عشق الآداب والفنون؟

■■ بداية المعرفة جاءت عن طريق القراءة، قراءة أعماله، كانت هى الطريق إلى التعارف عليه وتحديداً من خلال مجلة «مسامرات الجيب» التى كان يكتب فيها بشكل دائم وساهمت فى نشر إنتاجه الأدبى، أتذكر فى هذا الوقت أننا كنا أنا وصديقاتى صغار السن، نرسم له صورة فى مخيلتنا وكانت الصورة أسطورية وكأنه أمير من القرون الوسطى، وهو كان هكذا بالفعل وحينما سمعنا أنه سيأتى إلى الإسكندرية ذهبنا أنا ومجموعة منهم إلى البوريڤاج ووقفنا على البحر كى نشاهده وهو يخرج من الفندق وعلى ما أذكر كان يرتدى ملابس الفرسان، طويلاً، وسيماً، يركب سيارة أمريكانى أعجبتنا شيكاته وهيئته الحالمة، كان أحلى وأجمل من الصورة التى رسمناها له وعلى الفور ذهبنا وصافحناه وقلنا له أننا نحبه ونعشق كتاباته فرحب بنا ودعانا إلى تناول بعض المشروبات، كان عمرى وقتها أنا وزملائى يتراوح بين ١٥ و١٧ سنة.

وتكمل: بعد ذلك تعارفنا عائليًا وكنا نزوره أنا وعائلتى فى مسكنه بمنشية البكرى ثم بعد ما تزوجت قابلته فى لندن حيث كان يعمل زوجى سفيراً هناك، وتصادف ذات مرة أن زار يوسف بيه وعائلته كلها إنجلترا وعلمت أنه موجود بالعاصمة يقضى فيها أجازة صيفية، فدعوته إلى بيتى وطبعًا تذكرنا أول لقاء وضحكنا عليه وصرنا أصدقاء منذ ذلك الوقت.

بعدها تبادلنا الزيارات العائلية، مرة أنا أدعى عندهم فى القاهرة ومرة هم عندى فى لندن، واختلطنا بشكل كبير لدرجة أننا كنا لا نفترق حتى مع بُعد المسافات، هكذا بدأت العلاقة من مجرد قارئة لكاتب كبير ثم تطورت لصداقة عائلية متينة.

لقد كانت سيارة السباعى تنتظرنى فى المطار فور وصولى وتصطحبنى إلى بيتهم قبل أن أذهب إلى منزل عائلتى، كانت العلاقة إلى هذه الدرجة من القرب والود،

أحببتهم جداً، وأحبونى، عرفت حقائق كثيرة فى حياتهم، كيف يعيشون ويتعاملون مع من حولهم، وكيف يربى يوسف بيه أولاده على الحب والإيمان والإرادة، كان بيتهم عشا للحب والتراحم والتلاحم، لم أر فى حياتى عائلة مترابطة كهذه العائلة والحقيقة يوسف السباعى كان أساس هذا الترابط وهذا العشق.

وتضيف: أحيانًا كنت أسأل السيدة دولت كيف لا تغار عليه وهو محط أنظار نساء الأرض فتقول لى إنها تعتبره يستحق أكثر من ذلك وأنها تعامله كابنها المدلل ويكفيها أن تراه سعيدا ومستريح البال، هى كانت أيضًا سيدة فاضلة وعاقلة ومتفهمة جداً لطبيعة عمله، فلم تكن تطلب الكثير، وتشعر برضا وهى تراه صباح كل نهار ومساء كل ليل يعطيها قدرها من الاحترام والحب، أما أولاده فكانوا يغارون عليه وتحديداً بيسا هى التى كانت تقوم بدور الزوجة الغيورة، التى ما أن تشعر أن هناك أى تجاوزات من قبل سين من المعجبات، إلا وتقف بقوة فى وجهها متنمرة، شاهرة كل أسلحة الدفاع عنه، وهى أيضًا كان يبادلها عشقًا بعشق، كنت أراهما يحتضنان بعضهما البعض متجاورين فى أرجوحة بالمنزل كالعشاق.

ولم أكن أندهش لذلك، فقد كان يوسف السباعى إنسانًا رائعًا، زوجًا مخلصًا، أبًا حنونًا، وصديقًا وفيًا.

رحلة عمره بين الواقع والأحلام

● كتب يومًا مقالا بعنوان «رحلة العمر بين الواقع والأحلام» قال فيه «بين الحين والحين يتوقف الإنسان لحظات عبر رحلة الحياة الراكضة اللاهثة ليلقى نظرة على لوحة حياته، وأنا فعلت كذلك فوجدت أن التجربة الأدبية والفكرية قد استأثرت برحلة عمرى ولم أندم يومًا، فقد سعدت بالمشاعر التى استدفأت بها من الناس فتلك المشاعر هى التى خلقت هذه العلاقة الروحية الخالصة بينى وبين قرائى الأحباء»، هل مقولته هذه دفعتك لأن تفكرين فى إصدار كتاب عنه ألم تخشين من المغامرة وهو الذى أفصح عما فى جعبته من تفاصيل مرت به حتى صار قصة مقروءة لكل من يتناول أعماله؟

■■ أنا كنت دائمًا أحب أن أكتب عنه، ولكن كانت تنقصنى شجاعة المبادرة، لذا عبرت عن ذلك تحديدًا فى مقدمة كتابى قلت : «أخيرًا استطعت أن أبدأ تقديم كتابى عن يوسف السباعى الذى مات»، فقبل أن يموت لم أفكر فى الكتابة عنه وهو معى فى كل لحظة، ولكن بعد أن استشهد، عزمت على الكتابة، ثم عدت وتراجعت مرة أخرى لأنى كنت رافضة فى قرارة نفسى أن أصدق أنه مات بالفعل ولن أراه مرة ثانية، هذا هو السر الذى اكتشفته فى نفسى، فأنا كتبت عنه بعد سنوات كثيرة لا أدرى عددها، والبداية كانت صعبة للغاية لأنه رحمه الله عليه كان بالنسبة لى يعنى الكثير والكثير، كان لى أب وأخ وصديق وأستاذ.

● هل كان له دور فى تنمية حبك للفكر والثقافة؟

■■ الحقيقة كان له دور غير مباشر مارسه معى دون أن يشعر فمن خلال تعلقى بأعماله وعشقى لأسلوبه وإيمانى بلغته، عزمت على خوض هذا المجال وصارحته ذات مرة أنى أرغب فى العمل بالصحافة، فسخر منى وقال لى إنى سيدة دبلوماسية وزوجة سفير ولا أصلح لهذا المجال ويفضل أن أبتعد عن متاعبه لأنى لن أتحمله.

وهو كان يتحدث معى من منطلق الخوف على مستقبلى مع أنه كان يستطيع ببساطة أن يوفر لى ما أتمناه فقد كان وقتها رئيس مجلس إدارة جريدة الأهرام، وكان يملك أن يضعنى حتى كمحررة تحت التمرين وبالذات فى قسم التحقيقات الخارجية لأنه كان يتلاءم مع ظروف إقامتى بالخارج، ومع ذلك رفض رفضًا باتًا أن يساعدنى وبعدها أدركت ما كان يرمى إليه.

اتهمت بعشقه

● فى إحدى القنوات الفضائية تم استضافتك ضمن فقرات برنامج كنت تتحدثين فيه عن يوسف السباعى الإنسان، وأذكر من بين الأسئلة أنه وجه لك اتهام بعشقه، حدثينى عن حيثيات هذا الاتهام المغرم؟

■■ لا أنكر أنى أحبه وأنى كنت شديدة التعلق به وكان هو متداخل فى حياتى

بصورة كبيرة جداً لدرجة أنه كان يسافر من مصر إلى لندن لزيارتى وأنا مريضة، تطلبين منى أن أجيب عن هذا الاتهام، أنا لن أدافع عن نفسى، فأى سيدة تتعرف على إنسان على شاكلة يوسف السباعى لابد وأنها تعشقه وأنا قلت إنه كان بالنسبة لى أب وأخ وأستاذ ومحور حياتى كلها، إذا كان هذا يسمى عشق، إذن فقد كنت عاشقة له.

مجلة لوتس الأدبية

● هل صحيح أنه هو الذى اختار اسم لوتس كعنوان لمجلته الشهرية التى كانت تصدر فى آخر أيامه؟

■■ صحيح هو أطلق اسمى على مجلته، فقد كان يلتقط اسماء معارفه ليختار من بينها اسماً يضعه على غلاف مجلته الشهرية وقال لى إن اسمى جميل وغريب ويصلح لأن يكون عنوان مجلة أدبية، وهذه المجلة كانت تقدم أعمالاً لأدباء آسيا وإفريقيا ومن خلالها اطلعنا على أسماء أدباء لم يخطر على بالنا أن نطلع على أدبهم، وهو الذى قربهم منا وعرفنا عليهم.

● وعودة إلى كتابك عنه، أى جانب من الجوانب تحدث فيه عن يوسف السباعى، خاصة أنه قد نشر عنه دراسات أدبية ونقدية تناولت أغلب جوانبه؟

■■ أنا تحدثت عن يوسف السباعى الإنسان الذى عرفته وعاشرته فأغلب الأعمال التى نشرت عنه تحدث عن أعماله وتناولتها بالنقد، لكن لم يكن هناك من اقترب منه بهذا الشكل الحميم الذى اقتربت منه أنا، ومن غيرى يستطيع أن يفصح عن جوانبه الإنسانية، أنا فى كتابى أذكر مواقف بعينها جمعت بينى وبينه، عن علاقتى الخاصة به ودوره فى حياتى عن تأثيره علىَّ، عن تفاصيل لا يعرفها أحد أقصها لأول مرة وأظن أنه من حقى أن أحتفى به على طريقتى.

صالون السباعى الثقافى

● ومن أين جاءت فكرة عمل صالون ثقافى يحمل اسمه ومن كانوا ضيوفه؟

■■ الفكرة بدأت منذ خمس سنوات، بعد أن مر على وفاته ٢٠ عامًا، فقد رحل عن دنيانا فى ١٨ فبراير ١٩٧٨، وهذا التاريخ يعنى لى الكثير، لأنه هو يماثل يوم عيد ميلاد ابنى لأنى ولدته فى يوم وفاة يوسف بيه وأذكر جيدًا هذا اليوم فقد شاهدت جنازته القومية من شباك سيارتى وأنا فى طريقى إلى المستشفى لألد ابنى الوحيد، وكان ذلك اليوم أيضًا يوافق احتفالات المولد النبوى، كان يومًا لا ينسى من تارخى وتاريخ مصر كلها.

وتضيف: وفى إحدى زياراتى لمنزل عائلة السباعى، عرضت عليهم فكرة عمل صالون ثقافى له، وكنت قد أقمت صالونات لأدباء كثيرين قبل ذلك وكرمتهم بما يليق بحجمهم الذى أثروا به الأدب، إذن كيف لى أن أكرم هؤلاء جميعًا وأنسى يوسف بيه، وزير ثقافة وإعلام مصر السابق، فلو أن الثقافة قد تجسدت لكانت هو نفسه كان هو الثقافة بكل جوانبها.

وللحق هم رحبوا جدًا بالفكرة وعزمت أنا على تحضيرها كما يليق به واستعنت بلميس بدران فى الإعداد وتوليت أنا عملية الاتصال بالضيوف من أقربائه وأصدقائه ومن عملوا معه، إضافة إلى عائلته وحضر الجميع وتحدثوا كما لم يتحدث أحد عن إنسان ومن بين الحضور كان الفنان أحمد مظهر والفنانة ماجدة والكاتب سعد الدين وهبة ومجموعة مختارة من الأدباء والنقاد الذين تحدثوا عنه حديثا رائعًا وشيقًا.

ليته يعود

● بعد مرور ربع قرن من الزمان على رحيله.. بماذا تشعرين الآن؟

■■ على المستوى العام افتقدنا كلنا الرجل السمح ذا الابتسامة الدائمة، الفنان الأصيل ذو الخلق العالى، صاحب التاريخ الطويل العريض من الفكر والفن والثقافة، صاحب الآراء الثورية.

كانت مصر محور حياته، حياته كلها سلسلة من الكفاح فى سبيل مصر أما على المستوى الشخصى، أفتقد القلب الحنون الذى كنت أبكى على كتفه كان يقول لى

ابكى يالوتس حتى تنتهى همومك ثم نجلس ونتكلم بهدوء، كان العقل الذى يضىء لى طريقى، نصائحه لا تزال ترن فى أذنى، أنا أفتقد نصائحه، إذ كان يفهمنى من نظرة، تصورى رغم رومانسيته، كان يقول لى إن الحب نوع من الانفعال لا يصلح للزواج، فأعجب وأقول له وكيف وكل قصصك وواياتك تتحدث عن الحب فيعود ويقول لا علاقة لك بذلك لايمكن أن أنساه مهما طال رحيله، فلا يزال أمامى بقامته المنيرة وابتسامته العريضة، وحواره العاقل المتزن، وكأنه يجيبنى بصوته الحنون لماذا ترفضين موتى؟ إنى فى راحة ما بعدها راحة. . وأما أنتم ففى شقاء ما بعده شقاء. . . . ياليته يعود.

وجه
الفارس
النبيـل

فارس الرومانسية

الفارس النبيل: يوسف السباعى

أهدى السطور الأولى من رواية «رد قلبى»

إلى زملاء الكفاح.. رفقاء الدرب

ثوار يوليو.. أبطال أكتوبر

إلى من تقاسمت معهم الهزيمة والنصر..

الحياة.. والموت

إلى سلاح الفرسان

بخيوله وعرباته ودباباته وجنوده وضباطه

وقواته وشهدائه ومحاربيه القدماء

إلى سلاح النصر أو الموت

أهدى قطعة من حياتى

أو حياة مصر.

بهذه السطور خطا النجم محمد رياض أولى خطوات رحلة الألف ميل المتجهة إلى قاعدة يوسف السباعى الأدبية الإنسانية، وقد بدأها رياض وهو فى سن صغيرة

برواية «رد قلبى» تحديداً، فهى أول إنتاج أدبى وقع فى غرامه ليوسف السباعى، صحيح أنه شغف بكل من إحسان ومحفوظ وإدريس، ولكن السباعى كان يحتل مكانة فى قلبه تختلف بعض الشىء، أو ربما تتجاوز حد الشغف لتستقر فى منطقة العشق.

لكم تمنى هذا القارئ الصغير أن يترجم هذا العشق إلى حب معلن، وجاءت فرصته على غير ميعاد، وهو العاشق المتيم للفنون وآدابها، فأسلم روحه لنداء الفن، وكانت التجربة الأولى الدرامية مسلسل «العائلة» ثم توالت التجارب. . لن أعيش فى جلباب أبى، امرأة من زمن الحب، وغيرها، وهو منتظر لحظة التلاقى الحميم مع أديبه المفضل إلى أن عرض عليه بطولة ذلك العمل الذى لمس شغاف قلبه . . «رد قلبى».

ولأنه من الفنانين القلائل الذين ينغمسون فى الشخصية إلى درجة المعايشة الكاملة صار هو وعلىّ بطل رواية «رد قلبى» روحًا واحدة، جسداً واحداً، لذا حصد نجاحًا فوق المتوقع وها هو يعود مرة أخرى إلى لحظة التلاقى الخالدة ولكن هذه المرة مع يوسف السباعى ذاته وجهًا لوجه فى مسلسل «فارس الرومانسية».

تعالوا معى نستحضر معه روح يوسف السباعى.

يوسف السباعى: قصة إغريقية

● يوسف السباعى قصة إغريقية لها مفرداتها وتفاصيلها وشخوصها وأحداثها. . حدثنى كيف استطعت أن تترجم مفرداتها إلى كلمات تنطق وتفاصيل تجرى وشخوص تتحرك وأحداث تتطور. . . ؟

■■ يوسف السباعى يتنفس فى كل سطر كتبه وهو حى، وموجود فى كل عمل سطره، من يقرأه يستطيع أن يقترب من كل تفاصيله بدون أى تحفظ فهو واضح ومباشر وصريح فى أعماله كما فى حياته، وقصصه ما هى إلا قطع من حياته، ومن لا يعرفه سيجده فى «رد قلبى». . الفارس النبيل المنتمى لوطنه، وفى نحن «لا نزرع الشوك» الابن البار بوالديه، وفى «بين أبو الريش وجنينة ناميش» الطفل اللماح



محمد رياض فى دور يوسف السباعى مع ممثل فى دور توفيق الحكيم

المدرك بما يدور فى العالم المحيط به، وفى «السقامات» الرجل المعتدل الزاهد فى الدنيا المؤمن بقضاء الله وقدره، هو كل هؤلاء.

ويكمل: أما كيف التحمت بالشخصية، فأنا من عشاقه أساسًا ولم يكن من الصعب علىّ أن أتزود ببعض المعلومات الإضافية عنه من خلال أقرب الناس إليه، عائلته الصغيرة وأصدقائه القدامى، فتفاصيل حياته تظهر بوضوح فى إنتاجه الأدبى، أما طباعه الشخصية وخصاله الإنسانية فكان يجب علىّ أن أبحث عنها فى عيون وقلوب من جاوروه وعايشوه وتعاملوا معه.

ومن الأشياء المدهشة التى وجدتها فى شخصيته ووقفت أمامها طويلاً هى طريقة تعامله الحانى مع الناس، فهذا الرجل كان يأخذ الناس من جانب واحد، ويتعامل معهم من خلال هذا الجانب، وهذا الجانب هو الطيب الخير فقط، رغم أن التركيبة

الإنسانية عمومًا ليست تركيبة خيرة بوجه عام بل فيها الخير والشر، وهو كان يفرض على من يتعامل معهم أن يظهروا أو يخرجوا أفضل ما فيهم، فرض ذلك حتى على الذين أساءوا إليه وهاجموه، عقيدته فى الحياة كانت معاملة البشر بالمحبة واللطف والتسامح مهما كان.

ويضيف: ولقد تحامل على نفسه كثيراً واحتمل هجمات عديدة من الكُتَّاب الشيوعيين واليساريين الذين وجهوا له الكثير من التهم على أنه جاسوس للسلطة، وأن أعماله ليست إلا أعمال محمد السباعى والده وتحايل هو ونسبها إلى نفسه وهكذا ظلم ظلمًا بيِّنا.

● هل تعتقد أن قيام هذا الظلم يعود إلى الخلاف المذهبى الذى كان بينه وبينهم؟

■■ بالفعل كان هناك خلاف مذهبى وهو اعترف به فى مقال من مقالاته فهم كانوا يعتبرون أدبه ليس أدبًا بمعناه المعروف وإنما نوع من الترف الفنى، ولأنهم كانوا يؤمنون بالواقعية فى هذه الفترة، فكانوا يرون ـ أو يعتبرون بمعنى أدق ـ ما يقدمه نوعًا من أنواع التغييب أى المساهمة فى تغييب المجتمع، وحصره فى مزيد من الغفلة والأوهام التى لا أساس لها من الصحة، حتى عندما قدم أدبًا واقعيًا كانوا ينسبون هذه الأعمال لوالده ناكرين عليه الاجتهاد والموهبة، عمومًا هو تعرض للنكران فى كل الأحوال وعلى كل شىء.

ويضيف: ويمكننا القول إن قربه الشديد من السلطة ضاعف من حجم هذا الهجوم، مع أن قربه هذا الذى يتهمونه به لم يكن تسلطًا أو تملقًا وإنما كان قربًا طبيعيًا لزملاء سلاح وثورة وحلم قومى، فقد كانت تربطه صداقات بكل أعضاء مجلس قيادة الثورة. ورؤساؤه أيضًا كانوا من دفعته، جمال عبد الناصر وأنور السادات، هو شاركهم المصير العسكرى والأمل الكبير فى الاستقلال.

فى كل العهود السياسية كان معتدلاً

● يوسف السباعى لم يكن من الضباط الأحرار، ومع ذلك عاش الثورة بكل تفاصيلها، ولم يكن ناصريًا ومع ذلك عاش النكسة بكل آلامها، ولم يكن ساداتيًا

ومع ذلك عاش النصر بكل أمجاده، هو فى كل العهود كان معتدلاً، ألم تتوقف عند ذلك؟

■■ الضباط الأحرار هم الذين كانوا يبعدونه عنهم، وأذكر أنه فى أحد المشاهد كان غاضبًا فيها من جمال عبد الناصر والضباط لأنهم لم يخبروه بشيء، وكانوا يعتبرونه مجرد ضيف شرف عليهم لأن عمه كان طه باشا السباعى وزير المالية وتقريبًا هو كان الوزير الدائم فى كل وزارات الملك، مع ذلك ورغم إبعاده المباشر والصريح كانوا يدركون مدى وطنيته وحبه بلده، فصلة القرابة الحيوية لم تجعل منه ابن قصور، بل تربى مثله مثل أى مواطن مصرى بسيط فى حى شعبى، وكان والده أديبًا مستنيرًا له فلسفة خاصة فى الحياة وأيديولوجياته من ضرورة التغير والإصلاح المجتمعى، ولكن مسألة وجود طه باشا فى الصورة وقربه العائلى له، جعل الضباط الأحرار يرفضون اقترانه بهم ويصرون على إبعاده عنهم.

ويكمل: أما حكاية اعتداله السياسى وعدم انتمائه لأى مذهب يمينى كان أو يسارى فهذه كانت إحدى ميزاته بل عبقرياته فهذا أحدث توازنًا جميلاً فى شخصيته وجعل منه ذلك الإنسان المتسامح المتصالح المتسق مع ذاته ومع الآخرين، حتى فى الفن لم تكن له مذاهب معينة، كان يحترم ويقدر كل المذاهب والاتجاهات حتى لو كانت على خلاف معه، حتى فى أدبه لم يسلك مذهبًا واحدًا وإنما اقتحم كل المذاهب الرومانسية والواقعية والاجتماعية والتاريخية، وهذا فى حد ذاته ذكاء وعبقرية يحسد عليهما.

● إذن فهو مصرى وطنى صرف غير منتم ولا منحاز لاتجاه ضد اتجاه، فقط يعنيه أن يحدث ما هو خير وصالح لمصر. . .

■■ بالضبط ولهذا استطاع بقوة وإيمان أن يكون موجودًا مع عبد الناصر ومع السادات، هذا بالإضافة إلى عسكريته والتى علمته كيف يكون الانتماء وكيف يكون الانضباط وماهية الإدارة الفعالة، لذا نجده استطاع بمهارة واقتدار أن ينشيء الكثير من المؤسسات الثقافية، إضافة إلى توليه العديد من المناصب الرسمية بنفس ذات المهارة والاقتدار.

● ألا ترى أن العسكرية كمنهج وحياة تخلق فى نفوس من يلتحقون بها نوعًا من الحزم والعنف والقسوة . . كيف استطاع السباعى أن ينجو بنفسه من هذه الصبغة الحادة ويحافظ على موروثاته الإنسانية الناعمة الرقيقة الهادئة؟

■■ لأنها طبيعته فى الأساس هو تربى على رقة الإحساس وهدوء الطبع، ومع ذلك كان حازمًا فى إدارته، وهناك فروق كبيرة بين الحزم والعنف والقسوة، أن يكون الإنسان حازمًا محددًا وجادًا فى عمله شىء، وأن يدير عمله بعنف وقسوة شىء آخر، فالحزم معناه الاحترام للعمل كشىء مقدس، ورسالة يجب أن تؤدى على أكمل وجه، وليس بالضرورة أن تصطبغ بالعنف والقسوة لأن النتائج لن تكون طيبة وقتها.

معسكر السباعى الدرامى

● لا شك أنك وضعت نفسك فى مناخ سباعى صرف منذ اللحظة الأولى التى حصلت فيها على السيناريو . . حدثنى عن معسكرك الذى خضعت له عدة أشهر قبل البدء فى المباراة الدرامية والتى ننتظر نتائجها النهائية بالمشاهدة؟

■■ مرحلة الإعداد استغرقت حوالى شهرين، فالعمل مر بمراحل كثيرة قبل ثلاث سنوات كان قد تم الاتفاق على تنفيذه، كما حدثت مشاكل إنتاجية عدة بسبب ارتفاع تكاليف المسلسل حتى وصل إلى شركة صوت القاهرة للتنفيذ ووقتها اتصل بى الأستاذ صفوت القشيرى وقال إنه قد تم ترشيحى لدور يوسف السباعى، ومنذ هذه اللحظة بدأنا فى جلسات العمل، وكنت وقتها قد قرأت كل أعماله الأدبية إضافة إلى قراءاتى القديمة له حتى تعرفت عليه جيدًا واقتربت من تفاصيله الأدبية أكثر فأكثر، ومن بعدها بدأت مرحلة أخرى خاصة بى تمكننى من أداء الشخصية كما أأمل وأحلم وهى مرحلة الاقتراب والجلوس مع كل من عاصروه ومعرفة كافة التفاصيل عن حياته الشخصية والإنسانية البعيدة عن الأضواء.

وساعدنى بشدة الأستاذ حسين رزق سكرتيره الشخصى الذى لازمه طوال حياته

حتى آخر سفر له إلى قبرص حيث اغتيل، واستمعت منه كثيراً عن يوسف السباعى الإنسان وكيف كان فى عمله ومعاملاته مع موظفيه، وهل كان يفرق بين حياته كأديب وحياته كمسئول إضافة إلى عاداته الخاصة ولزماته فى الحديث وطريقة إلقائه وردود أفعاله، وماذا كان يفرحه وما الذى كان يحزنه.

أيضًا أفادنى جدًا اللواء محمد السباعى ابن شقيقه وهو يشبه يوسف السباعى إلى حد كبير بشكل يجعلك تظنين أنك أمام يوسف السباعى شخصيًا، هو أيضًا حدثنى كثيراً عن خصاله وطباعه وعلاقاته بأفراد عائلته وأقربائه.

ويضيف: وطبعًا كنت أتمنى أن أجلس مع ابنه إسماعيل، كنت أتمنى أن أحصل منه على المزيد والمزيد عن إكسسوارات الشخصية وأن يسمح لى بالذهاب إلى فيلا المقطم لأتعرف على المكان الذى شهد أيامه ولياليه حتى كنت أتمنى أن أقضى بعض الوقت هناك، ولكن مع الأسف لم يسعفنى الحظ لأنه كان هناك مشكلات وقتها بين إسماعيل السباعى والشركة المنتجة، فقد كانت له بعض الملحوظات وكثير من الاعتراضات، وله الحق بالطبع فهذا والده، ولكن هذه المشكلات منعتنى أو بمعنى أصح لم تمكننى من الاستفادة منه بشىء.

ويكمل: أيضًا من الأشياء التى أفادتنى حقيقة أنى شاهدت كل أحاديثه وتسجيلاته التليفزيونية مشاهدات طويلة استمرت لأسابيع واستطعت أن أحصل على بعضًا منها لأدرسه فى البيت، وأنا بمفردى، وهذه التسجيلات الأرشيفية عرفتنى من هو يوسف السباعى الأديب والكاتب والمفكر والسياسى والإنسان ومن قبلهم الفارس النبيل، قربتنى أكثر من تفكيره وأسلوبه وطريقته فى إدارة الحياة وأزماتها، فدخلت البلاتوه وأنا مسلح بكل هذه المعلومات التحضيرية وبقى شىء مهم جداً وهو كيف أبدو قريبًا منه فى الملامح الشكلية، وبالطبع أخذت منا هذه المرحلة أوقاتًا كثيرة فى الماكياج وبذل الماكيير محسن فهمى جهداً غير عادى من خلال عدة محاولات حتى وصلنا إلى شكل أقرب ما يكون إلى الحقيقة من خلال بعض المواد القيمة التى أحضرناها من الخارج خصيصًا لهذا.

وبعد أن نجحنا فى عمل الشكل الخارجى بقى لى أن أجتهد فى عمل الشكل الداخلى والذى حاولت بكل حماس وإيمان وإرادة وعزم أن يكون أقرب ما يكون إلى روحه.

● فن المحاكاة إحساس يتحول إلى أداء يتحول إلى واقع حقيقى.. متى شعرت أنك انفصلت عن محمد رياض تمامًا وأصبحت يوسف السباعى بشحمه ولحمه وروحه وإحساسه؟

■■ كل المراحل التحضيرية من قراءات واطلاعات وجلسات ومشاهدات كانت عبارة عن تمهيد لما سيحدث بعد ذلك، كل هذا تراكم بداخلى وكان ينتظر لحظة الانفجار القصوى، والحقيقة أنا لا أستطيع بناء أدائى على الإحساس فقط فى أى عمل من الأعمال، بل يجب أن يكون هناك فهم عميق للشخصية وكل ما سبق حاولت من خلاله أن أقترب من فهم الشخصية وملابساتها لكى أستطيع أن أؤديها بشكل سليم وعميق، فأنا فى كل مشهد كنت أقترب أكثر فأكثر، المسألة جاءت بالتدريج دون استعجال لأنى هنا أدرب روحى وليس أدائى، أنغمس ولا أمثل، أعيش لا أتعايش، فهذا يعطينى الصدق مع نفسى أكثر وبالتالى ينعكس هذا الصدق على من يشاهدوننى.

فى كل مشهد قمت به حاولت أن أؤديه من وجهة نظر السباعى وليست وجهة نظرى أنا، كما حاولت أن أستبقى بشاشته التى كانت معروفة عنه، فهو كان دائم الابتسام والود والترحاب، كان يعالج المواقف الصعبة بنفس هادئة وسلسلة وغير معقدة، وبالطبع كان يثور وينفعل فى كثير من الأحيان كأى إنسان طبيعى ولكن السمات التى كانت دائمًا غالبة عليه هى الابتسامة والبساطة والمرونة فى وجه أى مستجد سواء كان أمرًا خطيرًا أو بسيطًا، كان بابه مفتوحًا فى كل وقت ولكل إنسان.

● هل كانت له لازمة فى كل كلامه أو عادة أو تقليد معين أو أى شىء من هذا القبيل؟

■■ فى اللحظة الأولى التى يقع فيها بصره على إنسان يقول «أهلاً»، وهذه الكلمة هى المشهورة فى كل الأوقات والمناسبات فى الاستقبال والوادع، هذا إلى جانب فكاهته، فدائمًا كان يمزح مع البسطاء، هذه الروح المرحة حاولت كثيراً إدخالها فى المشاهد المختلفة كلما سمحت الظروف دون أية مبالغة.

من ورود الأدب إلى أشواك السياسة

● السباعى كانت له سمات الفراشات، ناعم، رقيق وسريع الانتقال من زهرة الأدب إلى زهرة الصحافة إلى الثقافة والفنون ثم السياسة.. هذه التنقلات المكوكية هل تم توظيفها دراميًا، وهل أخذت كل مرحلة حقها فى السرد؟

■■ الحلقات تتحدث عن سيرته الذاتية من مولده إلى اغتياله فى قبرص بمعنى أنها تتعرض لمراحل حياته تفصيليًا ودراسته وكليته وارتباطه بأبنائه وزوجته ومناصبه المختلفة ومعاركه ومواقفه، وذلك ضمن أحداث ٣٠ حلقة أظهر أنا فيها بدءاً من الحلقة الرابعة.

ويكمل: كل مرحلة أخذت حقها من السرد، فالمسلسل يعرض فى حوالى ٢٠ ساعة والحلقات أعطت له حقه كأديب وصحفى وسياسى وإنسان فى المقام الأول، وأذكر أنه قال فى أحد أحاديثه الصحفية حين سئل عن الفرق بين الصحفى والأديب فقال: إنه لو أننا أرسلنا أديبًا وصحفيًا لتغطية حدث معين فسنجد أن الصحفى سيأتى بالموضوع كاملاً بكل تفاصيله فى اليوم التالى فى حين لن يفعل الأديب المثل، وربما سيجتر الموضوع بعد عام من حدوثه وذلك لأن الصحفى له عين فوتوغرافية تلتقط كل شىء بسرعة، أما الأديب فعينه تختزن الحدث وقد تعبر عنه بطريقتها الأدبية الصرفة بعد فترة من الزمان. وقد استطاع يوسف السباعى أن يحقق هذا الفصل، فنجح كصحفى مثلما برع كأديب.

● وماذا عن أدائك أنت، هل تطور بتطور المراحل؟

■■ بالطبع ففى بداية مرحلة التلمذة كنت خجولا، منطويا بعض الشىء لدىَّ أحلام مكبوتة تنتظر فك الحصار، ثم حين دخلت فى منطقة الأدب صرت أعُبر عما

يجول فى خاطرى من أفكار وأتحرر من كل أحزانى بالكتابة وتطورت شخصيتى الدرامية بعد أن دخلت فى الوسط الثقافى من نادى القصة إلى مجلس الآداب والفنون إلى اتحاد الكتاب ووصلت إلى درجة النضوج بكرسى الوزارة ، ثم أخذت طوراً بطوليًا آخر حين عملت بالسياسة داخل منظمة التضامن الأفريقى الآسيوى، ولكن الذى أحب أن أوضحه أن يوسف السباعى كإنسان لم يتغير بتغير وتعدد هذه المجالات بل ظل كما هو لطيف المعشر، عالى الخلق، كثير التواضع، قليل الظهور، خجول الطباع.

● وماذا عن الخلافات التى صاحبت العمل، هل أثرت على سيره، وهل تم الوصول إلى حل يرضى جميع الأطراف أقصد بذلك مؤلفة العمل د. أميرة أبو الفتوح وعائلة السباعى المتمثلة فى إسماعيل ابنه؟

■■ لم تكن خلافات جوهرية بالمعنى الكامل، كل الذى حدث أن ابنه إسماعيل، لم يكن قد قرأ الحلقات كاملة، فاعتقد خطأ أن هناك أحداثًا غير مفهومة يمكن أن تُسىء ليوسف السباعى، وهذا بالطبع ليس مجردًا على الإطلاق، فنحن نتعرض لشخصه لأننا نحبه ونحترمه ونقدره ونفتخر به جميعًا ولم يكن هناك شىء فى تاريخ يوسف السباعى يمكن أن يُتخذ ضده، الرجل كان حسن السير والسلوك، ومثالا للشرف والأمانة والكبرياء، وقدوة للأجيال جميعًا ونموذجًا مصريًا يحتذى به والحمد لله تم حل جميع الخلافات فى جلسة ودية ضمت كل الأطراف.

● هل تم حذف أو إضافة أو تعديل لأى مرحلة من المراحل؟

■■ إطلاقًا لم تكن هناك ملحوظات بشكل كبير وفى النهاية كل شىء فى صالح العمل، واختلاف الرأى لا يفسد للود قضية.

● وماذا عنك، هل كانت لك ملحوظات معينة وإضافات خاصة بك كممثل فى ناحية الأداء أو التناول؟

■■ أنا حاولت الاتفاق مع المخرج على إدخال روح الفكاهة التى تميز بها أديبنا،

كما عرضت عليه إدخال بعض التفاصيل الخاصة للشخصية حتى تبدو صورة طبق الأصل للحقيقة .

بطاقة تعارف للسباعى

● تعلم جيداً أن للممثل عينا وللكاتب عينا ثانية وللمخرج عينا ثالثة وللمصور عينا رابعة ، هل التحمت كل هذه العيون لتصبح عدسة واحدة متسلطة على يوسف السباعى ؟

■■ بالطبع التحمت وتكاثفت ومن الأمانة أن أقول إن العين الأساسية هنا هى عين المخرج ، لأنه هو مايسترو العمل المسئول عن تنفيذه على أكمل وجه ، الحقيقة كل عيوننا التحمت فى عدسة واحدة هى عدسة المخرج الحساس صفوت القشيرى ، وكم أتمنى أن تستقبل عيون المشاهدين فارس الرومانسية بكل احتفاء وترحاب .

● العمل المتقن هو عمل جماعى وليس فرديا ، ومن هنا أسألك عن بقية العناصر المشاركة فى العمل ، هل تم اختيارها بدقة؟

■■ إلى حد كبير فوالد يوسف السباعى ، الكاتب محمد السباعى يلعب دوره الفنان محمود الجندى ، والأم عائشة المصرى تلعب دورها الفنانة نهال عنبر ، وعم يوسف السباعى وهو طه باشا السباعى يلعب دوره الفنان أحمد خليل ، وزوجة السباعى وهى مدام دولت ، تعلب دورها النجمة رانيا فريد شوقى ، وأيضًا شقيقه محمود يلعب دوره النجم أحمد شاكر عبد اللطيف ، والأهم من ذلك بقية الشخصيات المؤثرة فى حياة يوسف السباعى يلعب أدوارهم أبطال تليفزيونيين موهوبين كشخصية السادات وتوفيق الحكيم والشرقاوى ونجيب محفوظ وإحسان ، وهناك أيضًا شخصيات أدبية وفنية كثيرة جداً مثل الفنانة نجاة وعز الدين ذو الفقار وصلاح ذو الفقار وأحمد مظهر وغيرهم كثيرون ، وظهورهم فى الحلقات مبنى على أسس سليمة ومنطقية وبشكل فيه راحة وطبيعية .

● مصر الخمسينات والستينات والسبعينات تعرف من هو يوسف السباعى

تمامًا ولكن الجيل الجديد، جيل الألفية الثالثة لا يعرفه حق المعرفة، هل هذا العمل الدرامى بمثابة بطاقة تعارف جديدة لمن لا يدرك بعمق قيمته من شباب المستقبل؟

■■ بكل تأكيد، فيوسف السباعى من الأدباء المعروفين والمحبوبين على مستوى العالم العربى وأذكر حين كنت بالسعودية مؤخرًا، وجدت من يتحدثون عنه بفخر واعتزاز، ويعرفون كل أعماله ويقتنون كل إنتاجه، ورغم ذلك هناك الكثير ممن لا يعرفه وخاصة الجيل الجديد من الشباب، وهناك الكثير أيضًا ممن يعرفونه فقط من خلال روائعه السينمائية، أما القراءة كهواية بالنسبة للجيل الحالى جيل الفضائيات والانترنت فلم تعد تلقى الاهتمام الذى كانت تلقاه فى الأجيال السابقة، لذلك فعلاقة هذا الجيل بيوسف السباعى من خلال القراءة ضعيفة جدًا فسيكون المسلسل بإذن الله بمثابة بطاقة تعارف قوية جدًا لشخصيته الأدبية والإنسانية المؤثرة فى تاريخنا بدرجة كبيرة جدًا.

فارس الرومانسية

● ألا ترى أن اسم المسلسل «فارس الرومانسية» فيه نوع من الإجحاف لشخص السباعى وتاريخه المتنوع فهو مسمى ضيق الأفق يحصر أديبنا فى نطاق واحد وهو صاحب المجالات المتعددة والطاقات الشاملة؟

■■ أنا معك تمامًا وبالمناسبة عنوان المسلسل ليس هو المسلسل، فكل من يعرض عليه اسم المسلسل يظن أننا نتعرض للجانب الرومانسى فى حياته وكتاباته وهذا ليس صحيحًا، لأن السباعى كان كاتب واقعى من المقام الأول، أيضًا هو لا يحكى عن قصة حبه وإنما يعرضها ضمن أحداث حياته المختلفة ولكنها ليست الأساس، ولأنه اسم اشتهر به من خلال أعماله السينمائية ذات الطابع الرومانسى الصرف (إنى راحلة، بين الأطلال، رد قلبى)، المسلسل يتعرض لنموذج يوسف السباعى بكل جوانبه وطاقاته ومجالاته المختلفة وأظن أيضًا أنه يرد كل اتهام أُتهم به يومًا ما.

● وأنت هل تعتبر مسلسل «فارس الرومانسية» ملفًا جديدًا فى تاريخ خدمتك سيضاف إليك أو بمعنى أدق يضاف إلى أسهمك الدرامية؟

■■ إن شاء الله سيكون إضافة لمحمد رياض وأتمنى من الله أن ينجح العمل، لأنى تعبت فيه جدًا وبذلت مجهودا كبيرا وأتمنى بالفعل أن يكون إضافة لى فى تاريخى الفنى فالاجتهاد كان متوفرا والتعاون من الجميع كان متوفرا أيضًا وموجودا بشكل كبير وأتمنى من كل قلبى أن يُترجم هذا الاجتهاد وهذا التعاون من جانبنا جميعًا إلى فعل إيجابى عن طريق الوصول إلى نسبة مشاهدة عالية ويلقى القبول عند الناس.

ختام

بصقة على دنياكم

أيها التعساء ليس فى الدنيا ما يستحق العناء،
كلنا إلى التراب نصير وإلى السماء نطير.

المدخـــل

هكذا كان يؤمن يوسف السباعى أن الدنيا زخارف خادعة بالليل ومصابيح عمياء بالنهار، ستار تمثيل حقير فى ذاته، وما نراه من جمال وروعة فإنه باطل من تزوير الليل وخدعة من تمويه الصباح، لذا قرر يوسف السباعى فى إحدى قصصه القصيرة أن يعلن عن وفاته المفاجئة فينعى نفسه ويكرمها إن أمكن مع تقديم كشف حساب أمين بما كان له وما كان عليه بيده لا بيد عمرو، فكتب يقول «إنى أود أن أكرم نفسى وهى على قيد الحياة، فلشد ما أخشى ألا يكرمنى أحد إلا بعد الوفاة، نحن شعب يحب الموتى ولا يرى مزايا الأحياء حتى يستقروا إلى باطن الأرض، ما حاجتى إلى تقدير الأحياء وأنا بين الأموات، ما حاجتى إلى أن يذكروننى فى الدنيا وأنا فى الآخرة، يمجدوننى فى الأرض وأنا فى السماء، إذا مت فشيعونى بألف لعنة، واحملوا كتبى واحرقوها فوق قبرى واكتبوا عليها (هنا يرقد أكبر حمار أضاع عمره فى لغو وهزر)، إنى لاشك رابح كاسب لقد سمعت

مديحكم وأنا حى محتاج إليكم وصممت أذنى عن سبابكم وأنا ميت، أعاننى الله عنكم وعن دنياكم».

(«أرض النفاق» ١٩٤٩)

بداية القصة: بصقة على دنياكم

بصقة على دنياكم . . وهل تستحق سوى بصقة؟ بصقة على دنياكم أيها التعساء المساكين المتخبطين فى حلكاتها، الضالون فى دياجيرها، المتعللون بباطلها وسرابها، بصقة على دنياكم فإنى مغادرها غير آسف ولا نادم، بعد لحظات سألقى عن كاهلى أعباءها، وسأحرر نفسى من قيودها وأغلالها، وسأغمض عينى فلا يقع بصرى على شرورها ومساوئها.

بصقة على دنياكم . . من إنسان قد خرج من نطاق وأنقذ من نيرها، إنسان على وشك الرحيل، إنسان هو والعدم سواء، إنسان ميت، بينى وبين الموت خطوة سأخطوها إليه أو يخطوها إلىَّ، فما أظن فى جسدى الواهن بقية رمق تعينه حتى إلى الموت، بعد لحظات سيطوينى الموت بين أحضانه، أيها الموت العزيز اقترب إلى خطواتك الأخيرة فقد طالت عليك لهفتى وازداد إليك حنينى، خطواتك فيها الشفاء ومنها الدواء، ولكن لا تمهل برهة . . إن لى مع هؤلاء التعساء حديثًا، فياأيها الأحياء انصتوا إلى حديث ميت . .

لنبدأ الحديث من البداية، ولنعد عشرات الأعوام حيث وقفت فى أول الدرج أتطلع ببصرى إلى سلم الحياة الطويل الممتد، لا تكاد العين تبلغ مداه، هل رأى أحدكم مشرق الشمس، هل وقف أحدكم ذات مرة فى روضة غناء ليتطلع ببصره إلى الأفق البعيد وقد صبغته الشمس بلونها الذهبى، هل رأى كيف يبدو منظر الأشجار البعيدة، وقد تخللتها الأشعة الذهبية الحمراء فأبدتها مضيئة مشتعلة كبارقات الأمل، وصنعت منها منظراً خلابًا مليئًا بالروعة والجمال، ثم هل حاول أن يسير ليبلغ ذلك المنظر الرائع الفاتن ويلمس ما فيه من فتنة ويرى ما شع من ضياء، ألم تصبه خيبة وحسرة وهو يرى نفسه لا يكاد يبلغ تلك الأشجار التى كانت

تبدو وكأنها رءوس براكين مشتعلة حتى يجدها كغيرها من الأشجار متربة مظلة لا شعاع فيها ولا ضياء ثم ينظر أمامه ليرى المنظر قد تجدد وبدت له أشجار أخرى من على بعد وقد سلطت عليها الشمس أشعتها فكستها نفس الحلة السحرية فيحاول أن يقترب ثانية فلا يكاد يصل إليها حتى يجدها كالسابقة، وهكذا تبدو أمامه المناظر رائعة على بعد، فإذا ما اقترب منها وحل فيها تبدد كل ما بها من سحر وروعة.

لقد بدت لي الحياة وقتذاك وأنا أقف في أول الطريق كما تبدو لنا المناظر وقد سطعت وراءها أشعة الشمس. . شمس الأمل ساحرة فاتنة، مضيئة مشتعلة، تدعونى إلى التقدم وتحفزنى على المسير، لا أكاد أبلغها حتى أجدها خابية مظلمة، أجدها لا شيء، لا تستحق ذلك الجهد الذى بذلته في الوصول إليه، وأنظر أمامى فأجد الأشعة لازالت تسطع ويتجدد المنظر المغرى الذى يدعونى إلى السير فأظل أتقدم وأتقدم مادام هناك شعاع من أمل يسطع ويحمل إلينا الأشياء ويغرينا بالوصول إليها، وتقطع الطريق حتى نبلغ النهاية فلا نجد فى كل ما بلغناه شيئًا يستحق وعثاء السفر، وترى شمس الأمل قد غربت وشعاع الرجاء قد انطفأ فإذا بنا فى حلكة شاملة ودياجير معتمة، وإذا بنا قد وصلنا إلى النهاية صفر الأيادى منهكى الأجساد محطمى الأعصاب، واهنى القوى، نسأل أنفسنا ماذا أخذنا من الحياة ولماذا عشنا فلا نجيب بأكثر من لا شيء، ولا نملك إلا أن نخرج منها مطأطئى الرءوس محنى الهامات منشدين مع القائل: «وكل ما تقضى من الأمور تعلة من يومنا المذكور ومتعة من متع الغرور».

دنيا جميلة

كان أول تلك المناظر الخلابة المضيئة التى وقع عليها بصرى فى طريق الحياة منظراً ملأ نفسى الصغيرة نشوة، وأفعم قلبى الصبى طربًا، منظراً نقشت صورته فى ذهنى من فرط ما أحدث فىّ من تأثير، منظراً براقًا خلابًا أحاطه الضوء وسطعت من خلفه الأشعة الذهبية، فخلف فى نفسى أثراً عميقًا ولم أكن أتمنى وقتذاك شيئًا غير أن أبلغه، ولقد خاب أملى، لا لأنى لم أبلغه بل لأنى قد بلغته وشتان بين المنظر عندما رأيته وعندما بلغته.

ولنبدأ وصفه أولاً عندما رأيته ، كان ذلك منذ عشرين عامًا أو قريبًا منها ، وكنا نقطن فى جنينة ناميش ، وكان يومذاك موعد افتتاح البرلمان وقد خرجت مع بعض الصبية لمشاهدة الموكب وهو يمر بميدان الإسماعيلية ، ووقفت بين الصفوف المتراصة ، المحتشدة وقد تكأكأ الناس من حولى وأخذت أجاهد حتى أتخذ لنفسى بينهم موقفًا يمكننى من رؤية الموكب فى مروره ، وكان الطريق قد خلا تمامًا إلا من بعض الجنود يروحون ويغدون أمام الصفوف ليمنعوا تسلل المارة من رصيف لآخر ، ووقف جنود الجيش بملابسهم الكاكية ، ووجوههم السمراء وطرابيشهم الحمراء مصطفين على طول الطريق وقد تعالت أصوات ضباطهم بالنداءات العسكرية التى ترتفع معها الأسلحة على أكتاف الجند ثم تهبط مرة أخرى وكأنهم يشتغلون بالزمبلك .

وساد السكون وتعالت الهمسات من حولى ، إن الموكب قد بدأ ، وبعد برهة بدأت بشائر الموكب تظهر من صفافير وموتوسيكلات وعربات قد حملت كبار ضباط البوليس بملابسهم السوداء ، وبعد لحظات بدأ الموكب فى الظهور فعلاً وقد بدأت فى طلائعه شلة من فرسان البوليس ، ثم بدأ بعدها المنظر الفاتن الخلاب الذى أثمل رأسى الصغير ، وخلف فى نفسى أملا ظل يداعبها فى الكرى واليقظة وحلمًا كم تمنيت طوال السنين المتتالية لو تجسد فسار حقيقة ، أبصرت فرسان الحرس وقد تقدمتهم الكوكبة الأولى من الخيول الزرقاء وعلى رأسهم ضابط قد علا صهوة جواده الأشهب المرفوع الرأس المتين البنيان الملفوف الجسد البارز عضلات الصدر والساقين ، وقد أرهف أذنيه وتفتحت خياشيمه وأخذ يتوثب فى ثقة واعتداد ويمشى على الأرض كأنه سيخرق الأرض ويرفع هامته كأنه سيبلغ الجبال طولاً .

ونظرت إلى راكبه المستقيم الجسد ، الصلب العود ، البارز الصدر ، الممشوق القوام ، الجميل الطقاطيع ، الجذاب الملامح ، وقد ارتدى حلته الزرقاء ذات الصدر الأحمر المحلى بكردون مجدول من القصب المذهب البراق ، وامتدت ساقه مستقيمة ملتصقة بجسد الحصان بحذائها الطويل الأسود اللامع ، وبدا هو وجواده وكأنهما قطعة واحدة .

ولمحت النساء فى النوافذ يتغامزن ويبتسمن والفارس فى طريقه لا ينظر إليهن ولا يأبه لهن، وبدا لى كأنه إله وملأنى إعجاب شديد به وتمنيت أن أكون مثله فى يوم من الأيام وتخيلت نفسى فى حلته المزركشة وعلى جواده الأشهب، ترمقنى الأنظار بالإعجاب وتتمنى الحسان منى ابتسامة، فأبخل بها عليهن، وانطبع المنظر الفتان فى ذهنى والمنظر الذى تلألأت وراءه أشعة الأمل فأحاطته بهالة ذهبية ملأته روعة وأضفت عليه جمالاً على جماله.

ومنذ ذلك اليوم ولم تعد لى أمنية فى الحياة سوى أن أبلغه.. أجل لقد جعلت من الفارس مثلاً أعلى، وأخذت أجد فى السير وهو يلوح أمامى فى أفق الحياة بجماله وروعته تمامًا كما يلوح لنا منظر الأفكار فى الأفق وقد بدت وراءها أشعة الشمس.

وقفت فى أول الطريق والأمانى تداعب نفسى وتدعونى إلى السير حتى أبلغ المنظر، فما كان هناك شىء يجذبنى مثله، ولو خيرت وقتذاك بين أن أكون إلهًا أو أن أكون ذلك الفارس لفضلت أن أكون الأخير.

ولست أشك فى أنه ما من إنسان إلا وجذبه فى أفق الحياة منظر أيًا كان، وما من إنسان إلا وكان له مثله الأعلى الذى يتمنى الوصول إليه، ولكن الذى أشك فيه كثيراً هو أن كل إنسان يبلغ ذلك المنظر أو يستطيع الوصول إلى المثل الذى يتمنى فإنه لا يكاد يبدأ السير حتى يضل فى دروب الحياة ويصطدم بعقبات الطريق فتحجب عنه المنظر الفاتن وتبدو له منظراً غيره وتنسيه مثله الأعلى فيستبد له بمثل ثان وثالث، ولكنى كنت من نوع محظوظ فلقد أخذت أجد فى السير باتجاه المنظر الخلاّب والمثل الأعلى، ولست أزعم أنى لم أضل فى دروب الحياة أو لم تصادفنى العقبات والمواقع، لقد احتوتنى مسالك الطريق، وأجهدتنى عقباته، ولكنى وجدت فى النهاية أنى قد وصلت وإذا بى أقف فى المنظر الفاتن وإذا بالمثل الأعلى ملء يدى.. أجل لقد بلغت أملى، أما كيف بلغته فهذا حديث طويل لا أظن المجال مجاله ولا المقام مقامه ولكنى بلغته وكفى.

لقد مرت بى الأيام والسنون فإذا بالأمانى قد تجسمت وإذا بالأحلام قد أضحت

حقائق ملموسة، وإذا بالمنظر الخلاب الذى كان يبدو فى الأفق قد احتوانى وإذا بى أنا نفسى قد أضحيت ذلك الفارس الذى أبصرته منذ عشرات السنين، ترى كيف وجدت المنظر الفاتن عندما بلغته، وكيف وجدت الفارس عندما أصبحته؟ وجدته بجانب الوجاهة، والوسامة والشموخ والكبرياء مسئولاً مسئولية كاملة عن تشطيف الخيل ودهانها بالحجر الأبيض وتوليف القوالب والأحذية وتفتيش الملابس ونظافة السروج وتفريض الجنود وترويض القومندان، كل ذلك مر فى ذهنى مرور البرق وأنا أتقدم بالفعل موكب الفرسان، لقد تحقق المنظر الذهبى الفاتن الذى أبصرته ذات يوم، ولمحت بين الصفوف وجه طفل صغير وقد تعلق بصره بى وبدت عليه أبلغ آيات الإعجاب فتذكرت نفسى منذ عشرات السنين وعرفت كيف أبدو أمام الطفل وقد أحاطنى بهالة ذهبية من آماله المضيئة، وددت لو همست إلى ذلك الطفل وقلت له «ليتك تعلم. . لقد كنت مثلك لا أعلم، إن مكانك أفضل أيها الصغير، مكانك بين الجماهير تنظر إلى المناظر الخلابة عن بعد إياك أن تقربها وإلا ذهب عنها كل السحر وكل الروعة، وددت لو قلت له ذلك لكنى لم أقل، وددت لو اتعظت أنا نفسى بنفسى ففهمت الحياة وركلتها بقدمى وعشت فيها محتقراً إياها زاهداً فيها لا أجهد نفسى فى الوصول إلى شىء فهى فارغة وخاوية وما من شىء فيها يستحق الجهد، ولكنى لم أدرك ذلك بل خيل إلىّ وقتذاك أنى قد أخطأت فى اختيار المثل الأعلى وأنى تعلقت بقشور المظاهر وخلبنى بريقها ولآلئها وأنه كان من الخير أن أكون رجل فكر من أن أكون رجل مظهر وأنه يجب علىّ أن أحيد عن الطريق الذى سلكته وأن أتخذ لى مثلاً آخر غير ذلك المثل الأجوف الذى اتخذته، مثلاً جميل الباطن، لا براق الظاهر، مثلاً سليم اللب متين الجوهر لا مثلاً من هذه التماثيل الجميلة الزائفة.

هكذا بدأت أنحرف عن طريقى وبدا لى فى أفق الحياة منظراً جديداً بعد أن خبا سحر المنظر الأول وأضحى مظلماً متربًا.

بائع الكلمات

كان المنظر الجديد الذى أبرزت سحره أشعة الزمن هو منظر رجل من رجال

الفكر ، رجل يحرك بقلمه الأذهان ويقود الآراء رجل واسع الشهرة يستطيع بأسطر قلائل أن يهدم مبدأ ويبدأ آخر ، رجل يستطيع أن يرتقى بالناس إلى مستوى أفضل .

وبالفعل بدأت السير فى طريقى متجهًا إلى المنظر الجديد موليًا وجهى شطر مثلى الأعلى ، وأنا كما قلت لكم رجل محظوظ فسرعان ما وجدت نفسى أقترب وأقترب وأمعن فى الاقتراب بكل ما بدا من جهد متخطيًا الموانع قافزًا العقبات كأنى جواد فى سباق مع الأيام ، لقد كنت أعدو والزمن يعدو خلفى ، أنا فى عجلة وهو فى عجلة ، أنا أريد أن أصل وهو يريد ملاحقتى .

ووصلت أخيراً منهك القوى مبهور الأنفاس ، ووقفت أمعن النظر فى المنظر بعد أن بلغته وتأملت نفسى بعد أن أصبحت المثل الأعلى النفيس الجوهر الطيب اللب ، ويا سخريتاه من رجال الفكر وقادة الرأى ، واسخريتاه منهم فى بلد أجدب فيه الفكر وامحى الرأى ، لقد أصبحت مرة أخرى ذلك الرجل الذى تمنيت أن أكون . . الرجل الذائع الصيت ، الواسع الشهرة الذى يحسب الناس لقلمه ألف حساب ، الرجل الذى أراد شيئًا فعله ، وإذا فعله هز به مشارق الأرض ، ومغاربها ، ترى هل وجهت الآراء توجيهًا سديدًا؟ . . . ترى هل ارتقيت بالناس وسموت بهم إلى مستوى أفضل؟ ترى هل سموت أنا بنفسى وارتفعت؟ أبدًا والله لقد وجدت نفسى أشبه ببائع ترمس ، أجل لقد أصبحت بائع كلمات وعلى قدر ما يدفعون لى أكتب لهم ، ولست أشك فى أن بائع الترمس خير منى وأفضل ، فهو يبيع شيئًا ملموسًا يحس به الناس جميعًا بين ضروسهم وفى أمعائهم ، أما أنا فأبيع لا شىء ، أبيع كلمات بعد لحظات ستذهب مع الريح ، فهذا بلد لا تجدى فيه الكلمات نفعًا إنما تجدى فيه العصا والسياط .

لشد ما أخطأت فى مثلى الثانى ، ولشد ما خدعنى منظره الفاتن من على بعد ، لقد أصابتنى خيبة الأمل مرة أخرى وأحسست من نفسى ومن الناس بمرارة شديدة ، وكان يجب أن أرتدع وأن أقنع من الحياة بما وصلت إليه ، ولا أجهد نفسى بعد ذلك ، ولكنى حاولت مرة أخرى أن أخدع نفسى قائلاً لها إنى قد أخطأت المثل مرة أخرى ، وأن هذا البلد لا يجدى فيه الموقف السلبى وإنى لا أستطيع أن أكون شيئًا بمجرد النصح

والإرشاد وإن من الحمق أن أكون من قادة الرأى فى أمة لا رأى فيها، وأن خير ما أفعل هو أن أكون من أصحاب السلطات حتى أستطيع أن أفعل شيئًا إيجابيًا.

كرسى الوزارة

وبدأت أتطلع إلى أفق الحياة مرة أخرى، ولاح لى منظر من بعيد يدعونى إلى التقدم حتى أبلغه، منظر أشد من المنظرين السابقين فتنة، وأكثر روعة، وأبعد مثالاً، منظر كرسى الوزارة، لقد أضحى مثلى الأعلى الجديد أن أكون وزيرًا، لا تضحكوا منى ولا تسخروا لقد قلت لكم إن آمال الإنسان لا حدود لها، وأنه لا حرج عليه فى أن يأمل ما يشاء، ولكن الحرج على القدر الذى يُنيل الإنسان أمانيه الهوجاء، فإذا أردتم أن تضحكوا أو تسخروا فاضحكوا من الأقدار واسخروا من الظروف المجنونة الخرقاء التى جعلت منى فعلاً وزيرًا.

لقد بدأت أسلك الطريق السياسى وأخذت أخوض فى أوحاله، فلقد كان أكثر الطرق التى سلكتها امتلاء بالأوحال والقاذورات مستعينًا بكل ما وهبه الله للنفس البشرية من نفاق ومكر ومخاطلة ورياء، وحثثت الخطر وبدأت أقطع المرحلة تلو المرحلة فأصبحت عضوًا فى مجلس النواب الذى كان يفتننى منظره فيما مضى، وكنت أحس له برهبة ومهابة، ولست أظن أنى فى حاجة إلى أن أصف لكم كيف وجدته على حقيقته، لقد وجدت المسألة كلها لا تعدوا أن تكون هزلاً فى هزل، وما استطعت أن أتبين أى صلة بين مجلس النواب والحياة النيابية الحقة، لقد كان جدارًا زائفًا، وكان أشبه بلعبة لتسلية الأطفال أو أشبه بمسرح للتمثيل، لقد كان خدعة وحرام علىّ أن أضيع الكلمات فى سخرية منه، فهو حتى لا يستحق السخرية، إنه لا شىء، إنه والعدم سواء.

وأخذت أعدو فى الطريق وأعدو وشعرت أن الوصول يحتاج منى أن أكون ممثلاً مهرجًا فكنت، وأن الغاية تبرر الوساطة ولابد أن أصل إلى الغاية مهما كانت الوساطة، ماذا يضرنى فى أن أكون شيخ المهرجين فى أمة التهريج والمهرجين؟

وبعون التهريج والنفاق والمكر والرياء وبلفتة من الظروف الخرقاء الهوجاء، وعلى أكتاف الحمقى والمخابيل والجهلاء وصلت أخيراً إلى كرسى الوزارة وما أدراكم ما كرسى الوزارة . . هل تسمحون لى بفترة أتمالك فيها أنفاسى، لقد بلغت المنظر السحرى الرائع الذى كان يخيل لى أنه أبعد من الجوزاء، وأكثر استحالة من العنقاء، لقد أصبحت أخيراً المثل الأعلى الذى ليس هناك أكثر منه علواً ولا أبعد منالاً، ولو كانت الأعمال بالنيات فلا شك أنى سأجزى خيراً على ما نويت، لقد خَلوت إلى نفسى وحمدت الله على نعمته وعلى ما أوصلنى إليه، وكنت أشبه بالمسطول أو الدائخ، فمنذ أن توليت الوزارة وأنا أحس بالخازوق تلو الخازوق، فالمعارضون لا هم لهم سوى محاولة إسقاطى فهم يرجعون كل خطأ يحدث إلى إهمالى، حتى لو كان نفق حمار، فأنا المسئول ويجب أن أستقيل، ولقد تملكنى منذ أن توليت الوزارة غريزة حب البقاء والدفاع عن النفس فتناسيت كل ما كنت أود أن أفعله ولم يعد فى رأسى سوى شىء واحد وهو كيف أكيد المعارضين وكيف أحافظ على نفسى فى كرسى الحكم.

لقد كانت تقودنى فى كل عمل رغبتى فى البقاء، والبقاء له ثمن، فكيف أحاول منع الاستثناءات والوساطات والمحاسيب والأقرباء والأنصار والمعارف يفرضونها علىّ فرضًا ويضطروننى إلى فعلها أو الانفضاض من حولى، حتى السياسة الخارجية لم يكن يوجهنى فيها إلا حب البقاء، فأنا مائع حائر بين الداخل والخارج أشتد مع الخارج لأرضى الداخل، فإذا ما أكفهر لى وجه الخارج أرخيت له حبًا فى البقاء.

رصاصة فى القلب

لقد تعبت . . . حقًا تعبت، ولكن السلطان لذيذ والحكم ممتع لقد كرهنى الكثير من الناس دون سبب سوى ما قال الشاعر:

إن نصف الناس أعداء لمن ولو الأحكام وهذا إن عدل

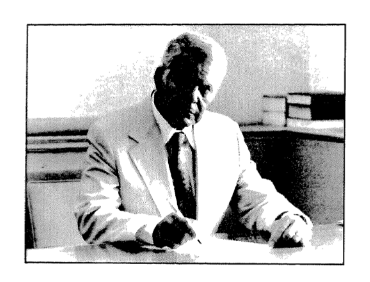
أصبت اليوم برصاصة وأنا خارج من مجلس الوزراء، لقد قتلونى بلا سبب،

فلا فعلت أحسن ولا أسوأ مما فعل غيرى، فكلنا فى الهوا سواء، إنى أحتضر الآن، ولست أشك فى أنهم سيجعلون منى بطلاً، لست أدرى لماذا؟ إن كل ما فعلته أننى قُتلت، يالهم من حمقى أغبياء، إنى أحس أنى خارج من دنياكم بعد لحظات، بصقة عليها فإنى أكرهها، رغم أنى قد وصلت فيها إلى أقصى ما يصل إنسان، إنها دنيا هاوية، ومهما وصل الإنسان فيها فمازال فى القرار.

بصقة على دنياكم، فما صادقت فيها إلا كل أجوف زائف عاطل، بصقة عليها، وعليكم، أيها الحمقى الأشقياء، غداً ستخلدون ذكراى وتشيدون لى قبراً بين قبور العظماء، بصقة على قبور عظمائكم، لو بعثوا من الأجداث لقالوا لكم:

«أيها الحمقى كفى سخفًا واصرفوا النقود التى شيدتم بها القبور لتخليدنا على الفقراء من أحيائكم، الفقراء الذين يتضورون جوعًا، ويرتجفون عريًا، أيها الحمقى احيوا أحياءكم خير من أن تحبوا ذكرى موتاكم».

(«أبو الريش» ١٩٥٠)



أيها الغائب..

إن البين مهما يحل بينك وبين من أحببتهم

فلن يستطيع أن يحول بين روحك وأرواحهم

إن شمائلك ومعانيك محفورة فى وجدانهم

مهما تبعد ومهما نهجر..

حين نرى قرص الشمس الدافىء فى المغيب سنذكرك

الفهـــرس

إهـــــــداء ٥

مقدمة بقلم الكاتبة سناء البيسى ٧

سبعة وجوه ليوسف السباعى ١٣

قصـــة يوســف ١٥

سبعة وجوه ليوسف السباعى ٤٣

وجــه الأديب الروائى: ٤٥

روح مـصـر ٤٧

كـاتب شـعبى بمعنى الكلمـة ٥٩

هبـاء فى هبـاء ٧١

السـقـامـات ٨٣

العمر لحظة ٩٣

وجه الكاتب الصحفى: ١٠١

صـحـفى من باب الأدب ١٠٣

إننا دائما نتحرر من شىء لنخضع لآخر ١١١

ونسيمه العطر ١٢١

كلفنى السادات بالدخول إلى قلب الأهرام بدبابة فاخترت العجلة ١٣١

لقد جئت إلى الأهرام كى أمشى بين الناس وليس عليهم ١٤١

وجـه الوزير الفنان: ١٤٧

وزارة الثقافة لا تصنع الثقافة ١٤٩

يفـوت على الصـحـرا تخـضـر ١٥٩
وجـه المفكر السياسى: ١٦٩
لا محـبـة إلا بعـد عـداوة ١٧١
لم يكن يمينيا ولا يساريا ١٨٣
ولاء للوطن وليس للأشخاص ١٩٥
نصيـر المرأة ٢٠٥
من أجل الحرية والمساواة والسلام ٢١٣
وجـه الشهيد: ٢٢١
حادث الاغتيال ٢٢٣
الإرهاب فى قبرص ٢٣١
المحارب يستريح للأبد ٢٤٧
أرى الموت كامنا بجوارى فى كل لحظة ٢٥٥
وجـه الإنسان البسيط: ٢٦٥
من الذى لا يحب يوسف؟! ٢٦٧
لابد أن نموت موتًا جماعيًا حتى لا نفتقد بعضنا البعض!! ٢٧٩
يا بنى ٢٨٩
«الإنسان لا يستطيع أن يختار ما يريده، ولكنه يستطيع على الأقل
أن يرفض ما لا يريده» ٢٩٩
أول من قذف بى من جيل الآباء إلى جيل الأجداد ٣٠٣
الحب نوع من الانفعال لا يصلح أساسا للزواج ٣١٣
وجـه الفارس النبيل: ٣٢١
فارس الرومانسية ٣٢٣
ختام: بصقة على دنياكم ٣٣٧
أيهـا الغـائب ٣٤٧

المـؤلفـة

- تخرجت فى كلية الآداب ـ قسم علم نفس فى ١٩٩٣ .
- تدربت فى مدرسة «صباح الخير» الصحفية لمدة عام .
- عملت فى وزارة قطاع الأعمال تحت قيادة د . عاطف عبيد فى سنة ١٩٩٤ .
- التحقت بكتيبة مجلة «نصف الدنيا» فى ١٩٩٦ .
- قدمت برنامجًا إذاعيًا بإذاعة «الشرق الأوسط» فى ١٩٩٨ .
- كُرمت من وزارة التنمية المحلية لمساهمتها فى قوافل الخير التى ترعاها الوزارة بالمحافظات المختلفة فى ٢٠٠٠ .
- صدر لها كتاب «سيدة قطار الغناء» عن ليلى مراد (الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣) .
- فازت بجائزة إحسان عبد القدوس فى الإنفراد الصحفى عام ٢٠٠٣ .
- كرمت من جامعة الدول العربية فى مهرجان عيد الأم الواعية الحادى عشر برعاية معالى السيد عمرو موسى أمين عام جامعة الدول العربية عام ٢٠٠٥ .

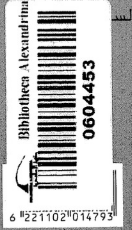
رقم الإيداع ٢٠٠٥/٧١٣٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 1228 - X

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس٠ ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥(١)

لكل منا وجهان لعملة واحدة.. هى نحن. من أول شهيق حتى آخر زفير تستهوينا اللعبة القديمة. فنقذف بها إلى الأعلى متمنين وجه الملك فلا نحصد إلا الكتابة. أما يوسف السباعى فكان له سبعة وجوه تمناها وحصدها فى رحلة الستين عامًا. فمنذ أن أمسك بالقلم وآثر مهمة الكتابة واختار طريق البوح وهو يعيش حياة الفكر بكل آفاقها المضيئة. وسمواتها المتوهجة. وقد مكنته مواهبه الخصبة المعطاءة من أن يجعل من الفن حياة. ومن الحياة فنًا. وأن يمزج بين الحياتين مزجًا لا افتعال فيه. فعاش إنسانًا فى عالم الفكر ومفكرًا فى عالم الإنسان. متواضعا عزيز النفس. خجولا ونجما. ساخرا وجادا. مرهفا وحادا. وهى ميزات لا تتاح إلا للأصفياء من حملة القلم. والمثقفين من أرباب الفكر.

إن الوجوه السبعة التى تتقاسم ملامح يوسف السباعى ليست فى الحقيقة إلا وجهًا واحدًا له مسالك متعددة. تبدأ من نقطة واحدة وتنتهى إلى غاية واحدة. كالنهر العظيم الذى مهما تعددت روافده فإنها فى النهاية تلتقى بمجراه الخالد لتبعث الحياة والنماء فى الأرض.. إليكم يوسف السباعى.. الأديب الروائي.. الكاتب الصحفى.. الوزير الفنان.. المفكر السياسى.. البطل الشهيد.. الإنسان البسيط.. الفارس النبيل.

يوسف السباعى هو كل هؤلاء، وكل هؤلاء هم يوسف السـ



6 221102 014793

دار الشروق
www.shorouk.com